محمد المنسي قنديل

طبيب أرياف



طبيب أرياف

محمد المنسي قنديل

الطبعة الأولى ٢٠٢٠

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

٧ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
www.shorouk.com
dar@shorouk.com
/dar.elshorouk /Darelshorouk

رقم الإيداع ٢٠٢٠/١٤٥٥٦
ISBN 978-977-09-3667-2

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

قنديل، محمد المنسي،
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٢٠
تدمك ٩٧٨٩٧٧٠٩٣٦٦٧٢
١ - القصص العربية
أ. العنوان

طبيب أرياف/ محمد المنسي قنديل
٢٨٢ ص، ٢٠سم
رقم الإيداع ٢٠٢٠/١٤٥٥٦
٨١٣

t.me/qurssan

محمد المنسي قنديل



دار الشروق

١

حقول سوداء على مدى البصر، أرض محروقة تتصاعد من شقوقها أدخنة في خطوط متعرِّجة، كأنها بقايا معركة تمَّ حسمها، أتأملها مفزوعا، ما الذي أحضر الحرب إلى هذا المكان؟ أسمع صوت الفلاح الجالس بجانبي، أحسّ بحيرتي دون أن أتكلم: هذه بقايا القصب يا بيه، بعد أن يتمَّ قطعه لا نقتلع جذوره، نبقيها في الأرض ونحرقها، هذا الرماد الأسود هو أفضل سماد طبيعي.

ألتفت إليه وأتأمله للمرة الأولى، لا أدري متى جلس بجانبي، وجهه مليء بغضون كشقوق الأرض الشراقي، يبتسم في خجل لأنه اقتحم لحظات صمتي، أهزّ رأسي له دون كلمة وأعاود التحديق من النافذة، لا يوجد في داخلي أي فضول للتعرف على هذا العالم الجديد، يكفي أنني أنتقل إليه، كنت فقط غاضبا وحانقا وكل شيء مكبوت بداخلي. الأتوبيس كان مزدحما لآخره بالبشر والحيوانات؛ رجال ونساء وأطفال وماعز وبعض الإوز، يتقافزون مع حركة الأتوبيس على الطريق صعودا وهبوطا، وتصدر عن كل مفاصله أصوات مقلقة، يدور تاركا الحقول السوداء ويسير بمحاذاة ترعة واسعة، مرة أخرى أسمع الرجل الذي بجانبي يقول: اسمها البحر المحيط، تبدأ من بحر يوسف وتمرّ على حدود بلدتنا.

لا أستطيع أن أتمالك نفسي من السخرية وأنا أردّ: هذه الترعة.. محيط؟!

يردّ في خجل: هكذا نسميها ونغني لها أيضا، إنها الأكبر من بين كل الترع.

أصمت، لا أريد أن أصبَّ حنقي عليه، لكنه لا يستطيع أن يصمت، يدرك أنني أفندي، قادم من مدن متجهمة لا تنفتح بسهولة على الآخرين، لكني غريب لا أفهم شيئا مما أراه، في نظري هي مجرد مساحات خضراء، لا أعرف نوع المزروعات ولا وقت غرسها ولا أوان حصادها، يواصل مدّي بالمعلومات في كلمات مختصرة دون أن ينتظر مني ردّا، لم أكن أريد أن أعرف، أريد أن يظلّ هذا العالم غامضا ومجهولا لي حتى أغادره دون أسف، يرتجّ الأتوبيس بشدة ويغوص به الطريق نحو حافة ترعة المحيط، يتوقف قبل أن نغوص في مياهه المتسخة، أقول للرجل في زهق: متى نصل للبلد؟

يقول في ثقة: بعد لحظات سوف تظهر رءوس النخيل، تحت كل غابة من النخيل لابدَّ أن توجد بلدة.

تظلّ السماء رمادية وخالية، تتجمع السحب وتكتسب لونا قرمزيّا، لم أكن أريد الوصول في الظلام ولكن الأتوبيس يواصل زحفه البطيء، تركت بيتي مبكرا، وتنقلت بين قطار وسيارات أجرة، وأخيرا نصحني جميع من في الموقف بركوب هذا الأتوبيس المتداعي، يطلقون عليه «أحلاهم»؛ لأنه أفضل من الحمير وسيارات الأجرة المكدَّسة، وهو أملي الوحيد في الوصول إلى هذه القرية النائية، أغفو للحظات ثم أنتفض مستيقظا، أرى هامات

النخيل على البعد وهي تواصل الاقتراب، ألتفت للراكب بجانبي فيهزّ رأسه مؤكدا، تبدأ البلدة الكابوس في الظهور، نهاية المطاف لجميع الركاب، بعدها يستدير الأتوبيس ويعود، تظهر جذوع النخل ثم تظهر أسطح البيوت الطينية المغطاة بالقشّ، القرية المألوفة التي لم تتغير منذ مئات السنين، يسكنها الفلاح نفسه الذي قطع أحجار الجبل لبناء المعابد والمقابر، وضنَّ على نفسه فبنى البيوت التي يسكنها مع أولاده وحيواناته وقبور أسلافه بالطين؛ بيوتا تتقد تحت الشمس، وتذوب عندما يحين وقت الفيضان،

ما إن يتوقف الأتوبيس حتى تندفع الحيوانات قافزة من النوافذ، وينحشر الناس عند الباب، أنتظر حتى يهبط الجميع ثم أنهض منهكا ومتكاسلا، أشمّ رائحة الناس والبيوت وروث البهائم، بالطبع لا يوجد من ينتظرني، عليَّ أن أجد طريقي بنفسي، أعرف شكل المبنى الذي أسعى إليه، لن يكون مبنيًا من الطين، وربما يمكن أن يكون متداعيا وعلى وشك الانهيار، يجلس صفّ من الرجال على الأرض مستندين إلى جدران البيوت، لا يتحركون ولا يتكلمون، يحدقون فقط في العابرين، تتسع حدقاتهم حين يرونني وأنا أحمل حقيبتي الصغيرة، يعرفون أنني غريب ولكن لا أحد يتحرك ليرشدني أو يعرض خدماته، حتى الرجل الذي كان يجلس بجانبي في الأتوبيس قد اختفى، لن يطول سيري، في هذه المساحة الخانقة سأصل إلى مبتغاي قبل نهاية القرية، ولكن ما إن أستدير بعيدا عن الزقاق الضيق المؤدي لعمق القرية حتى أجد المبنى الأبيض، أتعرَّف عليه على الفور، لم يعد أبيض تماما، منحته الأتربة والأوحال الملتصقة بجدرانه لونا قاتما، اكتسب طابع القرية

الطيني، وأوشك اللون الأبيض على الزوال، بدا متسقا مع ما حوله، لم يكن متداعيا، ولكنه مهجور وحزين، علامة الحياة الوحيدة هي تلك النباتات التي تتسلق جدرانه، ينتصب وحيدا وأمامه مساحة خالية تمتد من بعدها الحقول الخضراء.

موقع الوحدة هو أفضل ما في الأمر، وحيدة في مدخل القرية وليس في قلبها؛ حيث يوجد مجال للتنفس والعزلة والبعد عن العشوائية والزمن المتراكم، أصعد درجات ثلاثا للباب المغلق، أدقّ عليه بقبضة يدي، يُصدر دويّا مكتوما ولكن لا أحد يُجيب، أواصل الدقّ غير مصدق أنه لا يوجد أحد، حتى ولا الحارس المفروض ألا يغادر المكان، لا أدري ماذا أفعل. ليس مجديا أن أتجاهل الجميع، يجب أن أعلن عن وجودي، أتطلع حولي فلا أجد أحدا، تمدّ العتمة ظلّها على السماء ويصبح الهواء أكثر برودة، هل أستطيع العودة؟ ربما ألحق بهذا الأتوبيس الأخير وأهرب من هذا الفخ، أهُمّ بالنهوض ولكني أكتشف أن هناك من يراقبني؛ غلامًا نحيلًا يركب حماره، يقف في منتصف الطريق، أصيح فيه: هل تعرف أحدا من الذين يعملون في الوحدة؟ اذهبْ وأخبرْهم أن الطبيب قد جاء.

يُصاب الغلام بالفزع، لا أدري لماذا. يلكز حماره ويُسرع بالهرب، هل فهم ما أقوله له؟ هل أنتظر عودته، أم أسرع قبل أن يرحل الأتوبيس؟ أعود للجلوس على السلم المتسخ، من بعيد تبدأ الكلاب في النباح، تودع آخر أضواء النهار، هي أفضل من يشعر بانسحاب الضوء، هل أظلّ في الانتظار حتى أسمع صوت الذئاب؟ كلما زادت الظلمة زاد خوفي، عليَّ أن أنصرف من هذا

المكان المخيف، أحمل الحقيبة لأعود من الطريق الذي جئت منه ولكني ألمح رجلا قادما وهو يعدو نحوي، أسمع صوت أنفاسه المتحشرجة قبل أن أرى وجهه، عجوزا منهكا، يرفع رأسه ويراني فيزيد من سرعته وهو يهتف: يا دي النور.. يا دي النور.

يحلّ علينا الظلام يحيط بنا، عتمة لا تدع لنا فرصة لتأمل وجه الآخر، ولكنه كان رجلا عجوزا، يمدّ يده نحوي ولكني أتظاهر بأنني لا أراها، كنت مغتاظا منه، من تلك اللحظة التي أظهرت عجزي عن العودة، يظلّ واقفا، متوقعا أن أقول شيئا ما، ولكني أشير إليه في صمت نحو باب الوحدة المغلق، يسرع ويخرج من جيبه حزمة من المفاتيح ويجذب الباب بقوة، يندفع من الخارج تيار من الرطوبة، من هواء معتق كان مخزونا في الداخل، خليط من رائحة العفونة وزجاجات محاليل الراوند، ترى كم ظلت الوحدة مغلقة؛ ولماذا تمَّ إهمالها كل هذه المدة؟ ندخل من الباب ونقف في الظلام، أسمع صوته وهو يقول: محسوبك دسوقي السنجابي، اسمي غريب، أليس كذلك؟ ولكني أقدم العاملين في الوحدة هنا.

كنت أختنق، لا حاجة للمزيد من الكلمات، أقول في زهق: ألا يوجد هنا أي ضوء؟

يبدو وكأنه فوجئ بكلماتي ونبرة صوتي، يتراجع للوراء ويبدأ في البحث، لا أدري عمَّ يبحث بالضبط. البلدة كلها دون كهرباء، وصلنا إلى نهاية السبعينيات ومازالت قرى مصر غارقة في ظلمة الزمن القديم. يتركني فجأة ويغوص في عتمة الداخل، لا أدري ماذا يفعل، أسمعه وهو يُطلق صيحة انتصار كأنه اكتشف بئر بترول، يعود وهو يحمل «كلوبا» ضخما، أنبوبة صغيرة للبوتاجاز

فوقها علبة مستديرة من البلاستيك في وسطها «رتينة»، هي التي تتوهج بالضوء عندما تشتعل، يحتضنه مثل كنز ثمين، يضعه فوق المنضدة ويبدأ محاولات مستميتة في إشعال أعواد الثقاب، وأخيرا تشتعل النيران في الشمعة الخامدة، تتوهج بالضوء فجأة، تكشف عن ملامح الرجل، وجهه الداكن وغضونه الدفينة، رأيت عينيْه وفيهما بريق لامع وهو يحدق فيَّ، يحاول أن يعرف نوعي، أظلّ معلقا بعينيْه، عاجزا عن رؤية بقية المكان، عجوزا متمرسا مرَّ عليه عشرات الأطباء وظلَّ في مكانه، هو الذي سيرافق رحلتي لهذا المكان، شاهد إنشاء الوحدة وكان أول من توظف فيها، وسيظلّ يذكرني أنه رغم كل شيء قد أنقذني من النوم في العراء، يرى هيئتي المتعبة، وحقيبتي الملقاة على الأرض، وسيبقى هنا بعد أن أرحل بالتأكيد، يقول: فلنذهبْ إلى غرفة الكشف.

يتقدمني وهو ينير المكان بواسطة الكلوب؛ غرفة صغيرة، مكتبا معدنيّا في أحد الأركان وصوانا معدنيّا أيضا ومنضدة للكشف وخيوطا كثيفة نسجتها العناكب على مدى أشهر، يسرع ويزيل التراب من فوق المكتب والمقعد، تصبح الغرفة أكثر اختناقا بسبب ذرات الغبار، أجلس خلف المكتب؛ مكاني المعتاد، يفاجئني دسوقي بجلوسه على الأرضَ، يختفي في الظل فلا أراه بوضوح، تكتسي يدي بطبقة التراب الكثيفة الموجودة على سطح المكتب، أسأله: هذا الطبيب الذي سبقني، متى ترك الوحدة؟

يقول: من شهور طويلة، هامَ فجأة على وجهه وترك كل شيء خلفه، كان يبدو هادئا في البداية ثم تغيرت طباعه لا أدري لماذا،

أصبح عصبيّا ويدأ يرسل الإخطارات لمديرية الصحة بالخصم من مرتباتنا دون مبرر، ثم رحل فجأة.

أظلّ أحدق فيه غير فاهم، كيف انتهى به الأمر إلى هذا المصير المفزع، هل يمكن أن يحدث هذا لي؟ أقول متوجسا: هل كانت هناك مشاكل؟

يهزّ رأسه وهو يقول: لا يوجد مكان يخلو من المشاكل، ولكن لا أحد يهرب بهذا الشكل.

أقول: ربما لم يكن العمل جيدا هنا في الوحدة؟

يقول: نحن مثل أي مكان في الصعيد بمحاسنه ومساوئه، ستجرِّب هذا بنفسك، على أي حال، كان يومك طويلا ولابدَّ أنك متعب.

أنهض واقفا، فينهض هو أيضا، يحمل المصباح الثقيل ويتقدمني إلى حيث يوجد درج يؤدي للأعلى: عليك أن تتحمل سكنك لهذه الليلة، وغدا سنبدأ في التنظيف، حذارِ من الفئران.

تحذير متأخر، أفاجأ بأجسادها الداكنة تتقافز هابطة في عكس اتجاهنا، فئران لم أرَ مثل حجمها من قبل، أقول مذعورا: إنها ضخمة. يقول في هدوء: لا تلقِ لها بالك، هذه فئران الحقول، مثل أهل قريتنا منفوخين على الفاضي.

يتملكني الرعب، أتخلى عن التعالي والبرود اللذين كنت أتظاهر بهما، أريد أن أتشبث به، أو أستدير وأعدو هاربا، ولكننا نواصل الصعود لأعلى، أقول: لا عجب أن الطبيب الذي قبلي قد فرَّ هاربا.

يقول: بعون الله سننظف كل شيء، المكان كان مهجورا لفترة طويلة، ولكن أنت جئت وسيتغيَّر كل شيء للأفضل.

يدور بالمصباح حتى يتأكد أن المكان خالٍ وأن الفئران قد هربت جميعا، يدسّ المفتاح في الباب فيصدر صوتا أشبه بالأنين وهو يدفعه بكتفه، يتركني أدخل ويدخل خلفي ويغلق الباب بسرعة، أقف مسمرا في مكاني وهو يطوف في الشقة باحثا في أركانها المختلفة، يكشف الضوء عن غرفة بفراش متوسط الحجم، ثم غرفة أخرى خالية، ومطبخ صغير، وحمام أصغر، شقة حجمها مناسب ولكنها تفتقد الأمان، يفتح بابا يؤدي إلى شرفة صغيرة، تتسلل هبَّة من هواء الليل البارد، محمَّلة برائحة التراب والزرع والروث، ألتقط أنفاسي أخيرا، أدور ببصري، أخطو نحو السماء المرصَّعة بالنجوم، وأرى جمع النخيل وتحته البيوت، تنبعث منها أدخنة تتصاعد في الهواء وتظهر أضواء متفرقة، كأنها عيون لامعة تراقبني من بعيد، كنت متعبا، ومن المؤكد أنه لا يوجد في السكن أي نوع من الطعام، ولكنَّ هناك فراشا أستطيع أن أستلقي عليه، يضع دسوقي المصباح على منضدة بحيث يبعث الضوء في كل مكان، يبدأ في التراجع نحو الباب وهو يقول: سأتركك ترتاح، ولكني لن أغادر الوحدة.

أقول مستغربا: أين ستنام؟

يقول بلامبالاة: سأنام في أي مكان، سأفرش على الأرض وأنام، هذا مكاني.

أنظر إليه في استغراب: تنام على الأرض فوق البلاط العاري؟

يقول: نحن صعايدة، متعوِّدون على أرض الله الخشنة، نصلي عليها ونزرعها ونقبلها راضين وننام عليها.

أقول في حزم: اذهبْ إلى بيتك وعدْ في الصباح، لا أحتاجك اليوم.

يقول عدة كلمات غير مفهومة قبل أن يتراجع، يخرج ويغلق الباب خلفه في سرعة، أجلس منهكا فوق أحد المقاعد، هو أيضا لم يكن ثابتا على الأرض، أسمع صوت الفئران وهي تقرض عُقب الباب، تحاول أن تجد ثغرة تنفذ منها للداخل، أتأمل الباب في قلق، كان الجزء الأسفل مدعما بطبقة من المعدن، بغلاف لا يمكن للفئران أن تقرضه، يطمئن قلبي قليلا وأبدأ في اكتشاف المكان، أبقي المصباح مشتعلا، لا أجرؤ على إطفائه، أستلقي على الفراش وأغمض عينيَّ، منذ أشهر قليلة كنت قد تعوَّدت على النوم على أرض رطبة لا يفصلني عنها سوى بطانية، مجرد بطانية مليئة بالثقوب، وعليَّ استنشاق هواء عفن لا يتجدَّد. تأقلمت على ذلك مثل ديدان الأرض، ومثل بقية الديدان داخل الزنازين الضيقة، أيام طويلة افتقدت فيها الأمل، في انتظار عقاب ما يمكن أن يحلَّ بي في أي وقت، لم يكن جسدي متعبا فقط ولكن روحي كانت مهدَّدة، أصوات الليل كانت تثير داخلي رعبا مميتا، تفتيش وشتائم وركل بالأقدام، أغمض عينيَّ وأحاول أن أبعد كل صور الإهانات عن ذهني، لا أدري كيف خرجت من هذا المستنقع البائس، معجزة ما، لا تحدث كثيرا، واحدة من قرارات العفو العشوائية، تماما مثل قرار السجن العشوائي، دفعتني خارج عتمة السجن، أحمل أوراقي؛ أوراق ميلادي وشهادتي وتصريح النقابة لمزاولة المهنة، لكن كل

هذا لم يكن كافيا لأستعيد وظيفتي. ينظر الموظف نحوي من خلف مكتبه المكدَّس بالملفات، يقول: كل هذه الأوراق غير كافية، أهمّ ورقة يجب أن تأتي من أسفل، عليك الهبوط إلى أسفل للحصول على الموافقة.

لم أكن أعرف أن هناك طريقا للأسفل، أهبط وأنا أعتقد أنني ذاهب للأرشيف، لكن الأسفل كان مختلفا، أكثر نظافة وفخامة من الأعلى؛ سجادًا أحمر وأوانيَ للزرع ولوحات غريبة على الجدران، كأنهم كانوا يتوقعون قدومي. ضابط أمن الدولة الذي قابلني كان يضع الملف الخاصّ بي أمامه، من موقعه في الأسفل كان يتحكم في كل الأدوار العلوية، كل قرار يؤخذ في هذا المبنى كان لابدَّ أن يمرَّ من خلال مكتبه ويخضع لموافقته، كان لطيفا وحازما، يقلّب أوراقي ويقول في إيجاز: أقرب الناس إليك هم الذين خانوك؛ لذلك فمصادرنا مؤكدة. لم يذكر أي أسماء، ولكن كلماته القليلة أفقدتني الثقة بالجميع حتى بنفسي. أحدق فيه وهو يتناول الأوراق من يدي، يقول: كنت طالبا مشاغبا، لم تترك مظاهرة ولا ندوة ولا جريدة حائط دون أن تشارك فيها، تعلن عن عصيانك أمام الجميع، لم يكن السجن إلا عقابا هيِّنا، ولكن روحك في يدنا الآن.

أظلّ صامتا، أحسّ بالفعل أنه يقبض على روحي بغطرسته، يحرِّك أوراقي في زهو من يلعب بالمصائر، يقول: سنعفو عنك مؤقتا، سنرسلك بعيدا ولكنك لن تغيب عن أعيننا، الصعيد هو منطقة الإصلاح والتهذيب لكل المشاغبين، إنه يشبه السجن إلا قليلا. يضحك بخشونة، ولكني كنت في حاجة إلى أرض جديدة، موطئ قدم مختلف، يوقّع الأوراق ويضع عليها ختمه ولكنه

يبقيها أمامه، يعود للقول: في المرة الأولى نحذر، ولكن في الثانية نضرب. خذ أوراقك واستلم وظيفتك، وتذكر أننا وهبناك فرصة جديدة. أستلم أوراقي وأصعد إلى المكاتب البائسة في الأعلى؛ حيث لا سجاد أحمر ولا أوانٍ للزرع ولكنْ موظفون عجائز يعانون من الربو. أوقّع على كل الأوراق التي يقدمونها لي، وكل تعهدات حسن السير والسلوك، وأهبط للبحث عن وسيلة تقودني لهذه القرية، جئت بحثا عن عالم لا أثر فيه لذكرياتي القديمة دون أمل للعودة، ودون أنْ أتأكد من موطئ قدمي.

يرفض جسدي المتعب أنْ يسترخي، كأنه قد تمَّ فقط نقلي لزنزانة جديدة، من بعيد تعوي ذئاب منفردة، تردّ عليها الكلاب في هِستيريا من النباح، تمرق بينها أرواح الموتى، يمضي الليل وأنا أتقلب على فراش مترب، لا أستطيع أن أنتزع نفسي من هذه الظلمة الممتدة، تلتبس ظلمة السجن مع ظلمة ليل القرى، ولا توجد أحلام ولكن كوابيس، أفتح عينيَّ مفزوعا، أتلفت حولي محاولا أن أتعرَّف على المكان، يخفت ضوء المصباح وتحوَّلت «الرتينة» إلى لون أصفر قاتم، كأنها على وشك الاحتراق، أسرع بإطفائها. أنوار الفجر تكشف تفاصيل المكان، أخرج للشرفة، يتسلل النور الرمادي برقة من خلال الضباب الذي ينام على الحقول ويغلّف النخيل العالي، رغم السكون السائد ألمح أجساد أهل القرية وهم يسيرون خارجين من بيوتهم الواطئة متجهين للحقول، يسيرون في مجموعات متلاحقة؛ رجال ونساء وخلفهم الأطفال والحيوانات، يحمل الرجال الفئوس والمعاول وتحمل النساء صرر الطعام، وتسير الحيوانات محنية الرءوس، تدرك أن هناك يوما من الشقاء

الطويل في انتظارها، العجائز في آخر الصف؛ بعضهم يتوكأ على العصي ويجاهدون في السير، كأنهم موتى تمَّ بعثهم للتو، يسعون عند مولد الضوء كما فعلوا من آلاف السنين، طقس أسطوري يتمّ بجلال يليق بلحظة الخلق الأولى، أتأملهم مبهورا عاجزا عن الحركة، يسيرون مجموعة إثر أخرى، في توافق مع حركة العالم، دورة مكملة لدورانه عبر تاريخ بعيد، لا أحد منهم يلتفت نحوي، لا أحد يراني، من خبرتي الحياتية أعرف نوعية الطعام الموجود في هذه الصرر، ليس أكثر من أرغفة الخبز ورءوس اللفت المخلل، حتى قطع الجبن تبدو باهظة الثمن بالنسبة إليهم، كيف واصلوا الحياة عبر كل السنوات بهذا القدر الضئيل من الطعام؟ أظلّ واقفا حتى يختفي طابورهم الحي وينتشر بين الحقول، ينزاح اللون الرمادي ويكتسب الضباب حمرة باهتة، يذوب الرماد، وتبدأ أشعة الشمس في الانتشار من خلف جذوع النخل، يبدأ يومي الأول.

قبل أن أهبط يبادرني دسوقي بإحضار طعام الإفطار؛ عدة أرغفة وقطعتيْن من الجبن وحزمة من الجرجير، يتمهل قليلا قبل أن يخرج من جيبه قرطاسي شاي وسكر يضعهما أمامي في اعتزاز، أدرك فيما بعد أنهما أهم شيء، لا يمكن أن تكتمل أي جلسة إلا إذا كانا حاضريْن، أنا نفسي أشعر بسعادة غامرة وأنا أجلس أمام كوب من الشاي الساخن، طوال فترة السجن لم أتناول سوى قطرات باردة. أجلس أمام الطعام الذي أحضره دون طلب شاعرا بالامتنان، يحاول التمنع حين أعطيه بعض النقود، لكني أصرّ في حزم على أن يأخذها، لا أريد أن يكسر عيني من اليوم الأول. يدخل المطبخ ليصنع لي الشاي، هناك موقد وثلاجة تعمل بواسطة أنبوبة

البوتاجاز، ويجب أن نشعلها من فتحة في ظهرها الخلفي، وهناك أدوية قديمة مخزَّنة في الثلاجة؛ أمصال ضد لدغات العقارب والثعابين لابدَّ أنها قد تلفت، ولكني لم أجرؤ على التخلص منها، أسمع صوت ضجة قادمة من أسفل، أتطلع لدسوقي فيقول إنهم المرضى، لقد عرفوا أن الطبيب جاء أخيرا.

أهبط فوق الدرج فأجد وجوها كثيرة تحتلّ المكان؛ بعضها يجلس مستندا إلى الجدار، ونساء تنام على الأرض، وأطفالا هزْلَى ومتسخين، يستلقون في أوضاع مختلفة كأنهم نقوش فرعونية قديمة، تتعلق وجوههم بخطواتي على الدرج كأنني رجل المعجزات، أطوي أعماقي على هزائمي القديمة، أمرق من خلال زحامهم ووجوههم التي دبغتها الشمس، تتقدم ممرضة عجوز، ترجعهم للخلف وتهيئ لي طريقا إلى غرفة الكشف، أجدهم يملئون غرفة الكشف أيضا، يتمتمون بكلمات كانوا حريصين على أن أسمعها، كيف أنني طيب وماهر وابن ناس، كلمات تملق لا تستند إلى أي اساس، لا أحد منهم يعرفني، أخرج السماعة من جيب معطفي، الآلة السحرية التي يقدِّسها الجميع، تقول الممرضة: أنا عطيات، سأكون هنا بجانبك دائما.

أقول لها: أخرجيهم من الغرفة أولا، لا أستطيع أن أفحص أحدا وسط هذا الزحام.

تأتي ممرضة أخرى وتبدأ في دفعهم جميعا خارج الغرفة، لا تبالي باعتراضاتهم الخافتة، كم عدد العاملين في الوحدة؟ لم تتح لي الفرصة حتى أعرف، تقوم الممرضة التي لم أعرف اسمها في رصهم في صفٍّ طويل، تضع الأمهات اللواتي يحملن أطفالهن في

صفٌّ جانبي، وتعطيهم أولوية في الدخول. كانت محترفة، تعمل في صمت وعلى وجهها تكشيرة هائلة، يبدأ المرضى في الدخول، استُخدمَ سرير الكشف في فحص كل مريض خلف الحاجز القائم، تتبادل الممرضتان نظرات من خيبة الأمل، أدرك منها أن ما أقوم به مضيعة للوقت، وسيستغرق اليوم بطوله، الكشف يجب أن يكون على الواقف، أسمع شكوى المريض وكفى، نصف الشكوى كافية، في بعض الأحيان لا أستخدم حتى السمَّاعة التي هي بمثابة آلة سحرية، أغرق تدريجيًا في العمل، في أوجاعهم وآلامهم، كانوا مصابين بكل الأمراض؛ أمراض الفقر وأيام الشقاء التي لا تنتهي، أكتب الأدوية في التذاكر التي يحملونها ولا أعرف إن كنت سأجدها في غرفة الأدوية التابعة للوحدة.

أمّ تحمل طفلا ضامرا، يعاني من سوء التغذية ماذا يمكن أن أفعل له؟ شابٌ يشكو من أن بوله كله دم، كليته تمَّ تدميرها بالكامل، أشخاص يعانون من أورام ودمامل متقيحة وجـروح ترفض الاندمال، ليس هناك مرض بسيط، لا يستسلمون ولكنهم يعانون في صمت لأنه لا توجد وسيلة غير المعاناة. وجوههم متداخلة، لا أدري كيف سأتذكرها عندما يحين موعد صرف الدواء. أرفع رأسي من فوق بطن مريض يعاني من تضخمٍ خطير في الكبد والطحال، أعراض البلهارسيا لا ترحم أحدا، يكفِّرون عن كل ذنوب الطاعة والاستخذاء التي ارتكبها أجدادهم، أمراض تمتدّ من شقوق الأرض إلى عروق دمائهم.

أرفع رأسي فأراها، شكلا مختلفا وسط هذا البؤس، طيفا عابرا، ترتدي البياض، معطفا أبيض يصل لمنتصف ساقيْها، تضع يدها

في جيوب معطفها وتسير بتمهل، تترك شعرها منسدلا، تطيره نسمة قادمة من الحقول، ابتسامة صغيرة، في لمحة عابرة يتجلى جمالها ونضارتها اللذان لا ينتميان لهذا المكان. يتأوه المريض الراقد أمامي يلفت نظري إلى وجوده، ولكنها تختفي فجأة كما ظهرت فجأة. أعود لبقية المرضى بعيون زائغة، أتذكر فجأة فجيعة قلبي التى واجهتها في اليوم الأول من خروجي من السجن، اختلط الوجه العابر بالوجه القديم الذي كنت أعشق ملامحه، كأن في حياتي امرأة واحدة بوجهيْن مختلفيْن، لا يشبه أحدهم الآخر، كنت واثقا أنها المرأة نفسها؛ وجهها الوديع المحبّ قبل دخولي للسجن، ووجهها الرافض بعد خروجي لا يحمل أي مشاعر، لا ذكرى ولا ألم، تريد أن تتخلص من المقابلة بأسرع وقت ممكن. الآن يظهر هذا الوجه العابر قبل أن يرتدي قناع الكراهية، أهزّ رأسي وأواصل فحص الوجوه المتعبة والأجساد المنهكة، ولا أصدق أن أعدادهم تتناقص، ولا يبقى أحد خارج غرفة الكشف، من المؤكد أنهم متكوّمون أمام شباك غرفة الأدوية، أخرج من غرفة الكشف أخيرا، أتطلع في كل الاتجاهات، لا أثر لها، هل كنت أتخيل؟ ألقي نظرة عابرة على غرفة مكتوب عليها رعاية الأطفال، ميزان صغير ومقياس للطول ومنضدة صغيرة للكشف، كانت خالية، أحسست بخيبة أمل، ولكن لا وقت للبحث ولا للتساؤل.

أتجه إلى غرفة الأدويـة، أفتحها للمرة الأولى، أشمّ رائحة سحابة كثيفة خارجة منها، كأنني أدخل محرابا متربا وعفنا، كان من المفروض أن أتسلمها من الطبيب الذي سبقني، نحصي معا أقراص الدواء وأمبولات الحقن وزجاجات المحاليل، ولكن هذا

لم يحدث. استلمت العهدة بهذه الطريقة العشوائية، دخلت وحدي للغرفة المجهولة، لا أحد يدخل معي لأنني المسئول عن ضياع ولو قرصا واحدا منها. تواجهني طبقات التراب وخيوط العنكبوت، لابدَّ أن هناك العديد من الأدوية التالفة، استطعت أن أزيح جزءا من الأتربة قبل أن تتكشف صفوف من زجاجات مختلفة الأحجام، متراصة على الأرفف، وعلب من القصدير تحتوي على الأقراص وعلب الحقن، أفحص كل شيء بسرعة، لا أستطيع أن أتأكد من تاريخ الصلاحية، ولكنها كانت كل ما أملك، الشيء الإيجابي الوحيد أنه يوجد الكثير من زجاجات محلول الراوند، المزيج السحري الذي يتناوله الجميع مهما كانت الأعراض.

أفتح النافذة المطلة على الناحية الأخرى، كانوا جميعا موجودين من خلف قضبانها، يترقبون ظهوري، زادت معاناتهم بفعل ساعات الانتظار، بعضهم كان نائما على الأرض، غائصا في التراب، وبعضهم يأخذ أنفاسه بصعوبة، أشكّ أن تستطيع هذه الأدوية القديمة أن تخفف من آلامهم، يتزاحم البعض الآخر منهم أمام النافذة، يمدون أياديهم بالتذاكر التي كتبت عليها وصفات الدواء، أدركت أنني لن أستطيع أن أعطيهم الوصفات والأدوية التي يحتاجونها، الأجزاخانة لن تقدر على ذلك حتى لو تضاعف ما فيها من أدوية، أتناول التذاكر التي كتبتها دون أن أستطيع أن أفيَ بما فيها، أختصر الأصناف وأختصر الكميات، أدرك أن جذور المرض مقيمة في مصر بينما الصحة عرض زائل، مثلما تمَّ خلق الظلام وجعله مقيما في مصر، راقدا في ثنايا تربتها ووضع النور في أماكن أخرى، أواصل صرف الدواء، تضيق أنفاسي وتتشبث

الأصابع بمعصمي، يريدون مني أن أراهم كأشخاص، كمصائر مختلفة، ولكني كنت عاجزا عن ذلك، كانوا كتلة متصلة من البؤس، نعرف أن ما تأخذه هو أقل من القليل ولكنها لا تملك إلا أن ترضى، يرددون دعوات متصلة، بأن أعلو أكثر من العلو الذي أنا فيه، كيف يمكن أن أعلو وكل هذا الانكسار بداخلي، وهذا العالم يخلو من كل ما أصبو إليه؟ أواصل صرف الأدوية، أحاول أن أسكت أصوات التذمر الخافتة. تخلو الساحة الموجودة أمام النافذة ببطء، وينهض الراقدون على الأرض، ينفضون التراب من على ثيابهم ويبتعدون، أغلق النافذة أخيرا، ولكني أجد نفسي غير قادر على مغادرة الغرفة، أنظر إلى علب القصدير التي تحيط بي، لبقايا الزجاجات الفارغة، لم يتركوا لي وقتا، إن كان هناك ما يمكن أن أصلحه، لم أملك الوقت لإصلاحه، تثقل عليَّ عتمة الغرفة، أخرج منها أخيرا، أجدهم جميعا في انتظاري. الممرضتيْن ودسوقي ورجليْن آخريْن لم أرهما قبل الآن؛ رجلًا عجوزًا وآخر أصغر عمرا، لم تكن هي موجودة، من المؤكد أنني كنت أتخيل، يقول دسوقي بشيء من الإشفاق: لابدَّ أن نذهب لمديرية الصحة في المدينة، مخزن الأدوية سوف يحلّ بعضا من مشاكلنا.

يقرءون ما بداخلي، يعرفون مدى الورطة التي أنا فيها، تبدو في أعينهم نظرة من التعاطف والإشفاق، تتقدم الممرضة الثانية، تقول في صوت خافت: اسمي علية، لقد صعدت إلى مسكنك ونظفت كل شيء، لا تقلق لقد وضعت لك طعاما في الثلاجة، إنها تعمل، ضعيفة بعض الشيء ولكنها تعمل.

أمدّ يدي في جيبي، ولكنها تقول في حزم: ليس الآن.

ولكني أصرّ، لا أريد أن أكون مدينا لأحد، يقدِّم لي أحد الرجلَيْن نفسه؛ عوض كاتب الوحدة، ويقدِّم الرجل العجوز نفسه: محروس عامل مكافحة البلهارسيا، أقدم عامل في الوحدة.

أنظر نحو دسوقي الذي يتقدَّم محرجا: فعلا هو الأول، وأنا الثاني، ويمكن القول إن هذه الوحدة قد أنشئت من أجله؛ لأن الذي قام بتعيينه الرئيس جمال عبد الناصر شخصيًا.

أنظر نحوه في دهشة: عبد الناصر حتة واحدة؟

يخفض محروس رأسه في تواضع ويقول: هذه حكاية قديمة.

يوما ما سوف أسمع منه هذه الحكاية، هكذا أفكر، تكتمل أركان الوحدة الآن، ولا يبدو أن أحدَ ينقصها، لا أثر للطيف العابر، لا أجرؤ على السؤال، أجلس في غرفة الكشف متعبا، يبدءون جميعا في الانصراف، يرددون أعذارا مختلفة، الحافلة «أحلاهم» هي التي تتحكم في حركة الجميع، يجب أن يلحقوا بها حتى يصلوا إلى بيوتهم في وقت مناسب، لا يبقى إلا أنا ودسوقي الذي يسرع إلى إغلاق كل الأبواب، يقول لي إنه سيجلس على الدرج خارج الباب، مرة أخرى سأقضي ليلتي وحيدا، أصعد إلى مسكني، كان نظيفا مرتبا، خاليا من أي روائح كريهة، المذهل أن الثلاجة كانت تطنّ، فيها طماطم وجبن وخيار، وفي وسط أرففها علبة من «البولوبيف»، أحسّ فجأة أنني قادر على مواصلة الحياة.

أسمع دقًا على الباب، أفتحه فأجد دسوقي يقول في لهفة: هناك مريض بالأسفل.

أقول بلامبالاة: العيادة انتهت، كان عليه أن يحضر مبكرا.

يقول إنه مريض خصوصي، كل الذين يأتون بعد الميعاد هم خصوصيون، سترى كم أن نقودهم جميلة.

لا تقنعني كلماته، ولكن من المفزع أن أجلس كل هذه الساعات وحيدا دون حركة، أهبط للرجل الذي كان واقفا في انتظاري؛ شيخ كبير وليس فلاحا عاديًا، يمسك بيده فتاة صغيرة وفي اليد الأخرى «برطمانا» صغيرا من الزجاج، أتطلع إليه باندهاش، من الواضح أنه أحد أعيان القرية، يهتف مرحِّبا: أنا الريس أيوب، الأرض التي نقف عليها الآن هي أرضي، تبرعت بها من أجل بناء هذه الوحدة، طلبت منهم أن يطلقوا عليها اسمي ولكنهم لم يفعلوا، على الأقل الثواب عند الله.

أتمتم ببعض كلمات الترحيب، أنظر إلى الطفلة التي كانت تحاول أن تداري نفسها في جلبابه، يمدّ يده بالبرطمان: هذا العسل قطفة أولى، من منحلي الذي لا يوجد مثيل له في أي مكان.

أحاول أن أشكره ولكنه لا يرضى بردّ الهدية؛ فالنبي شخصيًا قد قبلها، يستدير ويرفع الفتاة الصغيرة ويضعها على منضدة الكشف، يقول: هذه حفيدتي، مريضة منذ يومين ولا تكف عن السعال، افحصها بنفسك.

بالفعل كانت مريضة، أقيس حرارتها، كانت مرتفعة وصدرها محتقنا، ليس هناك وقت، لا أدري كيف استطاعت أن تقف على قدميْها وهي على وشك الهذيان من الحمى، أسرع لغرفة الأدوية، من حسن الحظ وجدت «أمبولة» مخفِّضة للحرارة أحقنها في فخذها النحيفة، لا تعترض ولا ترفع صوتها متألمة، أطلب من

دسوقي أن يواصل وضع كمادات الماء على جبهتها، لم يكن في مقدور الثلاجة في مسكني أن تكوّن ثلجا، ولكن على الأقل وجدت فيها زجاجة مياه باردة، أضع بعضا منها على رأس الفتاة، وأرطب الكمادات بالجزء الباقي، يقف الجدّ لا يدري ماذا يدور حوله، ولا سبب هذا الفزع الذي أشعر به، يرفض أن يجلس على أي مقعد ولكن يجلس على الأرض بالقرب من قدميْها، تغمض الطفلة عينيْها، تستسلم في صمت للحرارة التي تأكل جسمها، أظلّ بجانبها أغيِّر الضمادات، وأضع الترمومتر تحت إبْطها كل فترة.

ينخفض مؤشر الزئبق، وتهدأ درجة الحرارة أخيرا، بعد فترة تفتح عينيْها الصغيرتيْن وتطلب ماء، أكثر مما كنت أتمنى، يوشك الشيخ أن يقبل يدي، وكان لابدَّ أن أكتب له عدة أدوية يحضرها من المدينة المجاورة، يحتضن حفيدته وهو يبكي، أشعر بأنني اجتزت اختباري الأول، حافظت على روح الصغيرة من موت مبكر، كنت سعيدا بما فعلت، أظلّ جالسا في غرفة الكشف، يعود دسوقي ويضع أمامي عدة أوراق مالية، عملات صغيرة، قديمة ولكنها مفرودة جيدا، أقول له مندهشا: ما هذا؟

يقول: كما ترى، أجر الكشف الخصوصي.

أقول مندهشا: ماذا؟ هل أخذت منه نقودا؟ إنه صاحب الأرض التي أقيمت عليها الوحدة، وأحضر لنا هذا السطل من العسل.

يقول في برود: هذه كانت مجرد هدية، الشغل شغل، ما دام قد جاء بعد موعد العيادة، لابدَّ أن يدفع.

أخذ نصيبه وترك باقي الورقات مفرودة على سطح المكتب،

سأجمع الكثير من هذه الأوراق فيما بعد، لا توجد في هذه القرى النائية عملات مالية كبيرة، كلها قديمة ولكنها مفرودة ومعتنى بها، هي كل ما يتمّ تداوله، الأوراق المالية الكبيرة نادرة، أو ربما يتمّ الاحتفاظ بها بعيدا عن الإنفاق، جمعت الأوراق في تكاسل، ولكني حملت سطل العسل في اعتزاز، طعام الآلهة كما كان المصريون القدماء يطلقون عليه، اليوم سأشارك إله القرى الغامض في الطعام نفسه.

يفتح باب الوحدة من جديد ويأتي زائر آخر؛ رجل ضخم، ليس طويلا ولكنه ضخم، جسده مدكوك وشاربه كثّ، أبحث بعينيًّ عن دسوقي فأجده قد اختفى، لا يخبرني بشيء، ولا يبالي الرجل بتقديم نفسه، يقترب من حافة المكتب ويقول: أريد دواء.

اقتحم غرفتي واقتحم هدوئي، أقول: أي دواء؟

يقول: دواء يعدل رأسي، الليل طويل ولابدَّ من دواء.

يتحدث في ثقة كأنه يمتلك المكان، أقول له: لا يوجد عندي دواء إلا للمرضى، وأنتِ لا تبدو كذلك.

يقول: المشكلة في رأسي، أما بقية جسدي فبيد الله. لا أطلب الكثير، أريد فقط أن أعدل رأسي.

هل يطلب مخدِّرا؟ أقف أمامه محتارا وعاجزا عن التصرُّف، أشعر بأنه يحاصرني في مساحة ضيقة في هذه الغرفة، أصيح مناديا دسوقي، لكنه لا يظهر، أقول: لا يوجد مثل هذا الدواء عندي.

يقول وهو يلوِّح بيده: لديك غرفة مليئة بكل أنواع الأدوية، وتعجز عن تدبير دواء وحيد لي.

ترتعد يده التي يلوِّح بها، واضح أنه يتحكم في نفسه كثيرا، لا يريد أن يصبَّ جامَ غضبه عليَّ، تبدو إشارات جسده مهددة وواضحة، ولكني لم أشأ أن أستسلم له، ليس في يومي الأول، أقول حتى أتخلص منه: ربما في الصباح، تعالَ في النهار ربما أجد لك شيئا.

يظلّ واقفا يتأملني ويفهم نيتي، يدرك أنني لن أعطيه شيئا، ولم يكن راضيا، أبدأ في الشعور بالخوف، يتأهب جسدي ليأخذ وضعية الدفاع عن النفس، لكنه يستدير فجأة، ويخطو خارجا، أظلّ أسمع صوت خطواته حتى تتلاشى من المكان، أزفر أنفاسي في راحة، لست واثقا من أنني تصرفت بشكل جيد، ولكني أتناول سطل العسل وأستعدّ أخيرا للصعود، يفاجئني دسوقي بالظهور، أصيح فيه منفعلا: أين كنت؟

يقول إنه الصقر، رأيته داخلا من باب الوحدة، لا أحبّ أن أقابله، ولا أحد غيري، إنه واحد من أبناء الليل في البلدة.

أصيح فيه حانقا لأنه تركني وحيدا معه؛ ولأنه لم ينبهني، أقول: لم أفهم ماذا يريد، ولا عن أي دواء يسأل.

يقول بلامبالاة إنه يريد أي شيء يجعل جسده يتعرق، أي شيء يستطيع بلعه مع كوب الشاي الثقيل.

أسبّه دون صوت وأنا أستعدّ لصعود السلم، أغلق الباب خلفي وأنا أدعو بألَّا أضطرَّ للنزول مرة أخرى. يخطر ببالي أن أصنع كوبا من الشاي وأحليه بهذا العسل؛ ربما يهدئني وأستطيع النوم بلا كوابيس، أحمل الكوب إلى الشرفة، أجلس فيها لحظات قليلة

قبل أن يهبط الليل وتهاجمني جيوش البعوض، يبدو النخيل من بعيد تطوف حوله أسراب من حمام أبيض، مكوِّنة دوائر آخذة في الاتساع، تبدأ الأدخنة تتصاعد من بعض البيوت، الهدوء صافٍ والجو رائق بشكل غير اعتيادي، والعالم الآخر يبدو بعيدا بكل مشاكله وصراعاته وذكرياته أيضا، يعيدني طعم العسل إلى طعم الأرض؛ طعم عالمي المفقود، أحسّ بانتعاش مفاجئ، أراقب السحب وهي تمضي في الأعلى بيضاء وفيها لمحة من بقايا وهج ذهبي، كأنه قد تمَّ غمسها في العسل.

ألمح واحـدا قادما في اتجاه الوحدة، لا أريد المزيد من المرضى، يواصل الاقتراب، أستطيع أن أتبينه بوضوح، كان الرجل الذي واجهني منذ قليل، الصقر بجسده المدكوك وشاربه الضخم، يقبل نحوي حاملا تحت إبْطه شيئا ما، أشعر بالتوتر لا أدري إن كان دسوقي قد أغلق باب الوحدة جيدا أم لا، يتوقف تحت نظري تماما، يتظاهر بأنه لا يراني، ولكني أعرف أنه يراني ويدرك أنني أراقبه، يخرج من تحت إبْطه قطعة من الكليم المطوية ويفردها على الأرض، ويجلس فوقها متقرفصا، يفرد بقية أشيائه، كان هناك شيء أشبه بسلاح ناري بدائي؛ ماسورة طويلة بعض الشيء ملتصقة بها قطع من حديد. تراجعت للوراء، ولكنه وضعه على الكليم، وأخرج شيئا آخر، أشبه بالبندقية، يضعها ببطء بجوار المسدس، كان هناك أيضا سكين طويل بعض الشيء، وأمام ذلك كله يضع صفًا من الطلقات النحاسية، أرتجف ولا أدري ماذا أفعل، أستعدّ للعدْو إلى الداخل عندما يتأهب للإمساك بإحداها، ولكنه يأخذ في تكيكها، يفكك المسدس إلى ثلاثة أجزاء، ويأخذ في تنظيفه بقطعة

من القماش، يفعل ذلك بعناية فائقة، يفكك البندقيه أيضا ويأخذ في تنظيفها أيضا بنفس العناية، يرفع الماسورة الطويلة وينظر فيها ليتأكد من نظافتها، يوجهها نحوي في كل مرة، يجمع الأشياء ويعيد تركيبها من جديد، أتراجع بسرعة، أهبط السلم عَدْوا، أهتف في دسوقي: اذهبْ إليه، دعه يأتِ إلى هنا لمقابلتي.

يقول مندهشا: مَنْ؟

أقول: مَنْ غيره؟ الصقر.

أفتح غرفة الأدوية بيد مرتجفة، أختار بعض الأدوية المخفّضة للحرارة، وثانية باعثة على النشاط وثالثة بطريقة عشوائية، أخرج من الغرفة فأجده واقفا في انتظاري، يتأملني بعينيْن خاليتيْن من الدهشة أو الشماتة، أعطيه أكياس الأدوية وأنا أقول: خذ هذه حتى تتناولها مع الشاي.

قبل أن يقول كلمة واحدة كنت أستدير وأبدأ في الصعود، غاضبا من نفسي، خجلا من لحظة ضعفي، ابن الليل هذا قد نجح في ترويعي. أغلق الباب في صوت مسموع، أجد كوب الشاي مازال في انتظاري، كان باردا وطعم العسل مُرّا.

٢

الوحدة مغلقة لهذا اليوم، أقف في انتظار الطلعة الأولى ا «أحلاهم»، أنفاس الصياح مازالت تغطي الزرع، دسوقي يقف حانبي، وصفّ من الرجال يجلسون مستندين إلى الحائط، هل ااموا هنا طوال الليل؟ نخوض في زحام الركاب لنجد لأنفسنا ..معدين، يجب أن نلحق بمديرية الصحة في وقت مبكر، قبل أن هرب الموظفون أو ينفذ الدواء. لحسن الحظ نجد مقعديْن، احلس بجوار النافذة، أشعر بالملل لأن الأتوبيس مازال ساكنا، لا شبع من استقبال المزيد من الناس والحيوانات، ولكن ما إن يبدأ في التحرك حتى رأيتها؛ زيها الأبيض، شعرها المعقود خلف أذنها، ، امها الرهيف، مشيتها المعتادة وهي تسير باتجاه الوحدة. لم أكن ا، هم إذن، لم تكن شبحا ولا طيفا ولا خيالا، لست مريضا ولست أسيرا للذكريات، تتعلق عيني بها والأتوبيس يمضي بي مبتعدا، النفت فأجد دسوقي يحدق في وجهي، يقول لي فجأة إنها فرح، الم ترها في الوحدة؟

أومئ برأسي، كان كعادته قد قرأ أفكاري، يواصل القول إنها الموظفة الوحيدة من داخل البلدة؛ لذلك تأتي مبكرا وتنصرف ..كرا، عطيات وعلية تأتيان من المدينة.

أغمض عينيَّ ولا أرد عليه، لا داعيَ لأن أكشف نفسي أمامه، هل سأراها عندما أعود؟ أفتح عينيَّ مرة أخرى عندما نصبح خارج البلدة، وسط الحقول الممتدّة، على حافة الترعة العكرة، تتواصل الرحلة بين التوقف والمسير، نعبر قرى منسية وبيوتا واطئة وفلاحين لا يكفون عن العمل من سنين سحيقة، ومع ذلك لا يستطيعون إبعاد الجوع عن بيوتهم. نخرج على الطريق السريع، نسير بمحاذاة ترعة الإبراهيمية، ثم تبدو بيوت المدينة المتفرِّقة، مدينة متواضعة، نصف شوارعها غير مرصوفة، ولكن على الأقل هناك كهرباء وليل غير موحش. نسير إلى مخزن الأدوية للمديرية، بالطبع لا يأبهون بكشف الأدوية الذي أقدمه لهم، أنواع كثيرة غير موجودة، وأصناف أخرى لا أحتاجها ولكن لابدَّ أن آخذها. يهمس لي دسوقي ألا أستسلم لما يحاولون فرضه عليَّ، إنهم موظفون تقليديون لا يستسلمون إلا لمن يهددهم، أقول له: لا أملك قوة أهددهم بها، يقول: تظاهر بذلك إذن.

أعود إليهم مستنفرا وغاضبا، أصيح فيهم أن الوحدة قد تمَّ إغلاقها لشهور طويلة وكل ما فيها من أدوية قد فسدت تماما، تحوَّلت إلى سموم، وأني سأذهب لمدير الإدارة شخصيّا، وأنني قادر على الذهاب للمحافظ، وسأبلغ النقابة، كل مشاكلي هم السبب فيها، وكل تأخير سيضاعف هذه المشاكل. يشير دسوقي برأسه مشجعا، ومن الغريب أن الموظفين قد تخلوا عن عنجهيتهم ورفضهم، عرضوا عليَّ المزيد من الأصناف، وزادوا منها، تحوَّل صندوق الأدوية إلى ثلاثة صناديق، حصلت على محاقن ولفائف القطن والشاش وأمصال للدغات العقارب والثعابين، كنت أوقع

ا. ، اق الاستلام وأنا مندهش، أصبح الكشف الواحد ثلاثة كشوف،
، ،انوا يسألونني إن كنت راضيا أم لا. تركني دسوقي أسرع ليستأجر
،. بة كارو يجرّها حصان هزيل، وضعنا عليها صناديق الأدوية،
، ، ضع هو نفسه عليها، ستقودهم جميعا للوحدة، لا أستطيع أن
، ذب معه بطبيعة الحال، سأقضي اليوم أتسكع في المدينة، وأذهب
في آخر اليوم مع «أحلاهم». أردت أن أتسكع في شوارع المدينة،
أشترى راديو صغيرا من أحد المتاجر وأتناول الحمام المشوي في
أحد المطاعم وأواصل السير حتى أصل لحافة النيل حيث يرقد
الجبل الغربي على الضفة الأخرى وأظلّ جالسا أمام المياه العكرة
ا ـاعات طويلة. الفيضان في أول أيامه وكل غبار البراكين مايزال
،القا بأمواجه، أقرأ الصحف التي اشتريتها، أكتشف أنها جرائد
الأمس، ولكن الأخبار لم تكن تختلف إلا قليلا. الخبر الذي استأثر
،اهتمامي هو تحويل أحد السجون إلى متحف مفتوح. خبر غريب
في بلد أدمن فتح السجون من قرون سحيقة وأخذ يحشوها بكل
أنواع البشر. أخذت أبحث عن تفاصيله في بقية الجرائد، ولكنه كان
مكتوبا بالصيغة الرسمية نفسها. أشعر بالملل ولكن لم أكن أريد
النهوض، أراقب صيادا وحيدا يُلقي الشِّباك مرة بعد أخرى دون أن
يظفر بشيء، أفكر في كل تفاصيل حياتي، كنت هذا الصياد الوحيد
الخاوي الشِّباك، هذا العمل هو فرصتي الأخيرة حتى لا أتجوَّل في
الشوارع متعطلا.

أسير لموقف الحافلات وأنحشر بين الركاب، يتركونني أمرّ
بسهولة وأجد مقعدا بجوار النافذة، أغرق مرة أخرى في خضرة
الحقول الممتدَّة، أظلّ متطلّعا لحافة الأفق حتى تظهر قمم النخيل،

تصعد «أحلاهم» وتهبط، وكالعادة تقف وقفات خطرة على حافة الترع، تجتاز الجسور نصف المهدَّمة حتى يبدو النخيل والبلدة الهاجعة تحته. كان المساء قد اقترب، والطيور لم تختتم دورانها، أجد دسوقي في انتظاري، جالسا في الظلام، لا يشعل «الكلوب» إلا بعد أن يتأكد من دخولي للوحدة. أتسلم صناديق الأدوية وأضعها في الغرفة الخاصة بها، لم أفرزها، ربما غدا أو بعد غد أقوم بذلك. أصعد مباشرة إلى السكن، المهم أن أخلع حذائي وأجلس على فراشي وأستمع للموسيقى القادمة من الراديو الصغير، كان لها فعل السحر، تصنع نوعا من الألفة مع المكان. أشعر بحاجتي لصوت فيروز، أدير المؤشر بحثا عنها، ولكن ضجة هائلة ترتفع من الأسفل، تبتعد كل الطيور التي كانت تحوم حول الوحدة، ويبدأ دسوقي في الدقّ فوق الباب بقوة، لابدَّ أن هناك كارثة ما، أرى وجهه ممتقعا، يهتف: هناك شخص لدغه عقرب، القرية كلها هنا.

يغوص قلبي ولكن من حسن الحظّ أنني أحضرت اليوم بعض أمصال الأمراض الاستوائية، لم أسرع بوضعها في الثلاجة بعد، ربما تنقذ هذه الحياة قبل أن تتلف. أهبط إليهم، أجد الشخص الملدوغ مستلقيا على الأرض؛ شابًا لم يكد يبلغ العشرين من عمره، وجهه شاحب ومغطّى بالعرق، يلتقط أنفاسه بصعوبة. الغرفة ممتلئة عن آخرها، كل أهالي البلد انحشروا فيها، أجد طريقي بينهم بصعوبة، سيصبح الوضع أسوأ عندما ينتشر السُّم في بقية جسده، أصرخ فيهم أن يبتعدوا، أن يتركوا له مساحة للتنفس، لا يتراجع أحد. أحمل الكلوب وأسرع لغرفة الأدوية، أفتش في الصناديق عن المصل المضادّ للعقرب، كنت مضطربا وأصابعي مرتعدة، أسابق

الزمن، ولكني عاجز عن التحكم بنفسي، أرفع الكلوب بيد وأفتش باليد الأخرى، وأخشى أن يقتحموا عليَّ الغرفة في أي وقت، أسمع صيحاتهم وصراخ نسائهم قادما من الخارج وأدرك أن الأمور يمكن أن تنفلت في أي لحظة، أسمع دقًا على الباب فلا أبالي به، ولكنه يتواصل، أتوجه لفتحه والصراخ في وجه هذا الطارق اللحوح، أرفع الكلوب وأفتح الباب فتحة صغيرة، تكفي فقط للصراخ من خلالها، ولكني أرى وجهها، يشع ضوءا وابتسامة خجلى وعينيْن لامعتيْن، لم تكن ترتدي البياض، ولكن تضع على رأسها شالا من القطيفة الحمراء، تحدق فيَّ تتساءل: هل أنت في حاجة للمساعدة؟

أبتلع ريقي الجافّ، أمدّ يدي وأجذبها إلى الداخل بسرعة وأغلق الباب، نصبح وحدنا فجأة في ذلك الحيِّز الضيِّق، قريبا منها أكثر مما كنت آمل، قبل أن تبدي اعتراضا أو تذمرا أعطيتها الكلوب وأقول بسرعة: ارفعيه عاليا حتى أجد الدواء.

تحمله وتقترب مني بحيث أشعر بكتفها وهو يلتصق بكتفي، لمسة هيِّنة تخفِّف من روعي، أنحني على الصندوق وأبدأ في استخراج محتوياته وسرعان ما أجد علبة الأمصال، أهتف في فرح: ها هو المصل، لم تبقَ إلا حقن الإفدرين.

تعطيني ابتسامة مشجعة، وتنتقل معي للصندوق الثاني، تسلّط الضوء حتى أجد الحقن بسهولة، نصيح معا في ارتياح، أهتف بها: هيَّا بنا قبل أن ينتشر السُّم في باقي جسده.

تحمل الضوء وتسير أمامي، يخيِّم الصمت على الجميع وينزاح الزحام من أمامي، الشابّ مازال حيّا رغم أن الموت قد اقترب منه

كثيرا، قلبه مازال ينبض ولكن بضعف، أضع غطاء على جسده وأقرّب المصباح من وجهه، أقول لها: أخرجيهم جميعا.

أبدأ في إعطائه المصل ببطء، أسمع صوتها وهي تتحدث إليهم في صوت خافت ولكن في إصرار، تدفعهم خارجا دون أن تغضب أحدا، حتى الأم الملتاعة والأب المصدوم يخرجان، تتمكن من إغلاق باب غرفة الكشف أخيرا، تقترب منى وتقف بجانبي، أفحص عينيْه لأرى مدى اتساع الحدقتيْن، كانتا ضيّقتيْن كأنهما على وشك الانطفاء، يجب أن أعطيه المزيد من «الإفدرين» حتى يزداد نشاط عضلة القلب ويدفع حركة الدم خلال الجسد المنهك، أريد أن يصبح قادرا على مقاومة الخدر الذي يحدثه السُّم، بعد الحقن تزداد نبضات قلبه قليلا وتبقى حدقتا العينيْن ثابتتيْن دون أن تضيق، يبتعد ظلّ الموت قليلا، أحسّ بأنفاسها تهبّ على عنقي من الخلف، أسمع صوتها تقول في توجس: هل سينجو؟

ألتفت نحوها، قريبة مني لدرجة من الصعب احتمالها، وجهها شاحب وعيناها واسعتان، أخفض بصري حتى أقاوم محاولة لمسها، أقول: من المبكر قول ذلك، علينا متابعة حدقتي العينيْن وقياس النبض، وسوف أعطيه المزيد من الإفدرين.

تشيح بوجهها وتبتعد عني قليلا، تقول في خوف: لا أحد ينجو من مثل هذه اللدغة، عشرات الأطفال يموتون بسببها كل عام.

تلفّ قطعة من الشاش وتمسح بها العرق المتجمّع على جبهته، أسألها: من هو؟ ولماذا جاءت البلدة كلها خلفه؟

تقول: اسمه بركات، وهو بركة بالفعل، شابّ طيب من الحرام أن يأخذه الموت بغتة هكذا، مازال يستكمل تعليمه في المعهد

الأزهري وهو الذي يخطب في كل صلاة جمعة، وحديثه يجذب كل نساء القرية قبل الرجال.

أسألها في تشكك: هل هو قريبك؟

تقول ببساطة: في هذه البلدة.. كلنا أقرباء، حتى الأقباط.. أقرباء لنا بدرجة أو بأخرى.

تبتسم وتزيح خصلة شعر من فوق جبينها، تقول: لابدَّ أن أخرج إليهم، لن ينصرفوا إلا بعد أن يطمئنوا أنه مازال حيًّا.

كنا في البداية لم يبتعد عنه الموت إلا قليلا، أنفاسه ثقيلة ونبضه متسارع، تخرج إليهم، أخلع ساعتي وأضعها أمامي على المكتب، لابدَّ من مراقبة الوقت بدقة حتى أعاود حقنه من جديد، أسمع همهمات في الخارج لا أعرف إن كانت قد نجحت في صرفهم أم لا، يظلّ المريض مغمض العينيْن، ولكن العرق الموجود على جبهته قد جفّ، أقيس سرعة نبضه وأعاود الجلوس منتظرا، يومي كان طويلا، ولكن لم أكن أشعر بالتعب، أمامي ترقد روح معلق بخيط دقيق يوشك على الانقطاع، تعود فرح وأنا أعطيه الحقنة الثانية، متوترة ولكنها تغلق الباب خلفها، تقترب وتتأمله قليلا ثم تنظر نحوي متسائلة، أقول: كما ترين جفّ عرقه الغزير، واختفى تورم لسانه، الآن يستطيع أن يتنفس بسهولة.

يشرق وجهها: لم أكن أظنّ أنه سينجو، لدغة العقرب الأصفر تؤدي دائما إلى القبر، ولكنك أنقذته، هذا أشبه بالمعجزة.

تجلس في مواجهتي، أقول: ليس في الأمر أي معجزة، لقد أصابه داء وتصادف أننا كنا نملك الدواء.

تقول: الموت في بلدتنا سهل، نحن نموت لأسباب تافهة.. لذا فإنقاذ روج من الموت عندنا هو فعلا معجزة حقيقية.

يتناهى إلينا صوت الشابّ وهو يتنفس في هدوء دون حشرجات، أقول: ماذا تعملين في الوحدة؟

تقول: لابدَّ أنك تعرف، أنا في رعاية الأسرة.

أقول: لماذا لا تعملين معي في غرفة الكشف؟

تحملق فيَّ بعينيْن واسعتيْن من الدهشة، تشعان نوعا من رغبة ملتبسة، غاية في البراءة لكنهما تخفيان أسرارهما، ربما لم تكن فتاة قروية عادية، كان تملك سحر الأنثى وغواياتها، حتى ولو تتعمد ذلك، لكني أتقدَّم بخطوة واسعة في اتجاهها، ولم أكن أنوي التراجع، أقول: لقد أثبتِ الليلة أنك جيدة في مواجهة الحالات الطارئة.

تنكِّس رأسها وهي تقول: كما تريد.

ربما كانت تفكر فيما ستكون ردة فعل الممرضتيْن الأخريْن الأكبر سنًّا والأقدم، لا أريدها أن تخوض هذه المعركة وعليَّ أن أعطي دسوقي تعليمات واضحة بذلك، أنظر إلى الشاب المسجَّى، كان مفتوح الجفنيْن يتطلع نحوي بعينيْن زجاجيتيْن جامدتيْن، يتنفس بهدوء وانتظام، أشعر بها مرة أخرى بجانبي، تهمس لي: هل سيحقنه مرة أخرى؟

أقول: لا لزوم لذلك، أعتقد أن الخطر قد ابتعد عنه، اذهبي، أخبريهم أن يحضروا حمارا ليحمله إلى المنزل.

أحسست بيدها تمسك يدي وتضغط عليها، صغيرة ودافئة وتقول: ربنا يحفظك، أنت فعلا جيد.

تقولها في ممس حارّ، وتظلّ أصابعها الرفيعة تضغط على يدي، تفلت خصلة من شعرها من تحت شال القطيفة، تنسدل على وجهها، تنزع أصابعها من أصابعي بسرعة، وتعدل من الشال القطيفة على رأسها. أحدق فيها مبهورا، هذا كثير، كل هذا القدر من الجمال والوداعة، وكيف قدّر لي هذه الدرجة من القرب والملامسة؟ لابدَّ أنها شعرت بذلك أيضا، من يصدق أن هذا هو فقط اللقاء الأول؟ أتركها تخرج من الغرفة بسرعة، ومن الخارج تتعالى التكبيرات من الرجال والزغاريد من النساء، يندفعون مرة أخرى إلى داخل الغرفة، يصيح فيهم دسوقي غاضبا، وتشدّ الأم يدي تحاول تقبيلها، أسحبها منها بصعوبة، ويتقدَّم أكثر من رجل محاولين حمله، أنبِّه عليهم أن يفعلوا ذلك برفق، يرفعه واحد منهم، كان جسده الرخو فوق كتفه، يحدق في الجميع بعينيْن زجاجيتيْن دون إحساس حقيقي بوجودهم، سينام ويستيقظ صحيحا معافى، أعاود رؤية ثرح وهي تقف أمامي، تضم شال القطيفة حول وجهها، خداها متوردان، كأن جزءا من حمرة الشال قد انتقلت لوجهها، تقول: لقد فعلت بنا شيئا جميلا، ربنا يكرمك.

وقبل أن أقول لها شيئا تستدير وتسير مع الجميع، أتابعها حتى تلتحق بهم، يتوقف دسوقي بجانبي يراقبهم وهو يتمتم من بين أسنانه: ناس زبالة، لم آخذ منهم قرشا واحدا.

في هذه اللحظة لم تكن النقود تعنيني في كثير ولا قليل، يتقدم واحد منهم، مختلف في الشكل عنهم ولكنه منهم، يرتدي جلبابا

فاتح اللون، وفوقه معطف خفيف، لا أرى الألوان بوضوح، ودسوقي ينفخ في غيظ، يمدّ الرجل يده معرِّفا نفسه: أنا الأسطى أبانوب تزري البلدة.

أصافحه، يده مختلفة ناعمة بعض الشيء، وبشرته فاتحة لم تدبغها الشمس، يقترب مني أكثر ويواصل الكلام: أعرف أنهم لم يدفعوا شيئا رغم أنهم أبقوك ساهرا حتى منتصف الليل.

أهزّ كتفي غير مبالٍ، ولكنه لا يريد أن يصمت ولا ينصرف، يقول إنهم فقراء، وأنت لا تطلب منهم تعويضا، اسمح لي أن أعوضك.

أقول مندهشا: ومن قال إنني أقبل عوضا؟

يقول ضاحكا: لا أتحدث عن النقود، أتحدث عن الشيء الذي أجيده، سأصنع لك بالطو أبيض، وسأطرز عليه اسمك بخيوط زرقاء.. هدية مني.

أقول: لا حاجة لي لبالطو. عندي ما يكفيني.

يقول: أرجو ألا تكسفني، انتظر حتى ترى البالطو واحكم بنفسك، ليلتك سعيدة.

أراقبه وهو ينصرف مبتعدا، بعد ليلة غريبة أصعد السلم وحيدا، وأستلقي على الفراش وأغرق في ظلمة النوم.

أستيقظ متأخرا، وأهبط الدرج في تكاسل، العيادة مزدحمة، يجلس المرضى في كل مكان، بعضهم نائم على الأرض، أحسّ بالذنب وأتوجه منخفض الرأس لغرفة الكشف، يجب أن أبدأ سريعا، تقف فرح في انتظاري، بدون الشال الأحمر بطبيعة الحال،

ولكن بغطاء رأس أبيض وابتسامة وديعة، وبوردة حمراء جورية فوق مكتبي، لا حاجة لنتبادل تحية الصباح، أحسّ أننا معا منذ الأمس، يبدأ دخول المرضى على الفور، يجعلني وجودها أكثر ثقة في مواجهتهم، تتوافد الوجوه المتعبة والأجساد الضامرة والبشرات المنهكة، أمراض قديمة، مزروعة في شقوق هذه الأرض، لا تقدر عليها الأدوية ولا التعاويذ، لا يعرفون بالضبط ممَّ يعانون، إحساسهم فقط أنهم غير جديرين بالحياة، لا يملكون إلا الشكوى إلى حدِّ التوسل، والقبول بأي دواء حتى لو كان عديم الفاعلية، وبين كل هذه الحالات ورغم ضيق الوقت لم أتوقف عن الحديث معها، تسألني بدهشة طفلة: أنت من القاهرة حقًا، هل عشت فيها طوال الوقت؟ إلى أي حدٍّ هي كبيرة؟

أقول إنها مدينة واسعة، مليئة بكل أنواع الأماكن، وكل تواريخ الزمن، لقد عشت فيها كلها، في أسوأ أماكنها وأغرب أزمانها.

لم تفهم كل كلماتي، دون أن أدري أريد إبهارها، لم أحدثها عن سجون القاهرة؛ البقعة السوداء في هذه المدينة، تعاود التساؤل: هل ذهبت للخارج؟ هل طرت في الجو، أو عبرت البحر؟ أقول: ربما مرتيْن أو ثلاثا.

تقول: يا رب كم أحسدك، أنا لم أغادر هذه البلدة أيضا، المسافات هنا قصيرة والمقابر قريبة لابدَّ أن نمرَّ بها في أي مشوار.. هنا ستكون نهايتي ونهاية العالم.

طائر حبيس، لا يوجد هواء كافٍ يساعده على الانطلاق، أقول: ولكنك على الأقل ذهبت لمدرسة التمريض.

تقول: المدرسة في المدينة المجاورة، أذهب وأعود في الحافلة نفسها والميعاد نفسه، لا أعرف شارعا واحدا من هذه المدينة، دائما أعود لهذه البلدة وأعتقد أنني لن أغادرها أبدا.

يخرج مريض ويدخل آخر، ونحن نتكلم، تحبّ أن تتكلم رغم زحام المرضى، ربما تعوض أياما طويلة من الصمت، أو لا يوجد من تتكلم معه، يدخل مريض يعاني من ربو مزمن، وطفل يعاني من الحصبة، وامرأة تعاني من قسوة زوجها، ورجل ضخم يتبول على نفسه، وأكثر من طفل يعاني من سوء التغذية، يوما بعد يوم، وتحت أنظارهم جميعا، نصنع معا عالما جانبيًا، دون أحاسيس جنسية. في البداية بالطبع، خلال ساعات الصباح القليلة، وسط عشرات من وجوه المرضى، نتقابل ونتحدث ونتلامس بعفوية، ونَصِف الأدوية ونُشيع في الوحدة القديمة دفقة من طاقة إيجابية جديدة، فتاة سهلة الطباع، لم تغادر هذه البقعة الضيقة من الأرض ولكنها تعشق براح العالم، تريده في راحتيْها، في كل صباح ألتقي بعينيْها المضيئتيْن، وابتسامتها العذبة الخجولة، تقف بجانبي ولا تغادرني إلا في نهاية العيادة، تجيد حقن المرضى وتعثر على الشرايين المخفية بسهولة، وتطمئنهم بكلمات بسيطة.عندما أصعد وحدي للسكن كنت أتخيلها بجانبي نواصل حديثنا الصباحي، هل يمكن أن تترك الوحدة وما فيها وتصعد إلى سكني ذات لحظة؟ وجودها بجانبي جعلني أشعر بجوع للرفقة، وبدلا من أن تهبني بعضا من المؤانسة، تدفع في داخلي توقا لملامسة الأنثى. رغم هذه المشاعر المتضاربة، أظلّ محافظا على المسافة الرسمية بيننا؛ المساحة الجسدية على الأقل، أدرك أن هناك عيونا مسلطة علينا في انتظار

غلطة أو هفوة، وخلف ذلك كانت هناك طاقة من الغضب لم أرها في لحظتها؛ نار تضطرم في داخل الممرضتيْن الصامتتيْن، وربما داخل دسوقي أيضا.

أسمع صوت قبضته وهي تدقّ الباب، وصوته الأجش: مريضة تنتظر في الأسفل يا دكتور.

مرضى بعد الظهر هم مصدر سعادته الحقيقية، يدفعون ما يطلب منهم، ويفضلون شراء أدويتهم من الخارج، ويريدون قدرا من السرية. أهبط إلى فناء الوحدة الخالية، دسوقي يقف بالقرب من الباب، وفي الركن تجلس سيدة ملتفة بالسواد، لايظهر منها شيء حتى وجهها، أشير لها إلى غرفة الكشف، تنظر في قلق نحو دسوقي وتطلب مني أن أغلق الباب، تمدّ يدها وترفع الشال الذي يخفي وجهها؛ امرأة متوسطة العمر، ما تزال فتيَّة لا يخلو وجهها من جمال، إضافة إلى بعض لمسات التجميل، أمر غير مألوف، ولكن يبدو أنها كانت تملك قدرا كبيرا من حسن الوجه، ذهبت السنون بجزء منه ومازال الباقي ملحوظا، لا تنهض ولا تجلس على منضدة الكشف، تريد أن تتكلم أولا، لا تريد أن تخبرني باسمها، وتتردد قليلا قبل أن تحدثني بأنها تشعر بغثيان شديد في كل صباح ولم تعد تطيق العديد من الأطعمة، كما أنها تشعر بثقل في صدرها، أعراض عادية لولا هذا القدر من الارتباك والخوف اللذيْن يبدوان عليها، أقول لها: أنت متزوجة بالطبع.

تهزّ رأسها بالنفي، وتقول: مات زوجي قبل عاميْن.

أسير في سياق الأسئلة الطبيعية، ولكم لم يكن هناك مجال للتوقف: ماذا عن العادة الشهرية؟ هل هي منتظمة؟

تتوقف قليلا مترددة في الإجابة، ترمقني ربما لتعرف هل أنا أهل للثقة أم لا، تقول بتردد: كانت منتظمة، لكنها توقفت منذ شهريْن.

هذه هي المشكلة التي دفعتها للمجيء إذن، أحدق فيها فتنظر إليّ بعينيْن مستطلعتيْن قليلا ثم سرعان ماتخفضهما، أقول: أعتقد أنه لا حاجة لك للصعود إلى منضدة الكشف.

تقول في صوت أقرب للهمس: لا حاجة لذلك، أنا أعرف ماذا بي.

أحاول أن أتكلم أي كلام، أقول: هذا الغثيان الصباحي ووجع الصدر وانقطاع العادة أعراض لا تُخْطأ.

تردد: أعرف.. أعرف..

تتطلع نحوي من جديد، وقد ازدادت أمارات الخوف على وجهها، لا أملك أن أفعل لها شيئا، ولا أعرف ماذا تتوقع مني، نظل صامتيْن لفترة، تقول أخيرا: سوف يكبر بطني، ويراه كل أهل البلد، وتصير فضيحة.

أقول: وماذا عنه؟ لماذا لا يتزوجك، ويصبح كل شيء شرعيًا؟

تضرب بيدها على فخذيْها: لا يستطيع، ولا أنا أستطيع، ولا أحد يريد طفلا، عليك أن تساعدني، أنا مازلت في الأشهر الأولى.

أنظر إليها مستغربا: ماذا تتوقعين مني أن أفعل؟

توشك على البكاء: أريد دواء يساعدني، يجعل دمي المحبوس يسيل.

أقول وقد بدأ صوتي يعلو: لا يوجد عندي مثل هذا الدواء، ما تريدينه خارج تخصصي وإمكاناتي، وفوق ذلك كله هو ضد القانون.

تهتف: اخفض صوتك أرجوك، ربما كانت أذناه على الباب.

أشعر فجأة بالشفقة عليها، أدرك فجأة مدى الورطة التي أوقعت فيها نفسها، لحظة الضعف التي ستدفع ثمنها غاليا، أهمس: ابحثي في القرية، ولكن في سرية، لابدَّ أن هناك امرأة عجوزا يمكن أن تساعدَكِ على تفريغ رحمكِ، مثل هذه المرأة موجودة في كل قرية.

تنهمر دموعها وتقول بيأس: ستفضحني.

أؤكد لها: لن تفعل، مهنتها أن تغطي على الفضائح لا أن تكشفها، ادفعي ما تطلبه منكِ، وسوف تحفظ سرَّكِ.

تنظر نحوي في رجاء: ألا يوجد لديك حلّ آخر؟

أهزّ رأسي بالنفي، أساعدها على النهوض، تغطي رأسها جيدا حتى لا يظهر وجهها، يتأملها دسوقي بفضول وهي تعبر صالة الوحدة وتهبط الدرج المؤدي إلى الفناء، أقف عند الباب أراقبها وهي تسير. على الطرف النائي من الفناء ألمح شخصا يراقب باب الوحدة، أتعرف عليه من ثيابه ومعطفه المائل للصفرة؛ الأسطى أبانوب شخصيّا، لا يحمل المعطف الذي وعدني به، ولكنه يراقب السيدة وهي تعبر الساحة في اتجاه القرية، يتلفت حوله في حذر ثم يتبعها من بعيد، لا يلقي بالا لي، أسمع دسوقي وهو يهتف في أذني: من هذه المرأة؟

أقول له في حدَّة: وإنت مالك.

في اليوم التالي وفي منتصف العيادة تقريبا تأتي ركوبة العمدة، انتهينا من معظم المرضى ولكن لم يتسلم أحد أدويته، يدخل دسوقي ليعلن أن ركوبة العمدة قد وصلت حتى تنقلني لمنزله، لم أعرف العمدة ولم أقابله، أعرف فقط أنه الوحيد في البلدة الذي يمتلك سيارة مرسيدس رغم أنها من طراز قديم، أراها أحيانا وهي تمرق أمام الوحدة مثيرة للأتربة، ويجري خلفها بعض الأطفال الحفاة، أقول بلا اهتمام: هل هو مريض؟ إنه يملك سيارة، لماذا لم يأتِ إذن؟

أكتشف أنني مغتاظ؛ ربما لأنه الوحيد الذي يملك سيارة في هذه البلدة النائية؛ وربما لأنه يعتبرني واحدا من رعاياه. لذا اكتفى بإرسال هذا الحمار الحصاوي، يقول دسوقي في رهبة؛: إنه العمدة.

لهجته تعلن أنه الحاكم المطلق للقرية، لا أحد يجرؤ على مخالفته، أقول: فلينتظرْ حتى أصرف الدواء للمرضى.

عاد يهتف وقد ازدادت رهبته: إنه العمدة.

لا أردّ عليه، أدخل غرفة الأدوية وأغلق الباب خلفي وأفتح النافذة للجميع. كعادتهم كانوا في انتظاري وقد ازدادوا مرضا وبؤسا، لم أكن متعجلا، ولا شحيحا، وحتى عندما يتقدَّم رجل عجوز يتوكأ على عصاه، لم أره من قبل، يوسِّع له الجميع في احترام، يقول: أعطني شيئا للصداع.

لا يملك تذكرة، ولم أره في غرفة الكشف، يتطوّع أحدهم قائلا إنه الشيخ عبد البر.. بركتنا.

أعطيه ما يطلب، يظلّ يدعو لي بصوته المرتعش، أخيرا أغلق النافذة وأنا راضٍ عن نفسي. عندما أخرج من غرفة الدواء أجد دسوقي يقف متوترا، أحضر للحمار تلّا من البرسيم حتى يبقى هادئا، لم أملك إلا أن أبتسم، أقول لفرح: جهزي صندوق الغيارات، ستذهبين معنا لبيت العمدة.

ألمح نظرات الذهول في عيون الممرضتَيْن، تكتمان غضبهما بصعوبة، حتى فرح تظلّ تحدق فيَّ غير مصدقة، ثم تسرع بملء الصندوق بلفات الشاش وقطع القطن والمحاقن الفارغة، تتجنب الممرضتَيْن المتحفزتَيْن وتسبقني إلى الباب. يحمل دسوقي حقيبتي ويسير خلفي، يتقدَّم مندوب العمدة نحوي وهو يقود الحمار، أهزّ رأسي رافضا، سنذهب إليه على أقدامنا، نخترق شوارع القرية غير السوية، أنا في الوسط، وفرح على يساري والدسوقي في مكان ما. فرح تسير محرجة تنظر للأرض باستمرار، لا تريد أن ترى أحدا رغم أن الجميع يرونْها، يتأملنا الجميع في دهشة، أكثر من واحد يلقي علينا التحية بصوت مسموع، وتبدو بيوت القرية متلاصقة بشدة، الجدران متساندة على بعضها البعض، لو تفرقت لسقطت جميعا، مغطاة بالقشّ، يكفي عود واحد ليشتعل كل شيء.

يُشير دسوقي إلى بيت أبيض مرتفع يطلّ من خلف الأشجار، يبدو على وجه فرح مزيج من الرهبة والفضول، تقول كأنها تهمس لنفسها: لم أدخل هذا المكان، لم أقترب منه قط.

يومئ دسوقي برأسه موافقا، تبدو مساحة محرمة على الجميع، يُحيط بالبيت سور أبيض وبوابة حديدية يصدرعنها صوت مزعج وشجرة توت باسقة أمام الباب، توتها الأسود والأبيض متناثر على

الأرض، نصعد عدة درجات رخامية، يهمس دسوقي وقد تبددت ثقته بنفسه فجأة: تقدَّمْنا أنت يا دكتور، كن أول من يدخل.

لم أفهم سرَّ هذه الرهبة، ولكنها هي العادة؛ تلك الرهبة الطبيعية التي يُحسّ بها المصريون تجاه أي نوع من الحكام؛ نوع من الخنوع يكمن داخل الجينات، «كروموسوم» متوارث من الضروري استئصاله. أطرق الباب بقبضة حديدة معلقة، يفتح الباب على الفور، يبدو العمدة وكأنه كان يقف خلفه، أتعرف عليه رغم أنها المرة الأولى التي أقابله فيها؛ رجل ضخم، شاربه كثّ مفتول الأطراف، عيناه نافذتان، يقول في صوت جهوري: تأخرت علينا يا دكتور.

غمغمت بعدة كلمات عن الزحام والعيادة وكثرة المرضى، يقول: بالطبع هي بلدة مريضة، عذرك أنك جديد، ولكن هنا لا أحد يتأخر عن العمدة.

لهجته باردة، حادة كسكين، يُفسح الطريق لي حتى أدخل، لا يبالي باستقبال الآخرين. نسير إلى ردهة المنزل؛ صالة واسعة مختشدة بأثاث عتيق مكسو بالمخمل، أحمر ومترب، وعلى الحائط صور فوتوغرافية ذات أطر ضخمة يغلب عليها السواد. وجوه قديمة كلها تشبه العمدة؛ الشوارب الكثة والعيون النافذة نفسها، تاريخه العائلي المليء بالرهبة. التفت فوجدت دسوقي وفرح منكمشيْن في ركن من القاعة، بدا أن العمدة لا يراهما على الإطلاق. أقف صامتا، يترك لي الفرصة لأتأمل الصور؛ حتى تتسلل رهبتها إلى نفسي، كيف يمكن لهذا الحاكم الكبير أن يحكم هذه القرية الصغيرة؟ ألتفت فأجده يتأملني، يبدو جسمي ضئيلا في مواجهته، أبلع ريقي وأنا أقول: كما أرى.. أنت لست مريضا.

يقول بصوت أجشّ: بعد الشر عني، أنا معافى كأسد في غابة.

أظلّ أحدق فيه، يقول أخيرا مشيرا للأعلى: إنها «الجماعة»، حالتها ليست جيدة، راقدة في الأعلى، من الأفضل ألّا نضيع الوقت ونصعد إليها.

يلمّ أطراف جلبابه ويسرع بارتقاء الدرج، لابدَّ أن أتبعه سريعا، أشير للدسوقي أن يبقى في مكانه، وأشير لفرح أن تتبعني، لم تكن قد أفاقت من رهبتها بعدُ، تحتضن علبة الغيارات المعدنية وتصعد خلفي في تردد، نسير في ممرّ به كثير من الأبواب المغلقة، يقتحم أحد الأبواب دون أن يطرقه، لا أجرؤ على أن أتبعه، أسمع صوته وهو يقول: جاء الطبيب، يشير لي في صوت غاضب حتى أدخل، غرفة واسعة يتصدرها فراش ضخم وعدد من المرايا المعلقة على الجدران، لا ألحظ بقية أثاث الغرفة، يتعلق بصري بالمرأة الجالسة على الفراش، من النظرة الأولى أدرك أنها لا تصلح زوجة للعمدة، بالكاد يمكن أن تكون ابنته، نظرت إليه لأتأكد من ظنوني، وجهه مقلوب وهو يشاهد الزينة والأحمر الفاقع اللذيْن تضعهما على وجهها، تنظر نحوه بلا اكتراث، تتسع عيناها في غيظ وهي ترى «فرح» تتقدم لتقف في ركن الغرفة، تشير نحوها وهي تقول: من هذه؟

أقول: إنها مساعدتي، تبقى دائما معي حين أكشف على النساء.

أقول ذلك بصوت واضح حتى يسمعه العمدة، تبدو فتاة مشاكسة، مدللة، لا أستطيع أن أعرف ممَّ تعاني وأنا أنظر إليها، تلتفت فجأة نحو زوجها وهي تقول: لقد عمل الدكتور حساب كل شيء، يمكن أن تتركنا الآن.

ينظر إليها متفاجئا، تحدق فيه بثبات، ينظر إليها مغتاظا ويتردد قليلا ثم يغادر الغرفة، لا ينسى أن يغلق الباب من خلفه، تلتفت نحونا وتقول: أنت لن تكشف عليَّ، جسمي كله يؤلمني، ولكن لا أعاني وجعا حقيقيًا، يجب أن تستمع إليَّ.

أقول في تردد: أنا لست طبيبا نفسيًا.

تقول: لا يوجد هنا غيرك؟

تنهض من الفراش وتتوجه نحو فرح التي لاتزال واقفة مرعوبة في ركن الغرفة، تقول لها: ما سأقوله هو كلام خاص جدًا، يجب ألا تكوني هنا.

أقول معترضا: لا يمكنها الخروج، العمدة في الخارج.

تمسك بيد فرح، تجذبها نحوها في حزم: تعاليْ معي.

تتجه بها إلى باب غرفة جانبية لم ألحظها من قبل، تدفعها داخلها وتقول آمرة: ابقي هادئة.

تغلق الباب قبل أن تنطق فرح بكلمة، تدير المفتاح أيضا وتلتفت نحوي، أبدأ في الشعور بالخوف، لا أدري إن كان العمدة يضع أذنه على الباب أم لا، مؤكد هو يفعل شيئا مثل هذا، لكنها تجلس على حافة الفراش وتقول في هدوء: أريد سُمًا؟

لا أريد أن أشهق أو أبدي علامة دهشة، أقول: هل تنوين الانتحار؟

تقول: ربما تكون هذه خطوتي التالية، سأجرِّبه أولا في زوجي العمدة.

تبدو جادَّة بشكل مرعب، أقول: أنا مجرد طبيب صحة، لا توجد عندي إلا أدوية الحرارة أو الإسهال.

تقول: ألا يوجد أحد يستطيع أن ينقذني من هذه الحياة المرعبة؟

أظلّ صامتا، كل ما أريده هو الانصراف، تعاود القول: أنا الذي عملت هذا بنفسي، أنا الزوجة الثالثة كما أظنك تعلم، ولا واحدة منهما خرجت من هنا على قدميْها، تمَّ استهلاكهما جميعا في هذا المكان، وربما على هذا الفراش.

أقول: لا يبدو عليك أنك من أهل القرية؟

تهزّ رأسها نافية: بالطبع لا، جئت من المدينة، كنا سبع بنات أخوات، نسكن في شقة صغيرة، فيها حمَّام واحد، تخيَّل الزحام حوله كل صباح في هذا المكان الضيق، كان كل ما أتمناه أن يكون لي حمَّامي الخاص، لن تتصور أن هذا كان سببا رئيسيًا لزواجي من هذا الرجل.

لا أدري أين يمكن أن يؤدي بنا هذا الحوار، أقول: ما المشكلة؟ بدلا من الحمَّام الصغير أصبح عندكِ بيت بأكمله.

تقول: هذا ليس بيتي ولن يكون، هذا الرجل يمرضني، كل لمسة منه تبعث بالمرض في نفسي، يُصيب جسدي بالتخشُّب.

أقول مترددا: ماذا عن علاقتكما في الفراش؟

تقول: أقسى ممَّا يمكن أن تتصوَّر، حالة مثيرة للفزع في كل مرة يقترب مني.

تمدّ يدها وتبدأ في فكّ أزرار ثوبها بسرعة، يظهر صدرها

ناصعا، مليئا بالبثور والجروح الصغيرة، تقول: هل تريد أن ترى بقية جسدي؟ كله على هذه الصورة، وهذا كل ما أناله منه كل مساء، غير الإحباط والجوع اللذيْن لا ينتهيان، لابدَّ أن تفعل شيئا لي.

أقول: يمكنك أن تطلبي الطلاق.

تقول في تأكيد: لو تجرأت على ذلك فلن أخرج من هنا حيَّة.

أقول: سأصف لك الأدوية التي تخفّف من وجع جسدك وبعض المضادَّات الحيوية.

تقول: فقط.. هذا كل ما تستطيع فعله؟ ألا يهمك هذا الجسد المحروم دوما؟

الآن تتكلم بصراحة، أخلع السمَّاعة من أذني وأتراجع خطوة للخلف، تنظر نحوي وتواصل القول: إنها المرة الأولى التي نلتقي فيها ولكني سمعت عنك من النساء اللاتي يأتين للمنزل، إنهن يتحدثن في همس بكل أنواع النمائم، من خلالهن يمكنك أن تعرف كل ما يدور في عالم القرية السري؛ لذلك أردت أن أراك.

تنهض فجأة وتتشبث بي: افعلْ شيئا لي، أعطني سُمّا أو اجعلني أشعر بأنني حيَّة.

أشعر بجسدها المرتجف وهي تحاول الالتصاق بي، أفلت من يدها أتراجع وأنا أقول: انتهى الكشف.

أسير نحو باب الغرفة المغلقَ، أسمع سبابها الساخط، أدير المفتاح الذي كان موجودا في الباب، أجد «فرح» مباشرة خلفه، أجذبها من يدها دون تمهل، نسير عبر غرفتها دون أن نبالي بسبابها الذي أصبح قذرا، نرى العمدة موجودا عند نهاية الدرج، بعيدا ولكنه

موجود، وربما استمع إلى كل كلمة قيلت في الغرفة، يترقبنا ونحن نهبط الدرج، لا يبدو قلقا بدرجة كبيرة وهو يسألني عن مرضها، أقول: كثير من الإجهاد والتوتر.

يهتف مندهشا: من أين كل هذا؟

أتوقف قليلا وأخرج دفتر الروشتات، أكتب قائمة بالمقويات، أحرص على أن تكون مستوردة وباهظة الثمن، أسرع بالخروج وفرح بجانبي، يتمهل دسوقي خلفنا ليتفاوض مع العمدة، نهبط الدرج ونصبح وحيدين خارج سور البيت، ألتقط أنفاسي أخيرا، أنظر إلى وجه فرح فأجدها شاحبة، أقول لها: إنه «مورستان» وليس بيتا، عمدة مريض بالعنف، وزوجة مريضة بالشبق.

تقول: البلد كله مريض..وكل هؤلاء الناس أموات.

نسير معا في شوارع القرية، تحدق فينا عيونهم، ولكن «فرح» نواصل السير باعتداد، ولكن ما إن نخرج من زحام البيوت والأطفال الحفاة حتى تقترب مني قليلا، تقول في صوت خافت ولكني أسمعها بوضوح: لو لم أكن موجودة في الغرفة المجاورة.. فهل كنت تفعلها؟

ألتفت إليها وتلتقي عيوننا، لا تستطيع أن تبقيها طويلا، تزمّ شفتيْها ويحمرّ وجهها بشدة، أقول: كيف يمكن أن أفعلها وأنت تتنصتين علينا، والعمدة يقف متحفزا على رأس السلم، ولكن أهم من ذلك أن هذا النوع من النساء.. لا يعجبني؟

تظلّ تحدق في عينيَّ، هل استطاعت أن تقرأ ما فيهما؟ نعاود السير في صمت، شيء ما حدث بيننا لم يكن بحاجة للكلام، ينتهي

عالم الطين ونجد أنفسنا في الخلاء، لا تمتدّ حولنا إلا الحقول الخضراء، هذا أوان البرسيم، والعيدان النحيلة تتمايل مع الريح، وترفرف فوقنا طيور بيضاء مجهولة، اعتقدنا معا أنها سترحل بعيدا، ولكن واحدا منها يهبط إلى الأرض يقف بساقه الطويلة على وسط بقعة صغيرة من الماء والطين أمام الوحدة، لا تجفّ أبدا، يمدّ رقبته ويغوص بمنقاره في الماء، تقول في همس وهي تراقبه: مالك الحزين جائع، ويبحث عبثا عن دودة.

نقترب من مبنى الوحدة، تتوقف فجأة، أتوقف أنا أيضا وأتأمل حمرة وجنتيْها، هل كانت تريد الاعتذار عن سؤالها؟ لا تفعل، تقول فجأة: أي نوع يعجبك إذن؟

ريقي جافّ ومن الصعب أن أردّ سريعا، عليَّ أن أفكر قبل أن أقول كلاما لا يمكن التراجع عنه، أقول أخيرا: عليكِ أن تنظري لنفسكِ في المرآة.

تحدق فيَّ دون أن تفهم، ثم يعود الاحمرار إلى وجهها بشدة، تبلع ريقها في صعوبة، أشعر أيضا بالجفاف، أيضا، تخفض رأسها فجأة وتسير مسرعة لغرفة رعاية الأسرة وتغلق الباب خلفها، هل ألحق بها؟ أطرق الحديد وهو ساخن، أم أتركها تستوعب صدمة اعترافي؟ ربما هي تنظر الآن في المرآة لتتأكد من كلماتي، أظلّ واقفا أراقب مالك الحزين، كان قد يأس من العثور على طعام مناسب فطار مبتعدا، جاء دسوقي وتنهد في ارتياح حين وجدني واقفا، يقول: بالعافية أخذت من العمدة أجرة الكشف، هذا الرجل البخيل، لم يكن يريد أن يدفع شيئا، يريد أن نقوم نحن بالدفع، يعتقد أننا عبيده وأن علينا أن ندفع له الإتاوة.

يعطيني عدة أوراق مالية، أدسّها في جيبي دون أن أعدّها، أعرف أنه أخذ نصيبه قبل أن يعطيها لي، من داخل الوحدة يرتفع صراخ النسوة فجأة، أصوات مشاجرة حادَّة، أسرع بالدخول والدسوقي خلفي، النسوة الثلاث مشتبكات في شجار عنيف، أيديهن متداخلة، وجدائل شعورهن مفكوكة، كل واحدة منهن تجذب خصلات شعر الأخرى، يواصلن الشتائم والصراخ، أتدخل بينهن وأستطيع بالكاد أن أخلص «فرح» من قبضتهن، كانت مراجل الغضب في داخلهن قد انفجرت، أسحبها بالعافية إلى غرفة الكشف، وجهها كان مليئا بالخربشات، أعود إليهن غاضبا، لم أكن أريد أن أعرف السبب، لكن عطيات العجوز تصرخ في وجهي: منذ أن جئت إلى هنا وأنت تميِّزها عنَّا.

وتقول علية في لهجة أكثر تعقلا: في زيارة مهمة مثل هذه، كان يجب أن تأخذ واحدة منَّا.

تصيح عطيات في تهور: سأقدم شكوى إلى مديرية الصحة.

تقول أي كلام وهي تعرف ذلك، أظلّ هادئا، أقول لها: أنا بنفسي سأوقفكن عن العمل، وسأحوِّلكن للمديرية للتحقيق، نحن لسنا في الشارع.

تهدأن فجأة، تلتقط علية خيط الهدوء وتقول في عتاب: يجب أن تكون عادلا معنا.

أقول في سخرية: أنا لست زوجكن ولستن زوجاتي، انصرفن الآن وغدا لنا كلام آخر.

أظلّ واقفا واضعا يديَّ في خاصرتي حتى تجمع كل واحدة منهن

أشياءها وتسير خارجة، أعود إليها ويظلّ دسوقي واقفا على الدرج الخارجي، ما تزال فرح تبكي في هدوء، منكّسة الرأس، منكوشة الشعر، وغطاء رأسها ملقى على الأرض، أتردد قليلا ثم أضع يدي على رأسها، أمسّد شعرها محاولا أن أعيده لوضعه الطبيعي، لا تقاومني ولا تبعد رأسها، تستسلم للمساتي، تهدأ وتكفّ عن النهنهة، تقول: لم أفعل لهنَّ شيئا، ما إن دخلت من الباب حتى انقضضن عليَّ دون سبب.

اقول باسما: بل يوجد أقدم سبب في التاريخ.. غيرة النساء.

ترفع وجهها نحوي فأرفع يدي عنها: لماذا؟ إنهن الأكبر سنًا، والأقدم والأعلى مني في الوظيفة.

أقول فجأة: أنت الأجمل.

تشهق وتقف كأني لسعتها بكلماتي، تتراجع حتى تلتصق بالحائط، أشعر أنني أهاجمها بلا هوادة، أضعها في مكان لا تريده، تقول: لقد تأخرت كثيرا، يجب أن أنصرف.

يتطور الموقف لدرجة أنها أصبحت تشعر بأن وجودها وحدها معي غير مريح، أقول لها: ليس قبل أن تأخذي حقك.

تنظر مندهشة، أخرج من جيبي ورقة مالية وأقدمها لها، تزداد انكماشا وتبعد عني أكثر، أقول: هذا نصيبكِ من أموال العمدة، لم يُردْ دسوقي تركه قبل ابتزاز منه بعض المال.

تبتسم أخيرا ولكنها ترفض أن تأخذها، أصرّ عليها، تتداخل أصابعنا حتى تستسلم لإلحاحي أخيرا وتأخذ النقود، تقف فجأة

على أطراف أصابعها وتمسّ بشفتيْها خدي، مسة خفيفة كرفة فرشاة، كومضة ضوء، كذوبان سحب، أضع يدي على خدي مبهورا، وعندما أفتح عينيَّ أجدها قد اختفت من أمامي، تجمع أشياءها بسرعة وتغادر الوحدة، أقف عاجزا عن الحركة، أسير ببطء حتى أقف بجانب دسوقي الجاثم على الدرج كصقر عجوز، أراقب ظهر فرح وهي تبتعد ببطء، تحاول أن تتمالك نفسها وتجعل خطواتها ثابتة.

قبل أن تصل للطريق الرئيسي للقرية يبرز شخص من مكان ما؛ شابّ طويل ونحيف مثل عود قصب، تتوقف حتى يلحق بها، تسير ويسير معها، خلفها بخطوة، ولكنهما معا، حتى إن الشمس التي كانت تهبط من منتصف السماء صنعت لهما ظليْن طويليْن يلتقيان في النهاية؛ ظليْن ورأسا واحدا، أحدق فيهما، يتابعني دسوقي بعينيْه النافذتيْن، أسأله: من هذا؟

يقول ببساطة: هذا عيسى.. زوجها.

لا أنجح في إخفاء دهشتي، لا أستطيع ألا أرتج، المباغتة أقوى من ذلك، أقول: هل هي متزوجة؟

يقول بسخرية خفية: كل هذا الوقت بجانبك في غرفة الكشف ولم تعرف أنها متزوجة!

أحاول أن أخفي آثار الصدمة، أقول: تبدو صغيرة على الزواج.

يقول دسوقي بلهجة محايدة: نحن في الصعيد يا دكتور، إنه ابن عمها وواجبه أن يستِّر عليها.

أنسحب من أمامه بسرعة، وأصعد الدرج إلى السكن وحيدا.

٣

لا يبدو أن «أحلامهم» على وشك الظهور، يهمهم الركاب وهم يتجمعون على حافة القرية، يشعر البعض بالتعب من طول الانتظار، يجلسون على الأرض مستندين إلى جدران البيوت، ينضمون دون قصد لطابور المتعطلين المتواجدين دوما في هذا المكان، بقية الحيوانات المنتظرة تأخذ جانبا لوحدها؛ جديان وماعز حديثة الولادة وأرانب في أقفاصها وإوز تطلّ برقابها الطويلة من السلال المجدولة من البوص، أشعر بندى الصباح وهو يبلّل شعري، لم تظهر أحلامهم، يقول أحدهم فجأة: لابدَّ أن الجسر قد انقطع.

لا أفهم ماذا يعني، أحمل حقيبتي الصغيرة وأقف وسطهم في بلاهة، أكثر من واحد يحاول أن يفهمني سبب التأخير؛ فالأتوبيس قبل أن يأتي إلى هنا يطوف بالعديد من القرى، ويعبر أكثر من جسر متهالك فوق عدد من الترع والمصارف، جسور بعضها انتهى عمرها الافتراضي، أرضها مليئة بثقوب تطلّ مباشرة على الماء العكر، يخاف معظم السائقين من القيام بهذه المجازفة، يفضلون العودة دون إكمال دورتهم وينتظرون حتى يتمَّ ترميم الجسر؛ وهكذا تصبح البلدة مقطوعة، منعزلة عن العالم، ترتفع الأصوات، وهم يؤكدون على بعضهم المعلومة، أمر عادي يحدث كل بضعة أسابيع، مثل

جيش مهزوم بدءوا يجمعون الأشياء التي كانوا يحضرونها للسفر، انسحبوا واحدا إثر الآخر، حتى الحيوانات رحلت، فوجئت بأنني أقف وحدي وليس هناك إلا صفّ المتعطلين الجالسين خلفي.

كنت قد أدرت ظهري للوحدة، أعطيت نفسي إجازة لبضعة أيام أسافر فيها للقاهرة، امتلكت الشجاعة أخيرا للعودة للمدينة التي أكرهها، ولكنها الظروف تأبى أن أتمَّ رحلتي، هل أعود للوحدة، ومتى أستطيع الرحيل مرة أخرى؟ يفزعني أنني منقطع عن العالم، رغم أنني جئت إلى هنا هاربا منه، أحسّ بنوع من خيبة الأمل، طعم الحصار دائما جيد، أترك صفَّ المتعطلين وأتجه للوحدة، ولكني أفاجأ بدسوقي قادما نحوي، انتهز الفرصة وصرف كل العاملين وأغلق الوحدة. يجعلني ذلك أشعر بالذنب، يعلق كل شيء في رقبتي، ينظر لي في استغراب، يقول: لم تأتِ «أحلاهم» أليس كذلك؟ يحدث هذا كثيرا، من فضلك يا دكتور اجلسْ في الوحدة ودعني أتصرف.

لا يترك لي فرصة للسؤال، يستدير ويبتعد عني مسرعا، أسير بخطوات محبطة، لا مكان لي إلا الدرج الخارجي، أجلس عليه محبطا، كنت أريده ألا ينصرف حتى يدخلني إلى سكني؛ فوقعتي الأخيرة، ينظر نحوي الفلاحون المارَّة في استغراب، هل تسرعت في اتخاذ قرار السفر؟ هل كان عليَّ أن أتمهل أكثر؟، يهبّ الهواء من الحقول المجاورة باردا، وتزداد برودته في كل لحظة، تنخفض إلى درجة الارتجاف، أتمنى لو أنني أستطيع الدخول والاختباء تحت أغطيتي، أسمع ضجة قادمة، دسوقي يركب دراجة بخارية خلف شخص ما من القرية، يتوقف أمامي بالضبط، يقفز دسوقي برشاقة

وقد أمسك طرف جلبابه بأسنانه ويقول: هذه «الماكينة» ستأخذك للمدينة.

لا أفهم، أنظر إليه وإلى الماكينة وسائقها، يقول شارحا: سيأخذك مسعود خلفه، ويصل بك في نصف الوقت الذي يستغرقه الأتوبيس.

أنظر متشككا، يتدخل السائق: أنا حافظ الطريق يا بيه، في كل يوم آخذ نصف القرية إلى المدينة وأعود بهم في المساء.

كنت محتارا، لم أتصور أن تكون هذه الطريقة معتمدة في الانتقال، أقول: أليس هذا خطرا؟ الطريق مليء بالحفر والمطبات.

يقول في ثقة: أحفظها مثل خطوط يدي، هيَّا يا بيه، لا تعطلني، لقد فضلتك عن بقية الزبائن.

يتدخل دسوقي مؤكدا: لقد أوصيته عليك، لن يقود بجنون كعادته ولكنه سيوصلك كما تحبّ.

لا أريد أن أبدو أمامهما خوَّافا أو جبانا، أهتف فيها محذرا: ستقود بلا تهور.

يقول: افعل فقط كما أقول لك؛ وسنصل بالسلامة.

يتصرف بطريقة عملية، يأخذ الحقيبة ويربطها في ظهر المقعد، يجلس ويطلب مني أن أجلس خلفه، أتحرج من لمسه ولكن من الواضح أنه عمل حساب ذلك، يرتدي جلبابا فضفاضا، يعطيني الفرصة حتى أتشبث به، ينطلق فجأة، لا يترك لي فرصة للتردد، ما إن نبتعد عن دسوقي وعن مبنى الوحدة حتى يصيح هو سيد الموقف،

..ول: سامحني ولكن يجب أن نسرع، مع تعطل «أحلامهم» فإن ..اك الكثير من الزبائن.

أكتم صرختي بصعوبة والماكينة تزأر بصوت عالٍ، تنطلق دون أن ..مس الأرض، تختفي رءوس النخيل، وتتراجع الحقول الخضراء، ..عبر قرى وبيوتا لا أعرفها، ويظهر خطّ رفيع غائر من الماء، نسير ..لى حافة ترعة ممتدّة، يمكن لأي حركة متوترة أن تهبط بنا، يسلك ..ط..قا جديدة، ضيقة وخطرة ولكنها مفتوحة دوما، لا تخف درجة ..عبي ولكن تزداد، لا نصادف سيارات ولا حافلات، ولكن ماكينات ..خرى مجنونة عليها أناس مرعوبون مثلي. يندفع الهواء باردا محمَّلا ..رائحة السبخ، يدخل في جلباب السائق ويجعله منتفخا كبالون، .. دأننا نطير بالفعل، ولكننا نرتفع لننخفض سريعا، وتتوغل الإطارات ..ي الأرض الترابية، ويحيط بنا الغبار من كل جانب، تغيب عنا الرؤية ..لحظات، لا جدوى من الصراخ، سيعود هذا السائق إلى القرية ..ي المساء ويحكي عن جبن دكتور الوحدة؛ لذا يجب أن أتماسك حتى ينتهي هذا الكابوس، تقفز الماكينة قفزة كبيرة وأجد نفسي فوق الأسفلت المؤدي للمدينة، لا أصدق أنه فعلها بهذه السرعة، يقول: أنت زبون خصوصي، في العادة يركب خلفي اثنان أو ثلاثة من الفلاحين، ولكني أقوم بهذا المشوار من أجلك فقط.

يواصل اندفاعه المجنون حتى بعد أن نصل إلى شوارع المدينة، يبتعد الناس من أمامه مرعوبين وأسمع الصرخات مختلطة بالشتائم، أقول له متوسلا: لقد فوَّتنا موقف الحافلات ومحطة القطارات.

يقول في ثقة: وما شأننا بها؟ سآخذك إلى سيارات الأجرة «البيجو»، هي الأسرع.

منهكا من كثرة المطبات على الطريق أستسلم له، يقف بي أمام أحد السائقين، سيارة البيجو التي يقودها مليئة بالخبطات، أقول للسائق الذي كان يرافقني: هل تعرف هذا السائق؟

يقول في ثقة: إنه أخي، أقول: هل هو متهور مثلك؟

يضحك كاشفا عن أسنان صفراء: أنا أعقل واحد في العائلة.

لا وجود للعقل في هذا المكان، تندفع سيارة «البيجو» بعد أن اكتمل ركابها، تتلوى على الأسفلت دون هوادة بين الشاحنات الضخمة، لا تسمح لأحد بتجاوزها، وتلتفّ بسرعة حول الجواميس التي تعبر الطريق في تكاسل، ولا يكفّ سائقها عن التلويح بذراعه مهددا الجميع. أغمض عينيَّ محاولا النوم وتناسي أنني أركب هذا التابوت الطائر، وأفيق لأن اندفاع السيارة يفوق حدَّ الاسترخاء، أسأل الراكب الذي بجانبي عن اسم الترعة الواسعة التي نسير بمحاذاتها دوما، يقول: إنها ترعة الإبراهيمية، ويضيف السائق ساخرا: إنها ممتلئة بكل أنواع السيارات. مزحة ثقيلة تجعلني أدير رأسي وأنشغل بمراقبة المشاهد المتكرِّرة، وأستغرق فجأة في النوم.

أستيقظ فأجد رأسي مستندا إلى كتف الراكب الجالس بجواري وهو يتحملني صابرا، وأجد أضواء القاهرة وزحام السيارات يُحيطان بنا من كل جانب، ويصبح الهواء ساخنا ومغبرا ومفعما برائحة العوادم: يمتلئ صدري بالغبار قبل أن أعبر الموقف لأجد سيارة تأخذني لغرفتي الوحيدة، كانت كما هي خانقة ومتربة، زحام الكتب والملابس المتسخة والأشعار المكتوبة على الجدران، أتنفس في راحة حين أجلس على سريري القديم، غرفة غير مريحة وذكريات

.ـبنة ولكنها كل ما لديَّ، عليَّ أن أقضي فيها ليلتي الطويلة، لا أريد ان اتصل بأحد أو أرى أحدا ولا أفكر في أحد، لم آتِ للمدينة هاربا من شيء، ولكن بحثا عن أشياء قديمة لا تريد أن تمحى من ذاكرتي.

لم أنم إلا قليلا، أهبط للطريق وأستقلّ أول سيارة أجرة تمرّ امامي، أقول للسائق: خذني إلى القلعة.

ينظر إليَّ بامتعاض كما يفعلون جميعا، لا يبالي بتشغيل العداد، أيضا كما يفعلون جميعا، أجلس في المقعد الخلفي وأنشغل بالنظر إلى الخارج حتى لا أتحدث معه، تغيرت المدينة رغم أنني لم اتركها إلا منذ بضعة أشهر. المرة الثانية التي أراها متغيرة وأكثر زحاما وقبحا، عندما خرجت من السجن كانت معادية، الآن تبدو لا مبالية. تخرج السيارة من المدينة الحديثة وتدخل الأحياء الضيقة التي تلتفّ حول القلعة، قصور قديمة ومساجد وأسبلة، الحلقة الخانقة التي لا يشعر بها إلا من خاض تجربة السجن في قلب هذه القلعة الحجرية، تجتاز السيارة الشارع بين المسجديْن الكبيريْن وتبدو القلعة عالية ومتفردة وخلفها تلال المقطم تسدّ الأفق، أهبط أمام سلم من الحجر الجيري المتآكل، أبدأ رحلة الصعود إلى أعلى، هذه المرة على أقدامي وليس داخل عربة السجن، أصل إلى ساحة القلعة الداخلية، تحيط بي جدران عالية مبنية من كتل الصخور المربَّعة، الأرض أيضا مغطاة ببلاطات من صخور جيرية، كأنني أسير وسط جبل من الحجر والكلس تشكّل واستدار وامتلأ بالمسارب الغامضة ليصبح قلعة، أتبع اللوحات الإرشادية إلى المكان المرعب الذي فتح أبوابه المصنوعة من أشجار الجميز ليتحوَّل إلى متحف بعد أن كان بؤرة لكل أشكال الرعب الإنساني،

أقف أخيرا أمام المدخل الحجري المقوَّس. للمرة الأولى أتعرف على مكان السجن، لم أره حتى وأنا أدخله كسجين داخل عربة خانقة ومظلمة، ربما مرَّ آلاف أمام هذه البوابة الحجرية دون أن يعرفوا أنه توجد خلفها قطعة حقيقية من الجحيم. يرتجف قلبي، وأشعر بأطرافي وقد بدأت تدبّ فيها البرودة، أتوقف، عاجزا عن القيام بخطوات قليلة تقودني للداخل، ربما لو دخلت فلن أستطيع الخروج. يستيقظ الحراس القدامى، مماليك أو أمن دولة الذين يشغلون دوما المكان نفسه، ويحجبونني بعيدا عن ضوء الشمس، ويعلم الله وحده متى يطلقون سراحي. أتأمل تفاصيل نقوش البوابة الحجرية، لابدَّ أن قدامى السجناء هم الذين قاموا بحفرها، عندما عبرت عربة السجناء هذه البوابة لم يكن هناك إلا الظلام، حتى الكوَّة الصغيرة في سقف السيارة كانت عليها شبكة من الصلب، كنت ملقي في الركن، تحت أنظار ثلاثة من المخبرين، يمنعونني من القيام بأي حركة، ولا يتورعون عن ضربي، عندما هاجموا غرفتي كنا في منتصف الليل؛ وقتهم المفضل، كانوا كثيرين، داخل الغرفة وخارجها، كأنهم جاءوا للقبض على الحي بأكمله وليس عليَّ وحدي، نثروا كل أوراقي، ونفضوا الكتب بحثا عن أوراق بداخلها، ونظر إليَّ الضابط باحتقار: ماذا تعمل يا ولد؟

لم أكن ولدا، كنت قد تخرجت للتو في كلية الطب، أردّ باعتزاز: أنا طبيب.

يهزّ الضابط كتفيْه باستهزاء: أنت كاذب بالطبع، الشيوعيون من أمثالك كلهم متعطلون.

يشير للمخبرين أن يحملوا رزمة الكتب، ويواصل تفتيشه

للأوراق، يرفع يده حاملا ورقة، يلفت نظره الختم الذي عليها، ينظر إليها بقرف وهو يقول: ما هذا الختم؟

أقول: ختم نقابة الأطباء، وهذا تصريح مزاولة مهنة الطب.

يبلغ غيظه أقصاه، كأنه يعتقد أنني أفعل هذا نكاية فيه، يمسك بأطراف الورقة ويمزقها في بطء واستمتاع، يقول: لا مهنة لك بعد اليوم. ستشرِّفنا بقية عمرك.

يشير للمخبرين والعساكر فينقضون عليَّ، تأتي اللكمات والركلات من كل مكان، لا أقدر على مقاومتها أو ردِّها، لا أقدر حتى على التقاط أنفاسي، يجروني بثياب النوم فوق وجهي، يهبطون بي السلالم وجسدي يرتطم مع كل درجة. كنت أنا السجين الوحيد لهذه الليلة، والعربة الحديدية تمرق خلال الليل، يخرجونني منها بعد أن ظللت أرتج وأصطدم بجوانبها المعدنية لمدة ساعات، وعندما يغلقون البوابة الحديدية ينهال عليَّ المزيد من الصفعات وشتم أمي بمختلف النعوت، حتى الآن أشعر بألم هذه الصفعات وأنا أعبر البوابة، رغم أنني أسير على أقدامي وبإرادتي، لم أكن حافيا كالمرة الأولى، ولم يكن جسدي داميا ومضروبا ومهانا، أسير معتدل القامة، أرمق الحرس المتواجدين في ريبة، أتوقع أن يقوموا بأي حركة غادرة، ويغلقوا علينا الأبواب، حتى الآن لا أعرف حقًا لِمَ جئت لهذا المكان. لماذا أدخل جدران هذا الكابوس بإرادتي؟ ما سرّ هذه الرغبة الحارقة في أن أرى الزنزانة التي سجنت فيها؟ مازلت أحفظ طريقي إليها، هناك الكثير من الشمس، تنعكس على الواجهات الزجاجية المعروضة، خلفها توجد نماذج من أدوات التعذيب المستخدمة داخل السجن، راقدة وساكنة وغير مؤلمة،

واحد منها الكرباج الذي كان يهوي على ظهري في الخطوات الأولى، بجواره الفلقة والشومة، وفي جانب آخر توجد عروسة التعذيب، كل أدوات التهديد موجودة، ولحسن الحظ أن البعض الآخر كان محتجزا خلف واجهة زجاجية، بعيدا عن أجسادنا.
في مكان آخر كانت هناك قصاصات من الجرائد لأشهر الجرائم التي هزَّت مصر، لم تكن قضيتي منها بطبيعة الحال، كانت أشدّ تفاهة من أن ينشر عنها رغم ما تركته من أثر في نفسي، أسير في ممرٍّ ضيق، في الدور الأول من السجن، كان مكوَّنا من ثلاثة أدوار، وكل دور مكوَّنا من أربعة أضلاع، في كل ضلع منها عشر زنازين، زنزانتي الثانية في الضلع الثالث، لم أستطع أن أمنع نفسي من تأمل الزنزانة الأولى، في داخلها تمثال لأحد السجناء، ملقى على الأرض، زنزانة عارية، دون قطعة أثاث واحدة، لا مقعد، ولا سرير ولا حتى مرتبة، مستسلم تماما، تمثال تعيس كحالنا جميعا، أنتقل للزنزانة المجاورة فتستيقظ روح السجين المرتعدة التي تمَّ زرعها بداخلي، التي ترتجف من خطوات الحراس في منتصف الليل. أتشبث بقضبان النافذة، وأطلّ على مساحة الزنزانة الخانقة التي كنت لا أملك إلا التحرك بداخلها، الشهور الأطول التي مرَّت عليَّ في حياتي، توق ورغبات خائبة وانتظار زيارة لا تجيء، وحدة مطلقة لا يؤنسها أحد، لا يزيدها التحقيق إلا وحشة، أسئلة غامضة، وتهم وهمية، ورحلة عبثية بين الزنزانة ومكتب التحقيق، وكل شيء خاضع لمزاج المحقق، أحيانا يكون متعاطفا حتى أعتقد أنه سيفرج عني في اليوم التالي، وفي أكثر الأحيان يكون غاضبا، يكيل لي كل أنواع التهم حتى يصيبني اليأس وأعتقد أنه لن يفرج عني لآخر العمر، كل هذا بلا وقائع أستطيع إنكارها ولا دليل أحاول نفيه، كان

العذاب الحقيقي هو الافتقاد، الإحساس بتفردي في الكون وليس هناك من يقدم لي يد العون، نجم ضائع في مجرَّة بالغة الاتساع، يمكن أن أسقط في أي ثقب أسود دون أن أترك أثرا، أضع يدي على باب الزنزانة وأحدق بعمق، كأنني سأكتشف أنني مازلت بالداخل، أفاجأ بأن الباب يهتزّ تحت ضغطي، يتحرَّك منفرجا ومُصْدرا صوتا مزعجا؛ ذلك الصوت الذي كان يقتلني فزعا، والذي يعني أن هناك عقابا قادما، ورغم أن الباب سميك ومصنوع من الصلب، لم يكن يحميني من الأصوات القادمة من الخارج؛ أصوات صرخات الذين يضعونهم تحت التعذيب ليعترفوا بأشياء لم يفعلوها، صدى أصوات الذئاب الجائعة القابعة في المقابر القريبة من القلعة، كأنني أنتقل لعالم آخر بعيد عن الشمس؛ عالم بارد ومعتم، أسير في الزنزانة، كل بضع خطوات تجعلني أصطدم بجدار صلب، ضيقة وخانقة، كيف عشت فيها دون أن تُطبِق على صدري؟ لا أبتعد عن الباب كثيرا، كنت خائفا أن ينغلق بفعل قوى شريرة ولا أستطيع الخروج، هل تركت خلفي أي أثر؟ بحثت في الحائط عن تواريخ وأسماء ونقوش ورموز، محاولة للتمسك بالأمل، أظلّ أبحث عن شيء يخصني، رغم العتمة وجدت شيئا؛ حروفا صغيرة محفورة بخط يدي؛ «فاتن» اسمها وبجانبه تاريخ ميلادها، في ذلك الوقت البائس أتذكرها، رغم أنها لم تقم بزيارتي، كانت تريد ولكنها لا تستطيع، هكذا أبرِّر غيابها لنفسي، ولكن أحدا غيرها لم يزرني، ومع ذلك هي الوحيدة التي تذكرتها، من خلفي سمعت صوتا خشنا يهتف بي: كيف دخلت إلى هنا؟

ألتفت نحو صاحب الصوت؛ أحد ضباط الشرطة، طويل

وعريض، ويملك النبرة المتسلطة نفسها، أقول: الباب كان مفتوحا، وهذا متحف، أليس كذلك؟

يقول في شدَّة: ولكنه سجن، وسيبقى سجنا إلى أن يهدم.

يسير قليلا وهو يمسك بالباب الصلب، يحرِّكه وهو يقول: إذا اغلق هذا الباب عليك، فهل تضمن أن يفتح مرة أخرى؟

أتأمل وجهه للمرة الأولى منذ أن دخل للمكان، أتعرَّف عليه، كان واحدا من السجانة، خطواته في الممرِّ الخارجي وحدها كانت تثير الرعب، وتصبح كارثة عندما يفتح الباب في منتصف الليل، أقول في صوت مكتوم: أنا كنت مسجونا هنا.

يحدق في وجهي قليلا: أتذكرك، أنت طالب الطب النحيف.

أقول معترضا: لم أكن طالبا، كنت طبيبا.

يلوِّح بيده في استهانة: أيًا كانت صفتك، منذ أن افتتح هذا المتحف وكلكم تأتون إلى هنا؛ أشباح تخرج من قبورها، سياسيون ونشطاء ومخرِّبون، يستعذبون لحظات الألم، من المؤسف أن يُساء استخدام هذا المكان الجيد، وأن يمتلئ بالموتى.

أقول محتجًا: لسنا موتى، ولا أشباحا.

يقول: ولكنك ترفضون التقدم للأمام، تفضلون العيش في الماضي مهما كان مؤلما، سأرفع تقريرا للمسئولين، يجب أن يعيدوا إغلاق هذا المكان، لسنا في حاجة لاستنهاض الموتي.

يقف على جنب ليفسح لي الطريق: من فضلك اخرج، سوف أخلي مسئوليتي عنك لو أغلق هذا الباب.

أشعر بالخوف من لهجته وأسرع بالخروج، أتوقف لأراقبه وهو يُعيد إغلاق الباب في إحكام، يشير نحوي بإصبعه: لا تعد لهنا، في المرة القادمة سيكون مغلقا، وربما يصبح سجنا من جديد.

لم أستطع أن أكمل جولتي، اكتشفت أنني لم أحضر إلا لمشاهدة هذه الزنزانة، وبينما أهبط على الدرج الصخري وجدت ذكرى فاتن تهاجمني، أرتعد وأنا أقول لنفسي: الأمر جدير بالمحاولة.

حتى الآن لم أسترح إلا قليلا، مازالت حالة السفر تتلبسني، لا توجد أرض ثابتة أقف عليها أو أنتمي إليها، أريد أن أبحث عن هاتف لأقوم بالاتصال الذي جئت من أجله، فرصتي الأخيرة للهروب من فخ الوحدة في القرية النائية، أهبط الدرج مسرعا، لا أريد أن أدع التردد يضعف عزيمتي، أسير إلى أقرب كشك لبيع السجائر، الهاتف الأسود القديم يرقد صامتا، ينتظرني مترقبا، أدير قرص الأرقام بينما يراقب صاحب الكشك مؤشر الدقائق، يرنّ الجرس عدة دقات متتابعة، كأنه يرنّ في الفراغ، كأن العالم الآخر لم يعد موجودا، وأخيرا أسمع صوتها، المدهش أنها تعرفت على صوتي من الوهلة الأولى، لا تسألني أين كنت طوال هذه المدة، لكن صوتها كان باردا، ربما كانت مندهشة من صوتي أقول باختصار: أريد أن أقابلك.

أسمع صوت أنفاسها وهي تتسارع، تقول: لقد تقابلنا بما يكفي، لا جدوى من أي لقاء جديد.

أصرّ قائلا: بل هناك جدوى، تعاليْ واكتشفي بنفسكِ.

تصمت لبرهة قبل أن تقول: حسبت أننا انتهينا.

أقول: ربما كانت هناك بداية جديدة لا نراها.

تقول في حزم: لا أستطيع أن أخرج لمقابلتك.

أقول: من حسن الحظّ أنني أعرف الطريق إلى بيتك، أستطيع أن أحضر وأوفر عليك مشقة الخروج.

تقول بسرعة: فلنتقابلْ إذن، مرة وحيدة وأخيرة.

لم أرد أن ألجأ إلى أسلوب التهديدات الخفية، أعرف أنني ارتكبت غلطة لا تغتفر، لكني كنت يائسا. قطعت رحلة صعبة، وتعرَّضت للموت كمدا، وأصبح مستقبلي على المحك، وإذا بي أفاجأ بهذا الردّ البارد غير اللامبالي، هل يمكن أن أغيِّر كل هذا من مجرد مقابلة غير مضمونة؟

كانت فتاة مثيرة وغريبة عندما تقابلنا للمرة الأولى. في ذلك الحي الذي تسكنه أسر متوسطة كان من المثير أن نرى فتاة تنزِّه كلبها، في الوقت والمكان نفسيْهما كل صباح، تكسو الكلب بسترة لها اللون نفسه للثوب الذي ترتديه، عندما ترتدي ثوبا أزرق يرتدي الكلب سترة زرقاء، وكذلك في اللون الأحمر والأخضر، حتى لو لم يكن الجو باردا. أمر مثير، هذا الدأب على أن تجعل الكلب جزءا منها، أو شبيها لها، هذا هو ما لفت نظري قبل أن يلفته جمالها الهادئ الرصين. نظلّ نتقابل هكذا كل صباح في الموعد نفسه، حتى لو كان الجو ماطرا أو ضبابيّا، كان من الطبيعي أن ألقي عليها تحية الصباح، والأكثر اعتيادية أن تردَّ عليَّ التحية، وأن نتوقف بعد برهة ونتبادل الأحاديث ليتعرَّف كلٌّ منا على عالم الآخر، أن نمتزج ونتعاهد وأن نتبادل أول قبلة في الخفاء وأن نلبس أيضا «دبلا» من الفضة، وأن نُحسَّ بعشق ورغبة وجوع.

لم يكن المقهى مزدحما عندما أقبلت أخيرا، رشيقة وطويلة، تسير على مهل كأنها لم تتأخر أكثر من ساعة، تقف عند الباب مترددة في الدخول، ولكنها تلتقط نظرة عينيَّ، نحدق في عيون بعضنا لعدة لحظات، تبدأ في التقدم نحوي وقد تغيَّر التعبير الموجود على وجهها، أصبحت أكثر صرامة، تجلس أمامي مباشرة، على المنضدة نصف كوب مليء بعصير الليمون، شربته كطعم المُرّ وأنا أنتظرها، تقول فجأة: أتهددني؟

لهجتها باردة كنصل السكين، رأيت نهاية اللقاء منذ لحظاته الأولى، أقول بلهجة من التوسُّل: أردت أن أقابلك، مرَّت شهور طويلة منذ اللقاء الأخير.

تقول: ولم يتغيَّر شيء.

أقول بحرارة: كل شيء قد تغيَّر، العالم القديم انقلب وذهب بعيدا، لم يبقَ إلا حبي لك.

تحدق فيَّ غير مصدقة، تحرَّكت يدها فوق المنضدة، ضمَّت قبضتها ثم أرختها، لمحت علامة في إصبع البنصر، حِزًّا أبيض متواصلًا مع حركة الإصبع، هل كانت ترتدي خاتما، دبلة؟ هل خلعتها عندما جاءت لمقابلتي؟ هززت رأسي، وظلتْ هي صامتة، لم تكن مطالبة بأن تتكلم، لم تقل إنها تحبني أو تكرهني، رغم كل البرود في صوتها وتنئيها عني، ها هي تجلس أمامي، في المقهى نفسه الذي استمع إلى كلماتنا الحارَّة وشاهد أصابعنا المرتعدة وهي تتشابك، وأحسَّ بحفيف ركبنا وهي تتلامس تحت المنضدة، أقول: لقد تغيَّرت ظروفي الآن، تجربة السجن التي

فرَّقتنا أصبحت شيئا من الماضي، والآن يمكننا أن نستعيد هذه العلاقة رسميًا.

تحدق فيَّ مندهشة: كيف؟

أقول بسرعة: نتزوج.

تضحك بصوت مفاجئ، ضحكة عالية وجافة وساخرة، يحدق فينا الجالسون، أشعر بالخجل، هذه كانت إجابتها على اقتراحي، نظرت إليها فنظرت نحوي بنوع من التحدي، كيف استدار الزمن لهذه الدرجة؟ كيف تحوَّلت عهود الحبِّ إلى ضحكة هازئة؟ تقول: هل ستتزوجني في غرفتك القديمة؟

أحاول أن أعيد الحرارة لحوارنا الذي يسير في طرق مسدود، أقول: لقد استعدت وظيفتي، وأصبح لي سكن خاص فوق الوحدة، والدخل أضحى جيدا، يمكننا أن نتزوج هناك، ونبقى لسنوات قليلة حتى نشتري شقة هنا في القاهرة.

تقول في هدوء: أي أنك تريد أن تعود بنا للمربَّع صفر؛ مربع الأحلام غير الواقعية.

هل كنت أحمل جعبة من الأحلام الفارغة، أكثر مما يلزم وأبعد من أن تصدق؟ يجيء الجرسون فنطلب المزيد من عصير الليمون، لم تنهض وتنصرف، على الأقل ستنتهي من كوبها، تقول: هل تضمن لي ألا تعود للسجن مرة أخرى؟

أقول: لقد استوعبت الدرس جيدا، تركت السياسة للأبد.

تقول: ولكن السياسة لن تتركك، في أي وقت، سواء فعلت أم لم تفعل شيئا، سيسعوْن خلفك.

أقول: لقد قضيت في السجن أياما مرعبة، لا أحبّ أن تُعاد مرة اخرى.

تحدق فيَّ قليلا، اعتقدت أنها متعاطفة معي ولكنها تقول في مرارة حقيقية: أنت لا تدري أيضا ما حدث لنا بسبب سجنك.

أقول مندهشا: أنا لم أذكر اسمك في أي تحقيق، ولم ألمح إلى أي علاقة بك.

تقول: ولكنهم عرفوا بوجودها، عرفوا بوجودي، إنهم يعرفون كل شيء، لم يقبضوا عليَّ ولكنهم لم يكفوا عن اقتحام حياتنا أنا وأسرتي، كانوا كابوسا حقيقيًا، يأتون فجأة، في أي وقت، يفتشون عن اللا شيء، لا أعرف عمَّ كانوا يبحثون بالضبط، ولكنهم كانوا لا يخرجون أبدا صفر اليديْن. مرة أخذوا كومة من الكتب بما فيها الكتب التي يعتزّ بها أبي وأوراقا لا تخصهم في شيء، وفي مرة ثانية أخذوا جهاز الراديو الذي كان أبي يستمع فيه لإذاعة القرآن، وخلال هذه الزيارات الثقيلة لم يكفوا عن استجوابي، كانوا يسألون عن اسمك أسئلة لا تنتهي، وكان الضابط يوجِّه لي أسئلة بلا حصر، عنك وعن حياتك وأصدقائك، الأسئلة نفسها، والأجوبة نفسها، بلا نهاية، مرة إثر مرة حتى أصيب أبي بالمرض وأصبحت مفضوحة وسط العائلة.

أقول في صوت مخنوق: آسف، لم أكن أعلم.

تقول: هناك الكثير من الأمور التي لا تعرفها، كان عليَّ أن أفعل شيئا حتى أمنع عن أبي المرض، وعن نفسي الفضيحة.

تصمت حتى تخفي اضطرابها، تأخذ رشفة من كوب الليمون، ثم تتشاغل بفتح حقيبتها، تعبث قليلا في محتوياتها قبل أن تخرجها

وهي تمسك بين أصابعها خاتما صغيرا، تضعه تحت نظري، تنعكس أنوار المقهى على سطحه اللامع، ألوان طيف خادعة وبراقة، تقول: لم أرد أن تراه في أصابعي، ولكن كان يجب أن تعرف على أي حال.

أقول وقد غاص قلبي: تزوجت حقّا؟

تضع الخاتم في إصبعها بتمهل، تقول: على وشك، كنت أريد أن أبلغك بذلك، لم تكن هناك فرصة حتى اتصلت أنت بي، ربما كان هذا هو السبب في قدومي لمقابلتك.

مشلول، عاجز عن إبداء أي ردة فعل، أقول بسخافة: هل أعرفه؟

تقول: وهل هذا يهم، كما يقول أبي.. إنه عريس لا يرفض، وكان هو أيضا فرصتي الأخيرة، قبل أن يهاجموا بيتنا مرة أخرى.

أقول فجأة: هل كان منهم؛ من رجال الشرطة؟

تزمّ شفتيْها وتتجاهل سؤالي، أقول: يا ربي..إنه واحد منهم، ربما كان واحدا من الذين يقومون بعملية مداهمة منزلكم.

مرة أخرى لا تردّ عليَّ، تتلفت قليلا لتتأمل جدران المقهى، كانت مغطاة بصور من أفيشات الأفلام الأجنبية، مليئة بمشاهد العشق الكاذبة، وجوه جميلة لم تعش أي نوع من خسارة حقيقية، تقول: الآن انتهى كل شيء، يجب أن أذهب.

لا تنتظر ردي، تبدأ في الابتعاد، أريد أن أمسك ذراعها وأرغمها على الجلوس، ولكني أظلّ جالسا مشلولا، لا أخرج من المقهى إلا بعد مرور فترة من الوقت، أسير في الشوارع بين الناس والسيارات، لا أسمع شيئا ولا أرى شيئا، مدينة لم أعد أنتمي إليها وعليَّ أن أرحل عنها سريعا.

٤

بعد ساعات مجهدة من السفر أجد «أحلاهم» في الموقف مستعدة للإقلاع، لم تعد القرية معزولة كما تركتها، لا ضرورة لأن أقضي الليل في فندق بالمدينة، ما إن أصعد عليها حتى تبدأ الحافلة في السير، ممتلئة عن آخرها بالناس، لم تكن هناك حيوانات، ابتلعتها أسواق المدينة حتى آخر دجاجة، كل المقاعد مشغولة، الطرق أيضا مزدحمة، بصعوبة استطعت أن أقف على قدم واحدة، ولكن فجأة، نهض واحد من الفلاحين عن مقعده وهو يقول بصوت مسموع: اتفضل يا دكتور.

تلتفّ كل الرءوس نحوي، تتعالى أصواتهم تدعوني للجلوس، ينهض أكثر من واحد، يخلون لي مكانا بجانب النافذة، يحشرون أنفسهم في مقعد واحد ويتركون لي مساحة لا بأس بها، يلحون عليَّ حتى أقبل الجلوس، لم أعد وحيدا منبوذا كما كنت منذ بضع ساعات، يقولون كلاما كثيرا، أستمع إلى شكاواهم وثرثراتهم و«أحلاهم» ترتفع وتنخفض مع مطبات الطريق، تظهر الترعة المتسعة التي يطلقون عليها المحيط، وأحراش النخيل، وغيطان البرسيم وأكوام السباخ والبيوت الطينية المتلاصقة، يخرج أحدهم علبة فيها قطع من الحلاوة الطحينية ويأخذ في توزيعها، أكتشف

أنني كنت في حاجة إلى شيء مسكر بعد مرارة رحلتي، ضحكت ربما للمرة الأولى منذ أيام، طابت نفسي وخفت جروحي، وعندما ظهر تجمع النخيل الأخير أحسست أنني أنتمي لهذا المكان أكثر من أي مكان آخر، ألقي عليهم السلام وأهبط، حاملا حقيبتي الصغيرة وأسير للوحدة، تعبق رائحة القرية أنفي، أفلت من خنقة الناس والبيوت لأجد نفسي في الفناء الخالي أمام الوحدة، الباب مفتوح، وحمار هزيل مربوط في أحد الأحجار، أمر غريب ومريب، أصعد الدرج متوجسا، دسوقي يبدو وكأنه يقف في انتظاري، يهتف بي: جئت في وقتك يا دكتور.

وكأنه يعرف كل أوقاتي، بجانب الحائط وعلى الأرض يرقد جسد منهك لفلاح، متقوس على نفسه، يلتقط أنفاسه بصعوبة، بجانبه تجلس امرأة ترتدي السواد، تعاني من الدرجة نفسها من الهزال، تجلس في صمت واضعة يدها على خدها، يقول دسوقي: هذا المريض جاء منذ الأمس من نجع مجاور، وهو نائم هكذا في انتظارك.

أقول في دهشة: هل تعني أنه قضى الليل هنا؟ على البلاط؟

يومئ دسوقي برأسه: لم تكن لديه طاقة على الانصراف والعودة إلى بيته، ولم أستطع أن ألقي به في الخارج.

أذهب إليه، وجهه شديد الصفرة، وشفتاه جافتان، جسده بارد ومريض وقد فقد كل قدرة على مقاومة الموت الذي يحيق به، أتعاون أنا ودسوقي على نقله إلى غرفة الكشف، كان على وشك التخشب، أخرجت السمّاعة بسرعة واضعا يدي على صدره: ماذا بك؟

تقدَّم زوجته وتتخلى عن صمتها: لن يقدر على شرح حالته يا به، ولكن يكفي أن ترى هذه..

تقدِّم لي زجاجة، ممتلئة عن آخرها، تقول: هذه عينة من بوله.

لم تكن بولا ولكنْ زجاجة ممتلئة بالصديد العكر المختلط بخيوط من الدماء، سائلًا داكن الصفرة، كأن كليته قد تفتتت وتحولت لهذا المزيج المرعب، نظرت إلى وجهه المجهد الذي امتصَّ المرض منه ماء الحياة، أقيس نبضه وأسمع دقات قلبه، وصل جسده إلى درجة من المرض لا يمكن أن توجد إلا في مصر، لا أدرى ماذا أفعل، أسرع إلى غرفة الأدوية، أخرج كل الأدوية التي أعتقد أنها ستكون ذات فائدة؛ أمزجة وحبوب وحقن، أعطيه حقنة مهدئة للحرارة، وأخرى بنسلين، وأطلب من دسوقي أن يصعد للسكن ليحضر لهما بعض الطعام، وليصنع لهما بعضا من الشاي الساخن، تفكّ الزوجة طرف طرحتها عن بعض النقود القديمة المكرمشة، ولكن أرفض أن آخذ منها شيئا، أنبِّه عليه أن يأخذ الحقن والأدوية بانتظام، وأن يعود إليَّ بعد أسبوعيْن، نساعده على الخروج، لم يكن قادرا على ركوب الحمار بصورة طبيعية، نرفعه حتى يرتمي على ظهره، رأسه وذراعاه في جهة، وساقاه في الناحية الأخرى، تمسك زوجته بالحبل الذي يقود الحمار وتسير ببطء، أتوقع أن ينزلق من فوق الحمار في أي لحظة، ولكن جسمه ظل يرتجّ حتى اختفى عن نظري.

أصعد إلى السكن وأكتشف كم أني مجهد، لم آخذ كفايتي من النوم بقدر ما أخذت من الإحباط، لم أكن متأكدا إذا كنت قادرا على القيام بهذه الرحلة مرة أخرى، أو إن كانت لها فائدة، بدت

كرحلة إلى عالم غريب، كوكب آخر لم يعد في مقدوري العيش فيه، أستلقي بملابسي وأغرق في نوم بلا أحلام، لست في حاجة لأي راحة زائفة، أستيقظ مع أول أضواء الفجر، أشاهد موكبهم الصباحي للحقول، أملأ صدري من الهواء الذي يتنفسونه، أتناول إفطاري من بقايا الطعام الموجود في الثلاجة، كان على وشك التلف، لم ينقذني سوى كوب الشاي.

عندما أدخل غرفة الكشف أجد «فرح» موجودة، تبتسم لي مرحِّبة، أتجاهل ابتسامتها، أتظاهر بالجدية وأنا أستقبل صفَّ المرضى، أغرق في مشاكلهم وأعراض أمراضهم المستعصية، تقف فرح عن يميني، ثم تنتقل إلى يساري وأنا أيضا لا أراها، أتلافى بريق عينيْها، ووجهها الممتقع، لا أطلب منها شيئا، ولا أدخل في حوار معها، أوشك أن أستبدلها بممرضة أخرى ولكن عندما أرى وجهي الممرضتيْن المتحفزتيْن أتراجع عن قراري، من الصعب أن أفعل شيئا أمام طابور المرضى، كل الذين تحملوا مرضهم طوال فترة غيابي، في لحظة ما تمسك بكُمِّ معطفي، أو لا تعطيني السمَّاعة ولكني مُصرّ على ألا أراها، لم يخفَ حنقي عليها، وأخيرا ينتهي الطابور الطويل، تتظاهر بأنها تعدل الأوراق لأذهب بها إلى غرفة الأدوية، للحظات أصبحت أنا وهي وحدنا في غرفة الكشف، بعيدا عنهم جميعا، تقف في طريقي للخروج، تقول بصوت خافت: ماذا حدث؟ هل أنت غاضب مني؟

أقول محتدّا: لماذا لم تخبريني بأنك متزوجة؟

تقول: أنت لم تسأل، وأنا لم أكذب.

كان لابدَّ أن أتركها وأذهب لصرف الدواء، أقرأ التذاكر وأصرفها بذهن غائب، هناك دائما زوج في مكان ما، وهناك امرأة تخفي سرّا، أنهي تقريبا، ولكن كان هناك طَرْق على الباب، لابدَّ أنها هي، ولابدَّ أنها اختارت وقتا غير مناسب لتوضيح الأمر، أصرف بقيةَ التذاكر قبل أن أفتح الباب في تكاسل، لم تكن هي، كان هناك شخص آخر يرتدي ثوبا أبيض وعليه معطف مائل للصفرة، ذقنه حليق وشاربه مشذب، يفتح فمه عن ضحكة واسعة وهو يقول: لقد أحضرت البالطو الجديد.

في غرفة الكشف لم تكن فرح موجودة، انسحبتْ على عجل كما يبدو، ولكن المعطف الأبيض كان موضوعا على المكتب، مكويّا ومرتبا، يحمله أبانوب ويقدمه لي مبتسما: أرجو أن يكون على مقاسك.

لم أحسب أنه سيكون جادّا ويفي بوعده، أتأمله حائرا ولكنه يفرده أمامي، أرى حروف اسمي مطرزة بخيوط زرقاء على جيب المعطف، كان أنيقا ناصعا، تحسسته بدهشة، يُصرّ أبانوب على أن أرتديه، لا أدري كيف استطاع أن يخيطه على مقاسي بهذه الدقة، أحسّ أنني أنيق رغم أنه لم تكن هناك مرآة، أقول له مبتسما: البالطو يعجبني، ولكن لابدَّ أن أدفع ثمنه.

يبتسم: لم يكلفني سوى ثمن القماش وهو أرخص ما في الأمر، المهم أن أكسب صداقتك.

أقول: أنا طبيب للكل، وربما أكون صديق الكل أيضا.. ولكن لا أستطيع أن أقبل أي شيء مجاني.

يجلس أمامي صامتا، أدرك على الفور أنه يريد شيئا ولكنه متردد في طلبه. في الحقيقة كنت معجبا بالمعطف ولا أنوي أن أخالف، بقيَ فقط أن أعرف نواياه، أقول: لا أعتقد أنك مريض يا أيانوب، هل هي زوجتك؟

يجيب مترددا: لم أتزوج قط، ولا يبدو أني سأتزوج. أنا قبطي وحيد، لا أنتمي لأي أسرة، مات أهلي وأنا صغير، ولم ترد أيٌّ من أسر الأقباط أن تزوج بناتها لخيَّاط مفرد مثلي.

لا أفهم شيئا، ولا أدري لماذا يقصّ عليَّ قصة حياته، أحاول أن أجد كلمات تعبر عن تعاطفي معه، ينفد صبري وأقول: لا أفهم ماذا تريد مني.

يتردد قليلا ثم يقول: هناك سيدة مريضة، حالتها تسوء يوما بعد آخر، وهي في حاجة لمساعدتك.

أقول: لا مشكلة كما أرى، يمكنها أن تأتي العيادة في الصبح أو بعد الظهر، وسأفحصها فحصا شاملا.

يقول بسرعة: لقد جاءت بالفعل، ربما لم تكن الظروف مواتية لتراها جيدا.

أقول: لا أذكرها، ممَّ كانت تشكو؟

يظلّ مترددا، ويسود بيننا صمت، ثم يحسم أمره قائلا: لقد كانت حاملا، وقد مات زوجها منذ عام ونصف العام.. كانت في مشكلة حقيقية.

أتذكرها فجأة، أتذكر نظراتها المتوسلة حتى أجد لها حلّا، توقها

الدواء يساعدها على النزيف وتفريغ بطنها من ثمرة الخطأ، أقول: ما اسمها؟

يقول في استسلام: جليلة.

لا حاجة لمزيد من المعلومات، أتذكر أنني رأيته وهو يتابعها عن بُعد، وأنني سألتها إن كانت تستطيع الزواج من الرجل الذي مارست معه نزوتها وقالت إنه مستحيل، أنظر إليه متمعنا، أقول: كان أنت.. أليس كذلك؟

يخفض رأسه: أنا على استعداد لفعل أي شيء من أجلها، عرضت عليها أن أعلن إسلامي، ولكن هذا كان عبثا، لا عائلتها كانت ستوافق عليَّ ولا بقية البلدة.

كنت مغتاظا منها ومنه ومن الجميع: وهكذا تركتها لمصيرها.

يهتزّ جسده وهو يبكي ويهتف بي متوسلا: اذهبْ إليها أرجوك، إنها عاجزة عن السير ولا تستطيع المجيء إلى الوحدة.

أقول حائرا وقد هزتني دموعه: كيف أذهب وأنا لا أعرف بيتها، وأنت لن تستطيع أن تقودني إليه؟

يقول في سرعة، ومن الواضح أنه أعد الجواب سلفا: أليست فرح الممرضة هنا؟ يكفي أن تسألها عن العنوان وستدلك عليه.

ينصرف مسرعا، يدير وجهه حتى لا يلمح دسوقي دموعه، أبقى وحدي مرتديا المعطف الجديد، هذا الشابّ «الحليوة» الخيَّاط يعيش مأساته الخاصَّة، محكوما عليه بالوحدة، يضع بذرته في بطن غريب يمكن أن يتسبب في قتله وقتلها لو انكتشف الأمر، لا تفارقني صورته

وأنا أصعد إلى السكن وأستلقي على فراشي، كان من الممكن أن أخلع المعطف وأنسى أمره، ولكن في الصباح كان الأمر يشغلني، تحضر فرح مبكرة ولكنها متباعدة، لا تدري إن كنت أريدها في غرفة الكشف أم لا، لا أتصور وجودي مع واحدة من الممرضتَيْن الأخريَيْن، أشير لها أن تكون بجانبي، وأظفر بابتسامة صغيرة منها، وبعد الكشف على عدة مرضى أجد الفرصة لأقول لها: بعد العيادة سوف تأخذينني لزيارة مريضة داخل البلدة؛ السيدة جليلة.

تنظر نحوي مندهشة: أي جليلة تعني؟ زوجة التاجر المنصوري الذي مات؟

أقول: لا أعرف اسم زوجها ولكنها فعلا أرملة، وقد جاءت للعيادة مرة قبل الآن.

تقول: كيف عرفت أنها مريضة؟

أقول باختصار: بعثت مرسالا.

ننشغل بفحص المرضى، لم تكن العيادة مزدحمة، ننتهي في وقتٍ معقول، أعدّ حقيبة الأدوية ويتطلع دسوقي نحويَ في فضول وتوقع أن يصحبنا، ولكني أطلب منه البقاء في الوحدة، سنمضي وحدنا أنا وفرح. نخرج من الوحدة وتبدأ في إرشادي للطريق، تقول: بيتها بعيد بعض الشيء، وهو أضخم من بقية بيوت القرية، واحد من البيوت القلائل المبنية بالطوب الأحمر.

نواصل السير، تحدق فينا العيون كما هو متوقع ولكن لا أحد يتكلم، عندما يضيق الطريق ونصبح أكثر قربا من بعضنا، أجد نفسي أسألها فجأة: أين زوجك؟

يصيبها الارتباك للحظات وتظهر الحمرة في وجهها: في مكان ما هنا، ربما يرانا الآن ولكنه لا يتدخل في عملي.

أشعر أنني أكثر عدوانية: هل عندك أطفال؟

تهزّ رأسها بالنفي. أعود للسؤال: عندما رأيتك لم أتصور أنك متزوجة، تبدين صغيرة عن ذلك، كم مضى على زواجك؟

تصمت قليلا قبل أن تقول: عامان. إنه ابن عمي. نحن نتزوج صغارا ونكبر معا.

أقول ببعض السخرية: ألا يحدث طلاق؟

تقول: يحدث موت.

يتسع الطريق أمامنا فنضطرّ للتباعد، نعبر فوق مصرف متسخ للمياه وتنتهي فجأة البيوت الطينية المتلاصقة، وتظهر بيوت مبنية بالطوب الأحمر متفرقة بين الزرع، نلاحظ أن هناك رجالا متفرّقين على طول الطريق، يرتدون ملابس داكنة ويضعون حول رءوسهم لفعات سوداء تكاد تخفي وجوههم، يراقبون مرورنا دون أن يتحرَّك أحد، تلاحظهم فرح تقول لي في صوت خافت: إنهم يشعرونني بالخوف، عيونهم ممتلئة بالشرّ.

لا تقول لي من هم، ربما كانت خائفة من أن يسمعونا، ولكننا نواصل السير حتى نصل للبيت الأول، تدقّ دون أن يجيب أحد، أتقدَّم أنا وأطرقه بشكل أقوى، لا استجابة أيضا، تنظر إليَّ: هل نعود؟

أقول: إنها في انتظارنا.. هل هي وحيدة؟ ألا يوجد خدم في المنزل؟

لا أدري ماذا طرأ على بالي ولكني دفعت الباب فأطاعني وانفتح على مصراعيْه، قلت لفرح: ربما تركته مفتوحا من أجلنا.

أطلب منها الدخول ولكنها تتردد، أدفعها برفق إلى الداخل، تقف في فناء المنزل وهي تصيح باسم جليلة، تنادي بصوت خافت ومتردد ثم يعلو صوتها، ويرنّ صداها في جنبات المنزل، أرى لمحة من داخل البيت الفاخر الأثاث، ملامح الثراء والعيش المرتاح، تدور فرح حول نفسها وأخيرا تشير لي أن أتقدَّم. عندما ألحق بها نسمع معا أنينا واهنا قادما من داخل إحدى الغرف كأنه ينبهنا إلى مكان وجوده. تواصل فرح تقدُّمَها وتزيح باب الغرفة، أتقدَّم في العتمة، يعلو صوت الأنين. رائحة ثقيلة، هواء عطن، مفعم برائحة المرض والعرق والطعام الفاسد، غرفة خالية من أي أثاث إلا من حَشِيَّة ملقاة على الأرض، فوقها ترقد كتلة سوداء تتأوه، ترتكز فرح على ركبتيْها بجانبها، تزيح بقايا الأطعمة المتناثرة حولها، ترفع الملاءة السوداء فيظهر وجه السيدة جليلة كما لم أرها من قبل، باهت الصفرة ومكسوّا بالعرق، تلتقط أنفاسها بصعوبة وتنظر نحونا بعينيْن جامدتيْن لا تريان، تضع فرح يدها على جبهتها وتهتف في خوف: إنها محمومة، أجلس بجانبها أقيس نبضها السريع وأسمع وجيب قلبها المتسارع، أهتف في فرح: يجب أن نخفض الحرارة فورا.

كممرضة محترفة تدري فرح ماذا ينبغي عليها أن تفعل، تسرع بإحضار الماء البارد، تغسل وجهها وأطرافها وتُعِدّ الكمادات اللازمة، وأسرعت أنا بحقنها بمخفضات الحرارة، ضغطها كان منخفضا، وقلبها كان ضعيفا، كأنها ذاهبة إلى صدمة تودي بها،

لا أدري كيف تدهورت إلى هذا الوضع. كيف يمكن أن تترك هذا المنزل الواسع لتنزوي في هذا الركن الصغير الخانق؟ هروب هذا، أم بحث عن الحماية؟ ولماذا هي وحيدة إلى هذه الدرجة؟ هل فعلتها وقامت بعملية الإجهاض؟ وهل هذه أعراض حمى النفاس؟ كانت في حاجة لأقراص «السلفا» التي لم أحضر منها شيئا، أعيد في ذهني الحوار الذي دار بيننا في العيادة، تتداخل مع كلمات أبانوب وكيف أنها ارتكبت شيئا خطرا، لابدَّ أنها عرفت مكان السيدة العجوز وذهبت لزيارتها، أفحص الحَشِيَّة التي تستلقي عليها، رطبة، مليئة بالبقع الدامية وتفوح منها رائحة زنخة، لابدَّ أنها اختارت الرقود على هذه الحَشِيَّة المنعزلة حتى تستطيع التخلص منها فيما بعد، أقول لفرح: أريد أن أفحص منطقة الرحم.

تشهق في خوف: ماذا؟ يجب أن تأذن لنا أولا. أنت تعرف أنها منطقة خاصة.

أقول لها: أعرف. أنا أدرى بحالتها، وأعرف ممَّ تعاني، لابدَّ أن أعرف إن كانت تعاني من نزيف داخلي أم لا.

تتردد قائلة: ألا يمكن أن ننتظر حتى تفيق؟

أقول لها: يمكن أن ننتظر، ولكن من الممكن أن تموت أيضا قبل أن تفيق.

تظلّ تحدق فيَّ، لا أريد أن أمدَّ يدي وأزيح ملابسها بنفسي، عليها أن تشاركني في ذلك، تغمض عينيْها كأنها تُعيد تقييم الموقف، تفتح عينيْها وتمدّ أصابعها وتزيح الملاءة إلى أسفل، يبدو ثوب القطيفة الأزرق، مكرمشا وملتصقا وعليه بقع داكنة. أشير

لفرح دون أن أتكلم، تُزيح الثوب ببطء وتردد، تكشف عن ساقيْها ثم تواصل رفع الثوب إلى أعلى، لم تكن ترتدي ملابس داخلية، ولكن أعضاءها لم تكن ظاهرة، كانت المنطقة كلها مغطاة ببقعة كبيرة من الدم المتجلط، تشهق فرح وهي تقول: يا ربي، ما كل هذا النزيف؟ وكيف عرفت أن هناك شيئا مثل هذا؟

أقول لها: يجب أن ننظفها جيدا، ربما مازال النزيف مستمرّا.

تنهض فرح، كانت قد تجرأت على الحركة بعد أن أدركت خلو البيت، تعود وهي تحمل «طستا» به ماء وبعض المناشف، ببطء نبدأ معا في إزالة الجلطات المتراكمة؛ كنا منكفئين عليها، ننظف هذه المنطقة كأننا نهيئ منفذا تدخل منه الحياة إلى جسدها. واضح أنها عثرت على السيدة العجوز التي تنقذ نساء القرى من مشاكلهن وتحفظ أسرارهن، ولكن من الواضح أيضا أن العجوز لم تكن رفيقة بها، يظهر بياض أعلى الساقيْن، ثم يظهر شعر العانة، مشذبا ومعتنى به. نواصل إزالة الجلطات حتى تظهر فتحة المهبل واضحة؛ منتفخة ومحتقنة ومليئة بالدم المتجمد، كان هناك نزيف، ولكن هل توقف، أم لا؟ أنظر إلى فرح متسائلا ولكنها كانت ما تزال مفزوعة، تتحرَّك بشكل آلي وكأنها لا تعي ما تفعل، حين تراني أحدق في فتحة المهبل تمسك بذراعي كأنها تحذرني، مصفرة الوجه، تقول: فلنتركْها، جسدها معطوب وربما تدعي علينا بتهمة.

أخلّص ذراعي منها وأفرد كفي وأضعه على بطن السيدة العاري وأضغطها لأسفل؛ أضغط بقوة، وأراقب فتحة المهبل، لا شيء يخرج منها، أتنهد في ارتياح، توقف النزيف، الخطر الأساسي، أسمع صوتها الواهن وهو يقول: ماذا تفعل بي؟

تتراجع فرح في فزع حتى تلتصق بالحائط، أنظر إلى وجه المرأة، ،ونها تحملق بي، مفزوعة وعاجزة عن الحركة، أسرع بتغطيتها ـ ي أخفف من خجلها تقول: هل تريد اغتصابي؟ أهزّ رأسي رافضا ،ا،ا أبتسم لها مطمئنا، تنظر إليَّ وهي تحاول أن تستكمل وعيها، ،ول: أنت الطبيب، هو الذي أرسلك، أليس كذلك؟

أقول: حالتك خطرة؛ نزفتِ كثيرا ولابدَّ أنكِ تعانين من تلوث ي الرحم، لابدَّ من نقلك إلى المستشفى.

تقول في ضعف: وماذا يمكن أن أفعل؟ أنت تعرف أنني لا أقدر، إنه المقدر والمكتوب.

تصمت قليلا حتى تستردَّ أنفاسها، تقول: أهل زوجي يراقبونني، لو شكوا فيما حدث يمكن أن يقتلوني.

أقول دون أن أتمالك نفسي: لماذا يتعاملون معكِ بهذا العنف؟ ولماذا تخافين منهم إلى هذه الدرجة؟

تقول: منذ أن مات زوجي وهم يريدون أن يستولوا على منزلي ومالي، يعتقدون أن ميراثي هو حقهم الطبيعي؛ لذلك ينتظرون غلطة.. ينتظرون سقوطي.

تصمت مجهدة، تدير رأسها بوهن وتتأمل المكان من حولها؛ ربما لتتأكد أنه لا أحد غيري، ولكنها تصرخ في فزع حين تكتشف وجود فرح في ركن الغرفة، تحاول النهوض ولكنها ترتدّ خائرة، تنظر إليَّ وكأني قمت بخديعتها، أقول لها: اطمئني.. إنها مساعدتي؛ ممرضة الوحدة.

لا يزول رعبها، تقول: ولكنها من أهل البلد، ستفضحني.

تحبو فرح على الأرض مقتربة من المرأة وهي تقول: لن أقول كلمة واحدة، عملي أن أصون أسرار كل المرضى.

لا تطمئن، أقول لها: المهمّ أنكِ مريضة، علاجكِ فوق إمكاناتي، أنتِ في حاجة لنقل دم ومحاليل، كما أناكِ في حاجة لرعاية ليلا ونهارا.

تتمتم في وهن: سيقتلونني.

تُغمض عينيْها طويلا، في كل مرَّة أقف عاجزا أمام هذه السيدة، حياتها معلقة بخيط دقيق ولا أستطيع أن أحافظ عليه وهي تقاوم، أخوفها منهم أكبر من رغبتها في الحياة؟ لا جدوى من النقاش معها، ربما تموت قبل أن أستطيع إقناعها، أنهض واقفا، مستعدّا للانصراف، قلت لها آخر ما عندي، ولكنها تمدّ يدها في حركة مفاجئة وتمسك بيد فرح، تصيح في توسّل: أرجوكِ.. لا تتركيني.

تنظر فرح نحوي حائرة، كانت السيدة تقحمنا في حياتها الشخصية، تجعلنا جزءا من المأساة التي صنعتها، أقول للسيدة: هذا مستحيل، هذه موظفة حكومة لا تعمل في البيوت.

تلهث وتلتقط أنفاسها: ألا ترى أنني أموت؟ أنا مهددة بالقتل.

تميل برأسها للناحية الأخرى وتُغمض عينيْها، أعرف أن حرارتها قد انخفضت، أقيس نبضها وحركة قلبها، ابتعد خطر الغيبوبة قليلا، كل شيء طبيعي بشكل واهن، تتطلع فرح نحوي، تقول بصوت خافت: هل سننصرف؟

اقول: لابدَّ من ذلك، بقينا هنا أكثر مما ينبغي.

اجمع أدواتي، وترتِّب هي علبة الغيارات، نسمع صوت أنفاس
.. وهي تتردد في هدوء، نسير ببطء خارجيْن من الغرفة، نعبر
. ل الخالي الذي أصبح معتما، أشبه بمقبرة شاسعة، ترصدها
رائحة الموت من مكان ما، قبل أن نصل للباب الخارجي تستوقفني
، وتقول فجأة: سوف آتي إليها، سأعطيها الدواء، ويمكن أن أعد
لها بعض الطعام.

أقول لها: لستِ مطالبة بذلك، هي التي ترفض الذهاب
المستشفى.

تقول: إنها ليست حيوانا، إنها روح من خلق الله وعلينا مساعدتها
على مواصلة الحياة.

أمدّ يدي وأضع إصبعا على وجنتها، أحسّ بنوع مفاجئ من
الامتنان لها، كان الموقف قاسيا ومحيرا ولكنها بعفوية قامت
بالخطوة الصحيحة، تُمسك بإصبعي وتُزيحه برفق، ولكن يبقى
ملمس بشرتها معي، نغادر البيت الغريب، عند المصرف القديم
نبتعد قليلا وهي تقول: سأذهب إلى البيت من هنا، لا داعي لأن
يرانا أهل البلدة ونحن عائدان معًا.

تبتعد مسرعة وهي تحتضن علبة الغيارات، تعبر الجسر الموجود
وتختفي بين تلافيف البيوت.

عندما أصل للوحدة أجد أبانوب واقفا على مبعدة في انتظاري،
يقترب مني مسرعا، أشير إليه أن يتبعني إلى غرفة الكشف، يتأملنا
دسوقي وهو على وشك الموت من شدة الفضول، أغلق الباب

جيداً وأنظر إلى وجه أبانوب المفزوع؛ وجه عاشق يائس، لا يملك ما يدافع به عن حبِّه، أقول في همس: دعنا لا نذكر اسمها أبدا.

يهزّ رأسه موافقا، أقول: كما قلت لها، وضعها الصحي خطير جدّا، إنها في حاجة لنقل دسوقيم ومحاليل، ويجب أن تنتقل إلى المستشفى.. يوشك أن ينفجر باكيا، يقول: عرضت عليها أن أستأجر عربة تحملها ليلا للمدينة، ولكنها رفضت.

أقول: حتى نقلها بسيارة عادية يمكن أن يعاود النزيف، ويمكن أن يقتلها.

يقول: وماذا نفعل؟

ليس أمامنا غير انتظار معجزة، هذا هو الحال في مصر عندما يتعلق الأمر بالموت. أكتب له قائمة بالأدوية التي تحتاج إليها؛ سلفا ومضادَّات حيوية ومقويات وأمزجة من الفيتامينات، أقول له: هذه الأدوية لا أملكها، عليك أن تسافر للمدينة وتحضرها سريعا؛ ربما نستطيع إنقاذ شيء منها، وسأجد طريقة لتوصيلها إليها.

يقول فجأة: هل أستطيع أن أذهب وأراها؟

أقول: بالطبع.. إذا كنت تفكر في الانتحار.

يمدّ يده في جيبه، يُخرج عدة أوراق مالية، يقول: لا أدري كيف أشكرك.

أقول له: وفرها لشراء الدواء، أريده سريعا.

ينصرف وهو يعدو لموقف الأتوبيس.

في اليوم التالي عندما أهبط إلى غرفة الكشف، أجد كيسا يحتوي على الأدوية التي طلبتها، يقول دسوقي: لقد أحضر الخيَّاط هذه الأدوية مبكرا، ماذا يحدث؟ لماذا تكلفه بالشراء ولا تكلفني أنا؟

لا أردّ عليه، ولكن اعتراضه يجعلني أدرك أن سر السيدة مازال مصونا. تأتي فرح متأخرة بعض الشيء، تلهث ووجهها محتقن، أتحدث معها في نهاية غرفة الكشف، تقول في صوت خافت: إنها مازالت على قيد الحياة. حرارتها مرتفعة؛ لذلك أعطيتها حقنة أخرى.

أسألها: هل نزفت من جديد؟

تقول: لا أعتقد. لم أتأكد، ولكنها واهنة جدًا ولم تأكل شيئا.

أعطيها كيس الأدوية، أقول إنني سأكتب لها كيف تستخدم كل دواء.

تقول: سأفعل، ولكن عليك أن تعرف أن البيت مراقب؛ هناك رجال يراقبون دخولي وخروجي.

أحسست بذلك في زيارتي الأولى، يزداد شعوري بالقلق، ولكن لا يمكن التخلي عنها الآن، أخبر «فرح» بأن تحمل الدواء وتذهب إليها وسأقوم بالعيادة وحدي. أتحدث مع فرح تحت عيونهم وإن كنا بعيدا عن آذانهم، كأننا ننسج خيوط تآمرنا الصغير. أتجاهل صدمة معرفتي بزواجها وأكتفي بالجانب «الجدع» فيها؛ استعدادها للخدمة والتفاني فيها، أراقبها وهي تأخذ كيس الأدوية وتسير خارج الوحدة. تحت أنظار الذين يراقبون هذا البيت النائي، تُعالج امرأة مجهضة نفساء وعرضة للموت في أي لحظة، لكنها لا تناقش كثيرا،

تقوم بما عليها بدافع من حسّ العطاء الذي بداخلها، تقترب عطيات مني وتسأل غاضبة: أين تتركها تذهب؟

أمسك نفسي من الانفجار في وجهها، أقول لها: ليس هذا شأنكِ، ويمكنك أن تبعثي بشكوى للمديرية إذا أردتِ.

تبتعد متبرمة، أواصل العيادة وحدي، حتى دسوقي ينظر إليَّ في حيرة، ألمح وجه أبانوب خارج الوحدة، يظهر ويختفي خلف وجوه المرضى، أشير له أن كل شيء على ما يُرام.

حالة التوتر مستمرّة، أريد أن أذهب لألقي عليها نظرة أخرى، ولكن لا أريد أن ألفت الأنظار إلى حالتها، أكتفي بالتقارير التي تخبرني بها فرح كل صباح، يستجيب جسمها للمضادَّات الحيوية، وتهبط حرارته، وبعد أيام تستطيع أن تتحرَّك وأن تطلب الطعام. وابتسمت فرح ذات صباح وهي تُخبرني بأنها قد تحمَّمت بنفسها، أزالت كل ما علق بجسمها من إفرازات ودماء متجلطة وبقية آثار المرض، جسمها مازال رخوا ولكنه قادر على المقاومة، وأنها تطلب أن تراني حتى تشكرني بنفسها، لا أريد المجازفة وتعريضها لمزيد من التكهنات ولكني أشعر بأنها في حاجة إلى زيارة جديدة، على الأقل حتى أراها واقفة على قدميْها.

لا أستطيع القيام بالزيارة لأنه كان صباحا غريبا، مليئا بصخب غامض يتناهى إلينا من داخل القرية، ننظر إلى بعضنا البعض في تساؤل، أصوات لا تليق بصباح القرية الهادئ؛ ربما كانت مشاجرة عنيفة لا ندري سببها، لكن مرضى العيادة لا يصبرون، يبدءون في التسلل قبل أن أوقّع عليهم الكشف، أنظر حائرا إلى فرح دون أن

اعرف ما يحدث، لا يستطيع دسوقي التغلب على فضوله، يخطو
خارج الوحدة دون أن يأخذ إذني ويذهب إلى داخل البلدة، يتوقف
كل شيء في العيادة والضجة تقترب منا، ينصرف المرضى تباعا،
أقف أنا عند الباب وتقف فرح بالقرب مني نتطلع للطريق الرئيسي
الخارج من القرية. يهتزّ سعف النخيل وتقطع الطيور دورانها
وتبتعد، ثم يظهر الجميع؛ خليط من البشر أكبر مما كنت أظنّ، كانوا
مختفين في البيوت وربما داخل جحور لا أعلم عنها شيئا، أطفال
حفاة يصيحون ويجمعون الحصى من بين التراب، نساء يصرخن،
شعور بعضهن محلولة، ورجال يجرون للأمام ثم يعودون للخلف،
يمسكون العصي ويحملون الفئوس ويقبضون على الأحجار. تندفع
كتلتهم أكثر حتى يصبحوا في الساحة الموجودة أمام الوحدة دون
أن أفهم شيئا، ثورة؟ تمرد؟ ثم يتضح كل شيء، وسط دوائر البشر
المتدافعين يظهر شخص وهو يركب حمارا، الوحيد الراكب بينما
الآخرون كلهم على أقدامهم، يركبه بالمقلوب، وجهه في مواجهة
ذيل الحمار وظهره في مواجهة رأسه، يُحيطون به ويصرخون فيه
ويضربونه بالعصي أو يقذفونه بالطين والحصى، أستطيع أخيرا
أن أتبيَّن وجه أبانوب الخيَّاط، مهانا ومضروبا ومشجوج الرأس،
بلدة بأكملها تصبّ جامَ غضبها على رأس فرد واحد، تحمِّله كل
أوزارها، يصرخون بأقصى قوتهم: كافر.. كافر.. كأنها المرة الأولى
التي يكتشفون فيها أنه على غير دينهم، أتحرَّك متجها إليه، أريد أن
أتدخل من أجل إنقاذه، ولكن «فرح» تُمسك بذراعي، تهتف بي: لا
تتدخل، إنهم غاضبون ولن يفرِّقوا بينه وبين أي أحد يقف بجانبه.
أقف جامدا، لا أفهم سرَّ هذه الغضبة العارمة، يعود دسوقي وهو
يلهث ويقول في سرعة: لقد ضبطوهما معا!

كأنه يقرِّر إحدى حقائق الكون، أقول: تكلّم بوضوح.. ما سر هذه المعركة؟

يُشير نحو أبانوب: لقد راقبوه وهو يدخل منزل السيدة جلبله واقتحموا المنزل عليهما، يقولون إنه كان يعتدي عليها.

أنظر نحو فرح بينما هياج الناس يزداد، يمدون أيديهم يحاولون جذبه من فوق الحمار، لو نجحوا في ذلك لمزقوه إرْبا، ولكن شخصا غريبا يتدخّل؛ شخصا ضئيل الحجم، لا يرى ما تحت قدميْه، يتعثر ويوشك على السقوط، تهتف فرح: إنه الشيخ عبد البر شيخ الجامع، يقف أمامهم رافعا ذراعيْه إلى أعلى وهو يصيح توقفوا.. إنه ذمي.. من أهل الكتاب.. لم يأبه أحد.

ولكن شابّا ملتحيا، ربما كان هو الذي عالجته من لدغة العقرب، لا أدري من أين جاء يصيح: إنه قبطي داعر، ينتهك حرمة نساء المسلمين.

يزداد هياج الجميع، لا يظهرُ العمدة، لا يظهر أحد من الخفر، ولكن الشيخ عبد البر يتعثر ويسقط ويقوم ويصيح: دعوه يمضِ. دعوه يمضِ.

رغم التحريض والهيجان، ينجح بعض الشباب في سحب الحمار بعيدا إلى الطريق المؤدي لخارج القرية، يضربونه على كَفَلِهِ، يسرع الحمار في السير قليلا، يتخلص من زحامهم وتكتلهم، ينسحب الحمار راكضا ولكن وجه أبانوب مازال متوجها إليهم، يقذفونه بالطين وبالأحجار. لا يكفون عن مطاردته إلا عندما يصل لحدود البلدة ويتوجه ناحية المقابر، يتركونه حتى يبتعد ويغيب عن

...هم جميعا. يقع الشيخ عبد البر على الأرض من شدّة الإجهاد،
..اونه عبر الساحة ويأتون به إليّ وهو عاجز عن التقاط أنفاسه،
...على منضدة الكشف، أطلب منهم جميعا الانصراف. كان
..ان مزدحما أكثر مما ينبغي، أعود للشيخ، كان وجهه مازال
..نا ولكن أنفاسه قد هدأت، أستمع إلى دقات قلبه ونبضه
..سارع، يقول هازئا: هل رأيت ما حدث اليوم من أجل السيدة
...؟ أقول: أجل.

..يهزّ رأسه وهو يقول هامسا: لقد دافعوا عن شرفها أكثر مما هي
...ت!

٥

قبل أن تنقشع شبورة الصباح أقف في الشرفة أراقب مسيرتهم المبكرة إلى الحقول، دائما ما يؤثر فيَّ رغم تكراره اليومي، تتمايل ذؤابات النخيل في نعومة وتنفض الطيور البيضاء الندى من على أجنحتها، ويردد الصدى أصواتا متباعدة؛ ربما خوار بقرة أو نباحا خافتا لكلب، ولكن لا شيء يعكر هذا الصفاء وهذه الوداعة اللذين يصاحبان شروق الشمس. أين ذهبت صيحات التوحُّش التي ارتفعت في اليوم الفائت؟ كيف خفضوا أصواتهم ورءوسهم، وبدَّلوا أقنعتهم بهذه السرعة؟ نزعوا قناع السذاجة ثم قناع التوسّل ثم قناع العنف قبل العودة لقناع الوداعة، هل يمكن أن تكون فرح واحدة منهم، قادرة على تبديل أقنعتها بهذه السهولة؟

عندما أهبط للعيادة أجدها مزدحمة بمرضاهم، تستعيد وجوههم ملامحها القديمة، التي سبق أن عانت والتي مازالت تُلحّ في السؤال. فرح متأخرة ولكني لا أسأل، أبدأ العيادة دون وجودها، ودون أن أطلب المساعدة من الأخريات. مرضى ضعفاء كعادتهم واهنو القوى غير قادرين على الصراخ أو الاعتراض، بعد أن أنتهي من نصف المرضى تأتي لاهثة، كيف جرؤتِ على الذهاب إلى بعد كل ما حدث؟ تقول لي بعد أن يخرج المريض: أردت أن أراها، وأعرف حقيقة ما حدث.

أقول لها: وما الحقيقة؟

أقول: إنها كما هي، تتعافى ببطء، الخطأ الوحيد أنها اتصلت ا..وب، لا أدري كيف، ربما عن طريق إحدى الخدم، وهي التي ،..ت بها بالتأكيد، أرادت فقط أن تراه وتطمئن عليه.

أقول: ماذا فعلوا بها؟

تقول: لا شيء على الإطلاق، ولكنهم أحرقوا محل الخياطة ال ما فيه من أقمشة، ولو كان في داخله لاحترق هو أيضا.

أقول مندهشا: هل تغاضوْا عمَّا حدث؟ هل غفروا لها؟

تقول: هنا لا أحد ينسى، لا أحد يغفر.

أبدأ في صرف الأدوية، أطالع وجوههم من خلف نافذتي، هل كانوا ضمن الجموع الغاضبة، لا أعتقد أن الأدوية تكفيهم، أو ..اهم في شفائهم، كانوا حالة ميئوسا منها، أسمع طرقا قويّا على الباب، يقول دسوقي في سرعة: هناك مندوب من مديرية الصحة يريد أن يقابلك، وهو ينتظرك في غرفة الكشف.

زيارة غريبة، لم أكن قد أخذت إجازة رسمية، هل من أبلغ غيابي من الوحدة؟ أنتهي من صرف بقية التذاكر ثم أذهب إليه؛ رجل متوسط العمر يجلس في انتظاري، والسيارة التي جاء بها كانت شاحنة صغيرة تقف أمام الباب، لا يبدو أنه موظف كبير، يقدّم لي رِزْمة من الأوراق، يطلب مني توقيعها ويعطيني نسخة منها. أتصفحها بسرعة؛ مشروعا جديدا لتجربة دواء يعالج البلهارسيا؛ اللعنة التي استوطنت أرض مصر منذ آلاف السنين ولا تريد أن

ترحل عنها. أسير مع الرجل إلى الشاحنة وخلفنا دسوقي، يـ ـ. ا
علبتيْن كبيرتيْن من القصدير، تحتويان على أقراص دواء البلهارز
الجديد، بجانبهما صندوق خشبي متوسط الحجم، يحمله الر جل
بنفسه ويضعه أمامي على المكتب، يجعلني أوقع رزمة أخرى من
الأوراق، نظرت إلى الصندوق في ريبة: ما هذا؟

يقول بالحماسة نفسها: ميكروسكوب، لا يمكن أن تكتشف
وجود بيضة البلهارسيا من غيره، أنت تعرف ذلك طبعا.

بعد أن ينصرف الجميع أجلس لأتفحَّص الأوراق والنشرات
العلمية التي تركها الرجل خلفه؛ دواء قادما من ألمانيا، فنحن
كالعادة لا نعرف كيف نعالج أنفسنا، جرعة سحرية تؤخذ لمرة
واحدة في الفم ويتخلص المريض من هذا الشقاء، يلفظ جسمه
هذه الدودة الدامية، تنجح فيما فشلت فيه كل أدوية التاريخ، معجزة
نحن في أمسِّ الحاجة إليها، الذي اكتشفها في الأصل كان ألمانيًا
وأعطاها اسمه، والذي سيساعدنا على التخلص منها ألمانيّ آخر،
بين الاثنيْن دفعنا ثمنا باهظا من حرِّ أكبادنا، أصعد السكن ولكني لا
أستطيع النوم، أعيد قراء التعليمات، أهبط للدور الأسفل وأخرج
الميكروسكوب، وأعيد ضبطه وأرتّب الشرائح التي مازالت خالية،
وأقسِّم علب الدواء وعدد الجرعات، وكم مريضا سوف يشفى،
يهدأ فكري قليلا حين أقرِّر أنه يجب أن نبدأ بالأطفال، ننقذ هذا
الجيل الذي لم يأخذ بعد نصيبه من الحياة ولكنه يدفع ميراثها من
دمائه.

أستيقظ مبكرا رغم السهر، أجد نفسي متحمسا، أطلب من
دسوقي أن يستأجر منذ الغد حمارا يكون معنا طوال اليوم، أرسل

خطابا سريعا لناظر المدرسة أخبره فيها بأننا سنأتي لفحص التلاميذ، لم تبالِ الممرضتان الأخريان بحماستي، شاهدتا العديد من الحملات وعرفتا إلى أين يئول الأمر دائما، ولكن «فرح» ظلت تتابعني بعينيْن متسعتيْن، تقترب مني قليلا وتقول بصوت خافت: هل يمكن أن أذهب للمدرسة معك؟

تتطلع إليَّ بوجهها المحمرّ خجلا، ربما تتمنى ألا يكون أحد قد سمعها سواي، لم نكن قد تحدثنا منذ الصباح، أشعر بأنني اعتمدت عليها أكثر مما ينبغي وكان من الممكن أن تتورط في واقعة السيدة جليلة، ولكن ها هي تتقدم من جديد لتقف بجانبي، أتأمل الممرضتيْن، لم أتخيل نفسي أسير بجانب واحدة منهما، لم أملك إلا أن أهزَّ رأسي موافقا.

المدرسة موجودة خارج القرية، في أرض مالحة غير صالحة للزراعة، والطريق إليها طويل بعض الشيء، يمرّ عبر حقول كثيفة من عيدان الذرة؛ أخطر أنواع الزراعات التي يخشاها أهل القرية، فأي قاتل يمكنه أن يكمن لضحيته وسط عيدانه ويقتل ضحيته بدم بارد، ويمكن للنار التي تشتعل فيه أن تمتدَّ لتحرق قرى بكاملها، ولكن رحلتنا تبدأ مع بداية الصباح. دسوقي يقود الحمار في المقدمة، وفي غبيطه الميكروسكوب في ناحية والأشياء الخاصة به، وفي الغبيط من الناحية الأخرى توجد علبتا الدواء الكبيرتان، ثلاثة أقراص كافية لإنقاذ أرواح صغيرة من براثن ديدان البلهارسيا. تسير فرح بجانبي، لا نتلامس حتى بمحض الصدفة، حتى عندما تتعثر ذات لحظة أبتعد عنها، أراقبها وهي تستعيد توازنها، ونواصل السير، تمرق نسائم الصبح بين أوراق الذرة الغليظة فتحدث

غمغمات مبهمة تثير القشعريرة في الجسم، أسمع صوت فرح وهي تتحدَّث، اعتقدت في البداية أنها تُحدِّث نفسها، ولكن عندما أقترب قليلا أسمع صوتها الشبيه بالهمس: إنه ابن عمي، ولم يكن أمامي إلا أن أتزوّجه، كل شيء كان مرتَّبا حتى قبل أن أولد، لم يكن هناك شابّ يجرؤ على التقدّم لي، ولم يكن هو يجازف بالنظر إلى فتاة أخرى، لا شيء يمكن أن يغيِّر الاتفاق المبرم بين العائلتيْن.

تسكت قليلا لتلتقط أنفاسها، أحاول أن أقول شيئا فلا أستطيع، لكنها تبلع ريقها وتواصل الكلام الخافت: لقد توقف عيسى، ولعلك تعرف أن هذا اسمه، عن الذهاب للمدرسة في الإعدادية بينما واصلت أنا الدرس حتى مدرسة التمريض، ولكن هذا لم يغيِّر في الأمر شيئا، وحتى عندما لم يجد وظيفة دائمة وتحوَّل إلى عامل موسمي يكسب رزقه بحسب الظروف، لم يغيِّر هذا أيضا من الأمر شيئا، مازال ابن عمي ومازلت زوجته.

أحسّ أنها على وشك البكاء، أود أن أمسك بيدها ولكن دسوقي والحمار يسيران أمامنا، ويمكن لأي واحد منهما أن يلتفت في أي لحظة، أقول لها: لست مطالبة بشرح أي شيء، نحن نعمل معا لأنك ممرضة غاية في الكفاءة، ولا علاقة لهذا بحياتك العائلية.

تنظر إليَّ في دهشة: لماذا غضبتَ إذن عندما اكتشفتَ أنني متزوجة؟

بحق السماء، ماذا يمكن أن أقول لها؟

يظهر أمامنا سور المدرسة فجأة، كأنه انبثق من اللامكان، يفتح الفراش الباب ليسمح لنا بالدخول ويسرع ليخبر الناظر، يدهشني

ا.. ارى كل هذا العدد من الأطفال؛ أولاد وبنات، يتحركون في
، مة ويصيحون في حماسة، أدرك فجأة أن اختياري كان صائبا؛
«االمدرسة موجودة لتخدم أكثر من قرية، يعبر الأطفال إليها
ا. راعات الخطرة والطرق غير الممهدة والجسور المليئة بالحفر
، الثقوب، يأتون جميعا إلى هذه المدرسة المنعزلة ليتعلموا ومن
منهم أن يتعالجوا وينقذوا لحمهم الطري من النزيف. يقبل الناظر
. رحبا، يحتضنني ويهتف مندهشا: هل ستمنعهم حقًا من التبول
، ما؟ إنه أمر مفزع، في كل يوم ونحن ننظف الحمَّامات نجد الدم
في كل مكان، إنهم لا يتوقفون عن النزيف يا دكتور.

أشير لعلبتي الدواء اللتيْن أحملهما، أقول: معي دواء جديد،
ا. جو أن يكون ناجعا.

يضع يده على كتفي ويسير بي إلى مكتبه، أو هكذا خيِّل إليَّ،
يقول: إنهم أطفال أشقياء، يزوِّغون من المدرسة، ولا يدفعون
المصاريف البسيطة ويمزِّقون الكتب، ومع ذلك أشفق عليهم،
أهلهم فقراء ومساكين، يوقظونهم كل صباح ويدعونهم يسيرون
طويلا على هذه الطرقات الخطرة ليأتوا إلى هنا ليتعلموا شيئا،
، نحن حتى لا نقدِّم لهم وجبة طعام.

مازال يجذبني للصعود معه ولكني استوقفته، أخلّص نفسي منه،
أقول معتذرا: علينا أن نعمل.

يقول معترضا: ألا تريد أن تأخذ واجبك أولا، ولو كوب شاي؟

أقول معتذرا: واجبك قد وصل، علينا أولا أن نوقف نزيف الدم.

تعرف فرح ماذا تفعل جيدا، تعدّ منضدة في حوش المدرسة

وتضع عليها الميكروسكوب وعلبتي الدواء، توقف التلاميذ في صفيْن متتابعيْن، يأخذون الأكواب ويعودون حاملين عينات البول، يعبق المكان كله برائحة اليوريا. آخذ قطرات من كل عينة وأضعها تحت العدسة، للوهلة الأولى يفاجئني مشهد البويضة ذات الشوكة الجانبية، واضحة وحادَّة وصادمة، تتأرجح على خلفية من البول الشاحب، بواسطة هذه الشوكة تغرس البويضة نفسها في أنسجة الجسم الداخلية، تخترق أجساد هؤلاء الأطفال وتجعلها تنزف. أنظر إلى وجه الطفل، يضحك ويحرِّك رأسه في خجل، يخبرني عن نزوله المستمرّ للاستحمام في الترعة، ويستغرب من تحذيراتي له بعدم النزول، يشير إلى بقية أقرانه: كلهم ينزلون. كانت البويضة ذات السن المدبب غائصة في ثنايا أجسادهم جميعا، عينة مرتعدة تحت العدسة، أم أنا الذي أرتجف؟ يتوالى الأطفال وتكبر البويضة أو تصغر قليلا، ولكنها موجودة دائما، آمنة ومستكينة تقوم بعملها المدمِّر على مدى سنوات متصلة. أعطيهم الأدوية، أتمنى أن أكسر هذه الحلقة الجهنمية، ماذا يفعل فريق مكافحة البلهارسيا الذي يعمل معي؟ أين يذهب بالسموم المضادَّة للقواقع التي يخرج بها كل صباح؟ لم أعد بحاجة لمزيد من الفحص، كانت النسبة قد تجاوزت منتصف عدد الأطفال، كلهم مصابون، وكما تقول التعليمات المرفقة: عليَّ أن أعطي الدواء للجميع، وربما يتوجب عليَّ أن أعطيه لحضرة الناظر وبقية المدرسين. كان يوما منهكا ومحبطا، أحسّ برائحة البول تفوح من جسدي، لا أستطيع أن أشرب كوب الشاي الذي أحضره الفرَّاش، وعندما يسألني الناظر: كيف الحال؟ أقول على الفور: أسوأ ممَّا كنت أتوقع. لقد انتهيت من نصف تلاميذ المدرسة، سأحضر غدا لمعالجة النصف الثاني.

انسحب الحمار وننسحب، بقايا جيش مهزوم، أسأل نفسي حائرا:

كيف استطعنا أن نعيش كل هذه السنوات الطويلة ونحن ننزف كل هذا القدر من الدماء؟ نواصل السير عبر ممرّ الذرة، أسمع «فرح» وهي تقول: كل يوم أحلم أن يكون لي ولد يخصني وحدي، ولكن بعدما رأيته اليوم بدأت أشعر بالخوف الشديد.

أقول لها: ليس قدر طفلكِ أن يُصاب بهذا المرض.

تقول: يبدو أن هذا قدرنا جميعا.

تقول في حزن حقيقي: أنا لا أعرف حتى إن كنت قادرة على إنجاب طفل، أم لا.

أمدّ يدي وأمسك بيدها، لا تحاول انتزاعها، تترك أصابعها ترتجف في يدي، كانت في حاجة لمن تتشبث به. أراقب دسوقي وهو يحثّ السير مع الحمار مبتعدا عنّا، نسير ببطء أكثر، أتمنى أن يختفي العالم بأسره، أقول لها: لا تخشيْ شيئا، مازالت الأيام أمامكِ، وأمام الطفل الذي تتمنين إنجابه.

عندما نخرج من ممرّ الذرة يسحب كلٌّ منا يده، نتباعد لمسافة كافية، ولكن دفئها يظل في يدي، أتذكر حبيبتي في أيامنا الأولى، حين كانت كفها لا تغادر كفي، أمان مطلق. في بداية الخلق لم يكن هناك حزن بدرجة كافية ولم يولد الندم إلا عندما حان زمن الخلاص، تنصرف إلى بيتها وزوجها ويذهب دسوقي ليرجع الحمار لصاحبه، ولا يعود. أجلس وحدي في السكن، لا يأتي إليَّ أحد. يهبط الليل ببطء، أتذكر رحلتي إلى القاهرة، لن أعود إليها إلا

بعد زمن طويل، يجب أن أبحث هنا عن سكينة نفسي، ولكن عندما أضع رأسي على الوسادة، أرى خيوط الدم وهي تنثال أمام وجهي وتظل تنثال هكذا طوال الليل.

أستيقظ مبكرا، ورغم ذلك أجد «فرح» في انتظاري، فاتنة في هذا الوقت المبكر، تحيط بها رقائق من ضباب الصباح، كأنها خرجت من عالم شفيف، تقف مستندة إلى الجدار، تراقبني وأنا أواصل الاقتراب منها، أريد أن أتناول جسدها أضمه لجسدي وأحيطه بذراعيَّ، أقف حائرا أمامها، قريبة وغاية في البعد، وجهها مختلف، متعب وقلق، عيناها قانيتان يحيط بهما ظلّ أسود من أثر الأرق، أمدّ أصابعي وألمسها فتغلق عينيْها، تفتح فمها لتتكلم ولكنها تغلقه لتصمت، يفاجئنا صوت الحمار معا، يعلن عن وجوده أمام الوحدة، أبتعد سريعا وتعتدل هي في وقفتها، تتبدد لحظة السحر الطارئة، يتقدم دسوقي من عالم الواقع، يحمل أدوات الفحص وعلب الدواء، نسير خلفه، ندخل إلى الطرقة بين عيدان الذرة في صمت ونحن نرتجف من برد الصباح، أنظر إليها من طرف عيني ولا أجرؤ على سؤالها، أريدها أن تتكلم، أن تلجأ إليَّ، ولكننا نسير متباعديْن قليلا، ويظهر سور المدرسة والتلاميذ في انتظارنا والناظر يقف ممسكا في يده خيزرانة طويلة، بعد أن أقوم بفحص عشرة من التلاميذ، عشرة فقط، أقرِّر أن أعطي العلاج للجميع ولمن يريد من المدرسين. بعد عدة ساعات من العمل يصبح الحوش خاليا، ولكن مدرس أول اللغة العربية الأستاذ «عمر» كما أخبرني بنفسه، يظلّ واقفا معي، يتحدث في أمور عامَّة، يشكو من كل الأمور التي نعاني منها جميعا، لم يأخذ الدواء، ولكنه ينظر إليَّ بجدية، وهو يقول: هل تعتقد أنك ستنجح؟

أقول: أرجو ذلك، كل التجارب التي أجريت على هذا الدواء أثبتت فاعليته.

يقول: المشكلة ليست في الدواء، المشكلة هي نحن كمصريين. طوال تاريخنا ونحن نكرّر الأخطاء نفسها دون هوادة، لا نستفيد من أي تجربة، لا ندير ظهورنا لتجارب الآخرين فقط ولكن لتجاربنا نحن أيضا. هؤلاء الأطفال الذين أخذوا الدواء اليوم، ستُقتل الدودة الغامضة الموجودة في داخلهم، سيشفوْن مؤقتا، ولكنهم سيهبطون الترعة مرة أخرى وستخترق جلودهم دودة جديدة، سينزفون من جديد، وتعاودهم كل الأعراض القاتلة.

أقول: أعرف ذلك، هناك محاولات أخرى لتنظيف الترع التي توجد فيها قواقع البلهارسيا.

يفاجئني وهو يرد عليَّ في سخرية: أعرف كيف تنظفون الترع، خاصة ذلك المدعو «محروس» الذي يعمل تحت إمرتك في الوحدة، هل رأيته وهو يعمل؟ هل فكرت في الخروج معه وهو يطوف على الترع؟

أهزّ رأسي نافيا في بلاهة، لم أفكر لحظة في الخروج لمشاهدة هذا الأمر على الطبيعة. يواصل الأستاذ عمر القول دون أن يتخلى عن سخريته: إنه يستخدم المسحوق القاتل للقواقع بطريقة مبتكرة؛ فهو يبتعد تماما عن الأعشاب البرية التي تعلق بها القواقع، يرشّ كمية ضئيلة منه على سطح الماء، وينتظر حتى يطفو السمك ميتا أو مخدَّرا، ويجمع هذا السمك ليبيعه في السوق وبذلك تنتهي مهمته. هكذا تتمّ مكافحة البلهارسيا، وربما هذا ما يحدث في كل الترع،

هذه هي المكافحة كما يقومون بها منذ عشرات السنين؛ سمك ميت، ربما عليك أن تجرِّبه حتى تعرف طعمه.

أحدق فيه مذهولا عاجزا عن قول أي تبرير، أقول: هل يفعل ذلك حقًا؟

يقول وهو يُدير ظهره ويستعدّ للابتعاد: عليك أن تكتشف ذلك بنفسك.

أحاول التشاغل بجمع معداتي ولكني أكتشف أن دسوقي قد جمعها وانصرف. ألقي نظرة على الأطفال وهم يدورون حولي في شقاوة، أخرج من المدرسة وأنا أشعر بالحيرة، لا يوجد دسوقي ولا الحمار، فقط فرح واقفة في انتظاري، وجهها حزين وفاتن، تتكلم للمرة الأولى منذ الصباح: لم أشأ أن تعود وحدك.

ما هذا اليوم الغريب؟ ولماذا تفاجئني الطريقة التي يتصرَّف بها الآخرون معي؟ نسير بجانب بعضنا، متباعدَيْن ولكن ليس كثيرا، كانت تحدثني فجأة عن السيدة جليلة، عن حزنها لأنها ضيَّعت الهدية الثمينة التي وضعتها الأقدار في بطنها، تقول فجأة: لو حدث هذا الحمل لي فلن أضحي بما في بطني مهما كانت الظروف.

تنتهي الأرض المكشوفة وندخل إلى حقول الذرة، إلى النقطة التي تركتني فيها أقبض على يدها. تعزلنا عيدان الذرة عن العالم، عزلة هشَّة ولكنها حقيقية. في تلك اللحظة، أكتسب نوعا متهورا من الجراءة وأمسك بيدها مرة أخرى وأدير وجهها ناحيتي، أقول لها في تصميم: والآن قولي لي: لماذا هذا الوجه الحزين والعينان الباكيتان؟

تنظر إلى الأمام ثم إلى الخلف، تريد أن تتأكد أنه لا يوجد من يرانا، لا تنزع يدها من يدي ولكنها تقول بصوت متهدِّج: يبدو أنني لن يكون لي ولد أبدا.

أضغط على يدها: لماذا تقولين ذلك؟

تقول: عيسى؛ زوجي، لقد عرفت أنه يتبول دما، لقد أخفى عني هذا الأمر طويلا، حتى الأمس عندما واجهته بالأمر.

أقول: أنتِ الآن تعرفين أن هناك علاجا.

تقول: مضت سنوات طويلة وهو أضعف من أن يستجيب، سيظلّ بطني خاليا.

أجذبها نحوي فجأة، مدفوعا باليأس وبمزيدٍ من التهور، بإشارات غامضة، وبجوعٍ طاغ، نترك الممرَّ الضيق ونصبح فجأة وسط سيقان الذرة، تحفّ بنا الأوراق الخشنة المفلطحة، تهتف بي: بحقِّ الله، توقف؟ لا أتوقف آخذها في أحضاني وأبحث عن شفتيْها، أنتقل منِ خدها إلى طرف أنفها ثم شفتيْها، باردتيْن ومرتعدتيْن، تنزعهما من فمي وتهتف: ستفضحنا معا. أقبلها مرة أخرى حتى لا تصدر صوتا، وحتى تلين شفتاها قليلا، تقاوم ولكن ليس بدرجة تبعد جسمها، أحسّ به دافئا ومرتعدا، تلهث: أرجوك يا دكتور. أنا حقًا خائفة، لا تحتضني، ولا تسترخ، ولكن وجهها يظلّ قريبا مني، وشفتيْها تظلان متاحتيْن دومًا. موقف غريب برمته، لا أحاول أن أزيد من تهوري وأفعل معها الكثير، لم أمسك ثديها ولم أدخل ساقي بين ساقيْها، ولكني أواصل الإمساك بها في ثبات وأواصل تقبيلها وهي تواصل الطلب مني أن أتوقف. يتداعى

جسدها، تصبح غير قادرة على الوقوف على قدميْها، أظلّ ممسكا بها ولكنها أصبحت تلتقط أنفاسها بصعوبة، أخشى أن تفقد وعيها، أساعدها على الاستلقاء على الأرض، أجلس على مقربة منها، أراقب صدرها وهو يعلو وينخفض، ووجهها الذي أصبح شديد الشحوب. أبقى جالسا دون أن أنطق بكلمة واحدة، كل ما أرجوه ألا يمرَّ عابر سبيل ويرانا على هذه الحالة المزرية، أقول متوسلا: انهضي يا فرح، لا أريد أن يرانا أحد هكذا.

ترفع رأسها ولكن لا تنظر إليَّ، تهدأ أنفاسها أخيرا وتعود الحمرة إلى وجنتيْها، تتحامل على نفسها حتى تقف وهي تنفض ثيابها. أحاول أن أساعدها ولكنها تشير لي ألا أفعل، أراقبها وهي تسير مبتعدة، أسير خلفها وبيننا مسافة ممتدَّة، إلى أي حدٍّ هي غاضبة؟ هل ستشكوني إلى زوجها، إلى مديرية الصحة؟ وكيف ستكون علاقة العمل معها بعد هذا؟ هل تسرعت؟ هل كنت عدوانيّا معها؟ هل أفسدت كل شيء؟ أكتشف أنني تحولت فجأة إلى فأر مذعور.

الوحدة خالية تماما، أدخلها متوجسا، لابدَّ أن دسوقي ذهب ليعيد الحمار، ولكن أين هي، وأين الأخريات؟ أصعد إلى السكن، أستلقي وأنا أستعيد طعم شفتيْها، الشيء الإيجابي الذي حدث هذا اليوم، أنها كانت تقاوم، وتتمتم بكلمات الرفض، ولكني دائما كنت أجد شفتيْها. لم تقع شفتاي على خدها أو أذنها أو حتى رقبتها، دائما شفتاها كانتا حاضرتيْن، لم تُدِرْ وجهها بعيدا، لم تحاول أن تتفاداني بما يكفي، لم تبادلني القبل، ولكنها ظلت متاحة، وحتى في النهاية لم تستطع قدماها أن تحملها، تهاوت فقط من فرط الإثارة، لا

أستطيع تصور عاقبة ما حدث، ولكنها خطوة أردت أن أقوم بها من اللحظة الأولى التي رأيتها فيها.

في اليوم التالي أتردد قليلا في النزول، ولكن «فرح» لم تكن موجودة، يقول لي دسوقي إن زوجها قد جاء ليخبرنا بأنها مريضة. أنظر في وجه دسوقي، أحاول أن أستشفّ منه إن كان يعرف شيئا مما حدث بالأمس، لا يبدو عليه شيء، أقول له: إنني أريد أن أقابل «محروس» عامل مكافحة البلهارسيا.

يقول لي: إنه موظف قديم، قديم جدّا، وهو الذي يضع خطّ سيره.

أقول له: قل له أن يتكرّم ويشملني في هذا الخطّ.

أنشغل مع المرضى بذهن مشغول، أتوقع أن تظهر فرح في أي لحظة، تبتسم لي أو تتشاجر معي، كل ما تفعله مقبول، كنت واثقا بشكل أو بآخر أن زوجها لن يظهر ولن يجرؤ على معاتبتي، التصرف الصحيح هو أن يكمن لي وسط الذرة، ويرديني بطلقة بدائية، ولكن هذا لا يليق به، آخره أن يأتي ويطلب لها إجازة، لن تخبره، ولكن كيف سيواجه كلٌّ الآخر؟ يبدو أنها تفضل التأجيل. أنتهي من العيادة دون أن تظهر، أصعد للسكن وأظلّ أبحث حتى أجد محطة لبنانية بعيدة تذيع بيانا عن تقاتل الفصائل المسلحة تتخللها أغاني فيروز، ثم يقبل المساء. أجمل لحظات النهار حين تستكين كل المخلوقات، وينتهي يوم من أيام الله دون مشاكل، ولكن هناك طرْقا على الباب، يظهر دسوقي ويقول: لقد جاء محروس لمقابلتك. فكرت في غيظ: لماذا لم يأتِ في الصباح؟

ولكني أكتشف مدى حصافته؛ لقد أدرك أن هناك مشكلة وفضَّل أن يأتي بعد أن ينصرف الجميع. أخبر دسوقي بأنني سأنزل إليه، أغيِّر ملابسي وأنا أرتِّب في ذهني الكلمات التي سأقولها حتى لا أنفجر في وجهه، أهبط إليهما ولكني أجد الوحدة خالية، أجدهما في الخارج؛ في الفناء مقابل الوحدة، جالسيْن على الأرض وأمامهما نار مشتعلة. أخرج إليهما، يوسِّعان لي مكانا على الغطاء المفرود على الأرض، هناك «كوز» الشاي مكسو بالسناج، ضاعت الجلسة الرسمية ولم يعد هناك مجال للمحاسبة. كان العجوز أكثر ذكاء مما توقعت. يضع دسوقي السكر في الأكواب الثلاثة استعدادا للدور الأول من صبِّ الشاي، أجلس في مواجهة محروس، أتأمل ملامح وجهه العجوز وألسنة اللهب تنعكس عليها، وأفكر أنه تجاوز سن التقاعد من سنوات، أقول له: هناك شكوى ضدّك؟

يمدّ يده إلى صُرَّة بجانبه، يخرج منها كوز ذرة تغطيه الأوراق الخضراء، يبدأ في نزعها ليكشف عن حبات الذرة الناصعة، يضعها على النار، ويحرِّك الجذوات المشتعلة حولها، يقول أخيرا وبلامبالاة: تقصد هذا الكلام حول استعمال سم القواقع لاصطياد السمك؟ أنت ترى أنه كلام فارغ، لا أحد يأكل السمك المسمَّم.

أقول: ولكن هذا لا ينفي صحة الشكوى. كنت في المدرسة بالأمس وأول أمس، واكتشفت أن كل التلاميذ، كلهم مصابون بالبلهارسيا.

يقول في سخرية خفيفة: وهل كنت تتوقع أن أقوم وحدي، مع حفنة من البودرة الصفراء بمكافحة هذا المرض المتوطن؟ كل هذه الشطآن الممتدَّة من الترع والمصارف في حاجة إلى جيش حقيقي

ا، من حرس الحدود، وليس إلى عامل عجوز مثلي. أنت تتحدث
م، مشكلة عمرها مئات السنين.

أقول: على الأقل كان يجب أن تقوم بواجبك.

يقول: أرجوك يا دكتور، لا تحدثني عن الواجب، أنا أعجز منك،
، اكتشفت فساد كل شيء منذ وقت مبكر. ربما لا تعرف أن هذه
ال، حدة قد بنيت من أجلي؛ بعد أن أرسلت شكوى للرئيس عبد الناصر
، استجاب لها. كل البلاد حولنا أكبر منا، وأقرب للطريق، وبعضها فيه
،محطة شرطة ولكن لا يوجد بها وحدة صحية مثلنا.

أستعدّ لمجادلته، وإرغامه على الاستماع إليَّ، ولكنه يضع كوزا
، ر من الذرة على النار. يقوم دسوقي بصبِّ الشاي للدور الثاني،
يناولني أحد الأكواب، أسأل في استغراب: حتى الآن لا أصدق هذا
الأمر، كيف يمكن أن تكون هناك صداقة بين رجل مثلك في تلك
البلدة النائية وبين الرجل الذي كان يحكم مصر حكما مطلقا؟

ينظر إلى ألسنة اللهب، يسحب نَفَسا ويعود للوراء، يبدو وكأنه
يغوص في زمن بعيد، يقول: لم أعرفه إلا عندما عبرنا رمل سيناء في
طريقنا إلى المجدل في فلسطين. بالطبع كنت أعرفه من قبلها، كنت
جندي مراسلة لا يأبه به أحد، وكنت أخاف من الاقتراب منه، كانت
له نظرة نافذة تثير الرعب وملامحه صارمة، كان صعيديًا مثلي. كلَّا..
كان أكثر مني في التزمت والصرامة، كان جريحا أصيب في رأسه من
معركة سابقة، ولكنه أصرَّ على أن يعود للحرب من جديد. التحق
بالكتيبة التي أتتها الأوامر بالذهاب إلى فلسطين، وكنت واحدا من
أرتال الجنود الذين لم تكن لديهم أي فكرة عن الحرب، لم أجرؤ

على الاقتراب منه إلا بعد أن أصبحنا في العريش، اكتشفنا لحظتها أنه لا توجد مركبات تنقلنا إلى رفح حيث تبدأ حدود فلسطين. تلك الأخطاء البسيطة التي نرتكبها في كل حرب، ولا نقيم لها وزنا بعد كل هزيمة، نرتكب الخطأ ثم نمضي قدما. في هذه الحرب ربما كان علينا أن نتراجع، ولكننا كنا نرى قوافل الفلسطينيين المطرودين من بيوتهم التي عاشوا فيها آلاف السنين؛ الأطفال والأرامل والشيوخ العجائز، كنا نريد أن نذهب للحرب من أجلهم، كانوا مستضعفين ومنكسرين لدرجة لا تحتمل.

تأخذني الحكاية بسياقها، أشرب الشاي وآكل الذرة المشوية، أقول: هل كان عبد الناصر هو قائد هذه الكتيبة؟

يقول: كان ومازال يوزباشيًا، ولكنه «أركان حرب» الكتيبة. المفروض أن يمرَّ كل شيء من خلاله، من أول السلاح حتى الطعام، كان القائد هو اللواء سيد طه، كان ضابطا نوبيًا مجدعا، هو الفهد الأسود كما كانوا يُطلقون عليه، وقد استطاع الاتفاق مع شركة رحلات فلسطينية تملك عدة أتوبيسات حتى تنقلنا للجبهة.

أفتح فمي من الدهشة وأنا أقول: ذهبتم للحرب في أتوبيسات للرحلات؟

يقول ضاحكا: هذا ما كان، وهذا سبب تعرفي إلى عبد الناصر. جلس في المقعد الذي أمامي وهو يقول كما تقول أنت: أي حرب هذه؟ عند القناة نخرج بموافقة الإنجليز، وعلى الحدود لا نجد سوى أتوبيسات الرحلات، وعندما نظر خلفه لم يجد سواي. كان يعتقد أن هناك ضباطا يجلسون خلفه فلم يجد إلا جنديًا بسيطا هو

أنا.. ضحك بصوت عالٍ ولم يغادر مكانه، قال لي: ستكون معي منذ الآن، ستكون جندي المراسلة التابع لي، ولكن عليك ألا تردد اي كلمة أقولها أمام أحد، وقد كان. أصبحت معه بعد أن وصلنا إلى الفالوجة وظللت معه في أيام الجوع والحصار.

أقول: هل دام حصاركم طويلا؟

يقول: خمسة أشهر كاملة. والحقيقة أن الحصار بدأ منذ اللحظة الأولى التي وصلنا فيها إلى فلسطين؛ فقد أطلقوا النار علينا ونحن على أبواب غزة، ولكننا استطعنا الدخول واحتللنا الفالوجة، وهو موقع يقسِّم فلسطين إلى نصفيْن، لو استطعنا التمسّكَ به لكسبنا الحرب ولكننا كنا أضعف من ذلك. رغم ضعف أسلحتنا وقلة الذخيرة عندنا صددنا أكثر من هجوم، لقد عشت معه أيام الجوع الطويلة، لم تعد تأتي إلينا إمدادات. كنا نهبط القرى القريبة طوال اليوم بحثا عن طعام ولا نعود إلا بعدة حفنات من القمح. ثلث الجيش المصري كان محاصرا وجائعا، تحاصرنا عصابات كنا نعتقد أنها لا تفهم شيئا عن الحرب. اكتشفنا فيما بعد أن معظمهم شارك في الحرب في أوروبا وجاءوا إلينا مستعدين، استغلوا خطأ اندفاعنا إلى قلب فلسطين دون أن نؤمِّن خطوط مواصلاتنا، وقطعوا عنا كلَّ الإمدادات، حتى الطائرات التى كانت تحاول الوصول إلينا أسقطوها أو أرغموها على أن تلقي هذه الإمدادات في البحر. تشاركت أنا وعبد الناصر في طبق واحد من «البليلة»، كنت أريد أن أتركه له وحده ولكنه أصرَّ على أن أشاركه فيه وهو يقول: أنت الذي أحضرت القمح، كيف آكله وحدي؟ منذ ذلك الوقت واليهود يحاصروننا، في كل المعارك التي خضناها ضدّهم كانوا يواصلون

حصارنا، مازالوا عدة عصابات، وما زلنا على الدرجة نفسها من الجهل والعشوائية، والقابلية للهزيمة، وحتى بعد أن انتهت الحرب وأصبح عبد الناصر رئيسا، كتبت إليه أطلب وظيفة، لم يُعطني إلا هذا العمل، رغم أننا شهدنا الموت معا، وخسرنا الحرب معا، ولكنه فاز بكل شيء، وظللت أنا أتجوَّل على حافة الترع، مطالبا بأكثر مما أطيق، ومتهما بالتقصير واصطياد السمك المسمَّم، هل هناك شيء آخر تريد أن تعرفه؟

أقول بصوت مختنق: كلَّا.

كان الشاي قد فار، وكيزان الذرة قد احترقت، ودسوقي يسمع ساهما، من الواضح أنها المرة الأولى التي يسمع فيها هذه الحكاية، ومن بعيد تناهى عواء الذئاب يتبعه نباح الكلاب في تواصل محموم.

في اليوم التالي كان المرضى يواصلون التكاثر وأنا لم أبدأ العيادة بعدُ، ربما كنت أنتظر «فرح» دون أن أدري، لكنها لم تظهر، دسوقي هو الذي ظهر كما تعوَّد دائما، أقول له فجأة: هذا الرجل محروس، عجوز وواهن القوى، لِمَ لا يحال إلى التقاعد؟

يقول بإيجاز: أطباء كثيرون قبلك حاولوا ذلك، أو حتى نقله أو التحقيق معه، ولكنهم فشلوا في ذلك؛ ففي الإدارة ما إن يفتحون ملفه حتى يجدوا القرار الجمهوري وعليه إمضاء الرئيس عبد الناصر، هذا كفيل بإنهاء أي شيء، حتى المعاش، لم يجرؤ أحد على إحالته إلى التقاعد.

أحاول أن أعاود الكشف على المرضى، ثم لا أستطيع أن أقاوم فضولي، أسأل فجأة: وماذا عن فرح؟

يقول مندهشا: ماذا عنها؟ لم أرها منذ الأمس، لابدَّ أنها أصيبت بعدوى البلهارسيا.

أقول: ألم تتحدث معها؟

يقول: كيف أحدثها وأنا لم أرها؟

ابتسمت بخفوت، حتى الآن لم يحدث شيء، أقول له: أدخل المريض الأول.

أغرق في تفاصيل المرضى وأعراضهم وقد تطورت وأصبحت صعبة العلاج، تتقدَّم واحدة من الممرضتيْن لتساعدني، لا أعرف من هي على وجه التحديد، لا أنظر إلى وجهها، لا أقول لها جملة واحدة، أفتقد وجود فرح بجانبي، ليتني لم أتهور معها، تنتهي العيادة وأنتهي من توزيع الدواء، يقبلون أدويتي البسيطة في امتنان، الموت لا يقدر علينا، نتكاثر رغم عوامل الإفناء المحيطة بنا، ينصرف الجميع ولا يبقى إلا دسوقي، دائما هو موجود، نجلس خارج باب الوحدة. السماء صافية دون سحب، والشمس دافئة دون فرح، لا أعرف ماذا أنتظر، ولكني لا أريد أن أصعد إلى غرفتي لأبقى فيها وحيدا حتى اليوم التالي، أريد أن أعرف أين هي، أين بيتها، ولكنى لا أجرؤ على السؤال، كنت في حاجة لمصادفة جنونية، لا مفرَّ من الانتظار الطويل حتى يأتي اليوم التالي.

تعلو ضجة قادمة من أول الطريق؛ ثلاث عربات قديمة تقودها ثلاثة أحصنة هزيلة، تبرز عظامها وهي تحاول جاهدة أن تجرَّ العربات المحمَّلة بالكثير من الأمتعة وسلال الخوص، تسير بجانبها بعض النسوة، منظرهن غريب لا يشبه نساء القرية، يلبسن

ملابس زاهية الألوان مليئة بالنقوش، شعورهن مكشوفة مهوشة، هالة من السواد تحيط بوجوههن المزينة بمساحيق قوية، خلفهم تماما، تسير مجموعة أخرى ولكن من الرجال، بعضهم يدقون على الدفوف ويتمايلون على إيقاعها، أنظر إلى دسوقي متسائلا: هل هذا عرس؟

يقول في اشمئزاز واضح: إنهم الغجر، يأتون كلَّ عام لينصبوا خيامهم خارج القرية.

أقول مندهشا: ماذا يفعلون؟

يقول: مسخرة.. رقص وغناء وأشياء أخرى.. كلها مسخرة.

تتقدمهم جميعا امرأة فارعة الطول، تعلوهم جميعا، تخطو في اعتداد وهي تدفع بصدرها البارز إلى الأمام، تحرِّك قدميْها في بطء، تضع كلَّ قدم مكان الأخرى، تسير كمن تعوَّد أن يعرف طريقه ويكون دائما في المقدمة ويتبعها الآخرون. شعرها المهوش مربوط بعصابة حمراء، تجعل رأسها متوهجا تحت شمس العصاري. أراقبها، يراقبني دسوقي بعينيْن نافذتيْن، لعله يريد أن يعرف ماذا أشتهي من صنف النساء. تتوقف المرأة فجأة، ترفع يدها فتتوقف المسيرة كلها، تزفر الخيل أنفاسها مجهدة، ويتوقف الرجال عن ضرب الدفوف، تستدير المرأة وتنظر نحوي مباشرة، هل تراني، أم لفت نظرها شيء آخر؟ تخرج من الطابور وتتجه نحوي بنفس الخطى البطيئة، أرى ملامحها بوضوح؛ عينيْن واسعتيْن، وأنفا صغيرا، بشرة نحاسية، شفتيْن ممتلئتيْن، ذقنا رهيفا فيه خطّ مصبوغ بالتوتياء، وكتلة الشعر المهوش التي تحاول العصابة الحمراء [illegible]

..ف أمامي وتضع يدها في وسطها وتدفع بصدرها إلى الأمام،
..ول: إن كنت أنت حكيم هذه الوحدة، فلماذا لا تعطيني دواء؟

أقول: أي دواء؟

تقول: كما ترى، هذا السفر الذي لا ينتهي، من بلاد الله لخلق الله، عمري ضائع على الطرقات.

أشعر بالشفقة عليها، كان يمكن أن تكون أجمل لو تخلصت ..ن وعثاء الطريق، وهدأت من زينتها الصارخة، لا أستطيع رفض ..لبها، خاصة وهي تتوسَّل إليَّ بهاتيْن العينيْن. أدخل الوحدة ..دخل خلفي، ويقف دسوقي متلصصا عند الباب، أسألها وأنا أفتح ..رفة الأدوية: لماذا لا تكفون عن الرحيل؟ إذن، استقروا في أي أرض.

تقول ضاحكة: نحن غجر، لا نملك سوى ظلّ الشجر كما يقولون، ليست لنا إلا حرية التجوال وقدرنا هو الموت على الطرقات.

أسألها: ماذا جئتم تفعلون هنا؟

تقول: مثلما نفعل في بقية القرى، نعطيهم بعضا من البهجة والفرح، كلّ هذه القرى كئيبة كما ترى، من كثرة انحناء الناس أصبحت رءوسهم مليئة بالطمي.

أختار لها بعض المقويات وأدوية أخرى ضدّ الصداع والإجهاد، أعطيها بعضا من الأقراص وأرشدها لطريقة تناولها، تمسك يدي وهي تقول: اسمي الجازية، لماذا لا تأتي لمشاهدتنا؟ سنخيِّم

خارج البلدة، صوت الطبول والمزمار سيقودك إلينا، أنا لا أرقص ولا أغني، أنا فقط أروي الحكايات.. كل حكايات الدنيا.

أقول لها: لا أستطيع أن أعدكِ.

تضحك وهي تقول: الجميع يأتون، بعضهم يأتي علانية، وبعضهم يأتي خفية، ولكن كلهم يأتون.

تضغط على يدي شاكرة، تعود لصفّ الغجر الذي يقف في انتظارها بالترتيب نفسه، أتابعهم وهم يواصلون السير حتى يختفوا وتذهب أصواتهم أيضا، لا أجد بُدّا من الصعود إلى السكن ومراقبة القرية من شرفتي، أراقب الطيور وهي تدور حول رءوس النخيل؛ طيورا مهاجرة جاءت من بعيد، تستطيع العودة في أي وقت تشاء، لا تعوقها الموانع الأرضية التي تحوِّل المكان حولنا إلى سجن، والعواطف إلى توق ورغبات مكبوتة، أكتشف أن خلايا الجوع في جسدي قد استيقظت منذ أن لامستها ووقعت شفتي على شفتيْها.

يأتي بعض المرضى، أهبط وأصعد ثم يسود صمت الليل، تغلق كل أبواب الوحدة حتى اليوم التالي الذي يأتي ولكن «فرح» لا تأتي أيضا. كان صباحا رماديّا حزينا داخل غرفة الكشف، وأدهشني أن الشمس كانت مشرقة في الخارج بصورة اعتيادية، أرى الشماتة واضحة في العيون الأربع للممرضتيْن، تأتيان إلى غرفة الكشف واحدة إثر الأخرى لمساعدتي، وكالعادة لا أستطيع التفريق بينهما، أعرف أن لكل واحدة منهما اسما مختلفا، لكنهما معا كتنة من البياض غير الناصع، قبل أن أدخل غرفة الأدوية أسأل دسوقي بصوت خافت: هل مازالت مريضة؟ هل حضر زوجها اليوم؟

يقول في إيجاز: لم يحضر أحد.

أقف وحدي في عتمة غرفة الأدوية، أسمع ضجيج المرضى خارج النافذة وهم يشكون من التأخير، بعد فترة لا أجد فائدة في تلك العزلة الصامتة، أفتح النافذة وأوزّع الأدوية في صمت، لم أعد أميّز وجوههم المتشابهة، ليس فيها وجه أود رؤيته، أغلقها بسرعة حتى ينصرف الجميع ويسود الهدوء، تبتعد الممرضتان عن وجهي، تنشغلان مع بعض الأمهات القادمات مع أطفالهنّ، يقف دسوقي على باب الغرفة يقول: عيسى يريد أن يراك.

أسأل: عيسى من؟

يشير إلى الفناء الخارجي للوحدة: زوج الممرضة فرح، إنه يقف خارج الوحدة.

أنهض واقفا، لماذا لم يدخل؟ هل سيقول لي شيئا لا يريد للآخرين أن يسمعوه؟ يقف طويلا ونحيفا مثل عود ذرة وحيد، أو الذرة. يرتدي جلبابا أزرق ولكنه ليس جلباب الفلاحين، لا أصافحه، أدور حوله قليلا قبل أن أتوقف في مواجهته، أستطيع الآن أن أتأمله أخيرا. كنا غريميْن حتى وإن لم يدرك ذلك، لكنه لا يصرخ ولا يصيح أو يهددني بقبضته، لا يفعل ذلك، ينظر إليّ بعينيْن غائرتيْن، ربما لم ينم طوال الليل، يقول: إنها مريضة جدّا كما تعلم، تعاني من حمى تجعلها ترتجف طوال الليل.

أقول بسرعة: هل تريد أن آتي لأفحصها؟

أؤكد على كلمة «أفحصها». هل كان هذا واجبي الطبي، أم عقلي القذر؟ رغبتي في الدخول إلى بيتها ومعرفة كيف تعيش؛ وما شكل

غرفتها، وهل له مكان بجانبها، ولكنه يهزّ رأسه رافضا: إنها لا تر
ذلك، رفضت حتى أن آتي إلى هنا طلبا للدواء.

أقول: ماذا تريد إذا؟

يحرِّك قدميْه مترددا بين الوقوف والانصراف: لا أريد شيئا، إنها
لا تعلم حقًا أنني قادم إلى هنا، لم أرَ حالتها بهذا السوء من قبل، أنا
خائف عليها حقًا.

نتشارك الخوف نفسه، يصمت قليلا ثم ينظر إليَّ مباشرة وهو
يقول: ماذا حدث؟

يرتجّ عليَّ قليلا، وأقول له: ماذا يمكن أن يحدث؟

يقول: هل تشاجرت الممرضتان علية وعطيات معها؟

أتنفس في ارتياح، أقول: لم يحدث أي شيء غير عادي، المرض
يمكن أن يصيب أي شخص، عموما دعها تأخذ راحتها، لن أحسب
لها أيام الغياب.

يهزّ رأسه: كل هذا غير مهم، أنا واثق أن سبب مرضها موجود
في هذا المكان.

قبل أن أردَّ عليه يستدير ويبدأ في التراجع، أقول له قبل أن يبتعد:
ماذا تعمل أنت إذن؟

يتوقف مندهشا، ثم يقول في خفوت: أنا على باب الله.

أقول له ببعض من العداء: يعني لا يوجد عمل منتظم، ولولا
عمل زوجتك في هذه الوحدة لما توفرت لك لقمة من الطعام.

أعود للوحدة، انتقمت لنفسي دون داعٍ، دسوقي كعادته يتابع
خطواتي، ينظر إليَّ متسائلا ولكني أتجاهل نظراته وأصعد إلى
المكان، أنصت للأصوات القادمة من أسفل حتى تخفت، لا أسمع
سوى صوت تنفسي، بعد قليل سيحلّ الظلام ولن أسمع إلا عواء
الذئاب، يردّ عليها نباح الكلاب، ليل طويل كالعادة تميّزه لدغات
الهوض، ليل القرية أشدّ كثافة من أي مكان آخر، خاصة عندما
ترتفع الأدخنة وتكوِّن سحابة قاتمة فوق النخيل، قرية قاسية لا
يحتملها سوى أهلها، ولكن هل يمكن أن تنجو فرح؟

مع حلول المساء اعتقدت أن اليوم قد انتهى، ولكني أسمع طَرْق
دسوقي على الباب، هناك امرأة عجوز في قلب القرية تعاني من
«خرّاج» ضخم في ظهرها وتتألم كثيرا، أبناؤها في الأسفل ومعهم
ركوبة، أتبرم قائلا: لابدَّ أنها تعاني منذ زمن طويل، لماذا اختاروا
هذه اللحظة من الليل؟ لم أكن أحبّ أن أتعثر في الطرقات المظلمة
أو مواجهة أي حيوان مسعور، يقول دسوقي: يشتكون أن ألمها زائد
عن الحدّ.

أجمع حقيبتي وأهبط خلفه، في انتظاري ثلاثة من الرجال،
يمكن أن يقتحموا الوحدة لو ترددت في الذهاب معهم. أرفض
ركوب الحمار وأفضّل السير، لم أستطع التعوُّد على ركوبه، ولم
أتصور أن هذا الحيوان الهزيل الذي لا يأكل إلا القليل يمكن
أن يحمل كل هذه الأثقال، أتعثر في الطرقات بينما يسيرون هم
في ثبات، أرضهم ويعرفون مكان كل عثرة فيها، ألهث وتتقطع
أنفاسي، يصفون لي حالة أمهم وما تعانيه، أود أن أصيح فيهم: لماذا
صمتوا كل هذه المدة إذن؟ ولكنها عادة مصرية لا نستفيق إلا في

اللحظات الأخيرة، بعد أن نكون على حافة الموت. بيت جدرا
طينية ولكن له باحة واسعة، لا تضيئها سوى ذبالات مرتعشة
النار، نسوة كثيرات ملتفّات بالسواد، يحدقن في خوف وفضول
السيدة العجوز مستلقية فوق حصيرة على الأرض، استطاع الز
والمرض أن يحوّلاها إلى مخلوق هشٍّ من جلد وعظم، تحدق
بعينيْن مذعورتيْن، عندما أحاول الكشف عن إليتها حيث يو
مكان الخرّاج، تستعيد بعضا من قوتها، تصرخ في الرجال طال
منهم الخروج، يطيعونها دون مناقشة، ترتجف تحت أصابعي و
أحدِّد المكان الذي سأفتح فيه، لا يوجد أي مخدر موضعي يمك
أن يساعدني، أطلب من النسوة أن يمسكن بها، أستجمع شجاعتي
وأغرس المشرط في لحمها، اللحظات التي أكرهها، يخرج الصديد
مختلطا بالدم، لا تسعفها صحتها على مواصلة الصراخ تتأوه بتوجع
ثم تستسلم تماما، أقيس نبضها، مازالت على قيد الحياة، أنتهي من
تنظيف الجرح بسرعة وإن كنت أشكّ أنه سيبقى نظيفا وهي نائمة
على هذه الأرض وسط هذا البيت الطيني، أنهض واقفا وأنا لا أكاد
أرى مَنْ حولي، أنظر إلى جسدها المسجَّى وأحسّ بأنني تعاملت
معها بقسوة، ولكن ماذا عليَّ أن أفعل؟

لم أشأ لأي أحد منهم أن يوصلني للوحدة، أسير متخبطا
ودسوقي يسندني كلما أوشكت على السقوط، تزداد الظلمة ولا
أعود أتعرَّف أي شيء حولي، كنت جائعا وعطشا وأحسّ بلزوجة
الدم والصديد على كلِّ مكان في جسدي، أتوقف فجأة، أسمع
صوت طبول يصاحبها مزمار يتردد صداهما من بعيد، صوت غير
مألوف يشقّ طريقه إلى أذنيَّ رغم العواء والنباح ونقيق الضفادع،

...ت ناي متصل وعزف أرغول وإيقاع طبلة، انزاحت الظلمة قليلا
...ت النجوم لامعة أكثر من العادة، أقول: ما هذا؟

يقول دسوقي وكأنه يقرِّر حقيقة كونية: ومن يكون غيرهم؟
الغجر.

أقف كأنني أشمّ رائحتهم المغبرة بتراب السفر الدائم، أقول
بحماسة: فلنذهبْ إليهم.

يشهق دسوقي في استنكار: هذا لا يجوز يا دكتور، لن نختلط
بهؤلاء الأوباش، إنهم رُحَّل نَوَر.

أهزّ كتفي: لن نشتري منهم ولن نبيع لهم، سنقضي فقط شطرا
من هذا الليل الثقيل.

نتبع الصوت، لا يتوقف دسوقي عن همهمات الاعتراض،
ولكنه لا يستطيع أن يتركني وحدي، نسير عبر أزقة ضيقة، تتكاثف
رائحة السباخ في أنفي، وتطاردنا عدة كلاب نابحة فينحني دسوقي
ويرشقها بالطوب، يزداد ارتفاع الصوت، وتبدو البيوت بالقرب
من الجرن مستيقظة، تجلس النسوة والأطفال فوق سطح بعض
البيوت، ندخل إلى الساحة الواسعة، كأننا انتقلنا إلى عالم آخر.

٦

عالم صاخب وسط موات الليل، يضجّ بالحركة والضوء، بعيدا عن صمت البلدة في الخلف، مشاعل كثيرة تضيء كل زاوية من المكان، «الجرن» القديم الذي وقع اختيار الغجر عليه أمسى جزءا منفصلا عن بقية القرية، تنعكس أضواء اللهب على كل الوجوه الموجودة فتجعلها متوهجة، مصبوغة بحمرة الحياة، تخرج من أذنيَّ أخيرا تأوهات السيدة العجوز، ويحلّ بدلا منها رنين الصاجات ودقات الطبول، هناك الكثير من رجال القرية، حضروا جميعا دون نسائهم، لا يوجد غير نساء الغجر بطبيعة الحال يفرضن سيطرتهن على تفاصيل المكان.

عربات الغجر متراصة على هيئة نصف دائرة على حافة الساحة، حمراء وخضراء وصفراء، لم تعد ملطخة بطين الطريق وترابه، لكنها الآن لامعة ومتألقة مثل ملابس الغجر، لا تتجوّل النساء في أسمال كما تصورت، ولكن في ملابس نظيفة وزاهية ومغرية أيضا، تبرز صدورهن ونحورهن العارية، في شوق لهذه الألوان أتقدّم بينهم وأنا أكتم أنفاسي، الرجال يتركون نساءهم يفعلن ما يشاءون بحرية، ينشغلون بالمراجيح المصنوعة من الصفيح وألعاب النيشان والتلات ورقات، في ركن آخر من الساحة يقوم

،مجري بترويض حصان بري شرس، يحاول الحصان أن ينتزع
ا..ه من اللجام الملتفّ حول عنقه، يُرخي الغجري اللجام قليلا
م ,شدُّه في إحكام، يمسك عصا من فرع شجرة طري، يضرب بها
الأرض وهو يصرخ في الحصان الذي يحتجّ، يصهل ويرفع قوائمه
الأعلى كأنه على وشك ركل الغجري، ينظر الفلاحون مبهورين
،لك الصراع البري بين الغجرى وجواده وكل واحد منهما يحاول
ا، بفرض إرادته على الآخر، علاقة صراع محتدمة لا يحسون بها
، هم وبين حميرهم أو جواميسهم. نسير أنا ودسوقي إلى مكان آخر
،ن الساحة، دائرة لا تكفّ عن التصفيق، في الوسط غجرية ترقص
..لوى على وقع تصفيقهم، ترقص في حماس وتهزّ كل جزء من
..مها، خاصة مؤخرتها التي تثير إعجاب الجميع. لا أستطيع
ا، أشاركهم التصفيق، كثير من البنات الصغيرات يدخلن الحلقة
، قصن معها قليلا ثم يذهبن، يخفّ غضب دسوقي وتحلّ بدلا منه
ابتسامة مستمتعة، يبدأ في التصفيق مع الجميع، يندمج مع حركات
الراقصة، يتقدَّم عدة خطوات ويأخذ في هزِّ جسده معها، يطوف
حولنا مهرجون ينفخون النار، وتطير دفعة من الحمائم من مكان ما،
كل جناح له لون مختلف.

أحسّ بمن يجذبني من كُمِّي، ألتفت فأجد غجرية عجوزا،
شعرها مصبوغ بالحمرة، وعلى ذقنها ثلاثة خطوط مدقوقة بالتوتياء
الزرقاء، تشدّني من ذراعي حتى أنحني أمامها، وتهمس في أذني:
هل تريد أن ترى طالعك؟

نظرت إليها مندهشا، أسألها: طالعي؟ من بين كل هذا الزحام،
لماذا اخترتني أنا؟

تبتسم في حنكة: هؤلاء ليس لهم طالع ولا مستقبل، سيعيشو
ويموتون في المكان نفسه، لا يوجد في طالعهم ما يُقرأ، على خلا
ما يبدو من هيئتك.

تواصل جذبي بعيدا عن الحلقة، دسوقي منشغل، مندمج م
حركات الراقصة، لكن العجوز تثير فضولي، تقودني إلى بساط
ملوَّن مفرود على الأرض، تجلس وأجلس في مقابلها، تلقي حف
من أصداف البحرعلى الأرض وتهتف بي: ألقِ بياضك. أخرج لها
ورقة نقدية، تحدق فيها قليلا ثم تضعها على جبهتها وتقبلها، تعاو
نثر الأصداف من جديد، لم أكن أصدقها ولكنها كانت جزءا م
طقوس المكان، تنظر إليَّ وهي تقول: أنت وحيد أكثر من اللازم
لست في مكانك، وربما لم تكن حتى في زمانك.

أنظر إليها في اهتمام، أقول لها: أنا أحبّ امرأة، حدثيني عنها
هل لها دور في طالعي؟

تعاود نثر الأصداف من جديد: أنت تشتهيها، ولكنها لا تنام في
فراشك، تجوع إليها، ولكن لا تنالها.

كنت أعرف ذلك دون حاجة للأصداف، أقول متلهفا: والآن
هل ستشبع جوعي؟

تقول: الشهوة يمكن حلّها، كل جوع وهناك ما يشبعه، يمكنك
هنا، الآن لو أردت، لدينا نساء ساخنات من كل الأعمار.. إنهن
نظيفات وأقسم على ذلك.

أهزّ رأسي بالرفض، تلحّ عليَّ: العالم لا يتوقف على امرأة
النساء لسن متفردات، هناك أيضا أطفال ورجال ذوو شعر كثيف.

أحسّ بالإهانة، أنهض واقفا أمامها متحفزا، كان يجب ألا أتورَّط
.مها في الكلام، أكشف لها عن رغباتي الخفية بشكل طفولي،
.ول: اجلس سنتفاهم.

أطوف بعينيَّ بحثا عن دسوقي فلا أراه، في هذه اللحظة تتدخل
.رأة أخرى؛ المرأة الفارعة التي كانت تسير في مقدمة قافلة الغجر،
اك التي تضع قدما أمام الأخرى تمسك بأطراف أصابعي، تقول
امجوز: أنتِ حمقاء.. لا أحد يغضب حكيما، اتركيه لي حتى
ا..نرضيه.

تحني العجوز رأسها: أمرك يا جازية.

تجذبني المرأة بعيدا عنها، تحدق فيَّ بعينيْها البُنيتيْن الواسعتيْن
اللتيْن تحتلان معظم وجهها، تربِّت على كتفي وهي تقول: إنها
مجوز لا تعرف أقدار الرجال.. ستكون ضيفي الليلة.

تقودني برفق إلى خيمة أخرى، متسخة ومليئة بالرقع، تجلسني
ملى أحد المقاعد وتجلس مقابلي. تقول: لم تكن هذه العجوز في
حاجة لضرب الودع لتعرف أنك وحيد، غريب في هذا المكان،
نحن الغجر نعرف ذلك من أول نظرة لأننا غرباء هذا العالم، نحن
لا نكره الجدران ولكن هي التي تكرهنا، تدفعنا دائما نحو الخلاء،
وهو في العادة أرقّ من قلوب البشر، يستقبلنا بلا عناء، ولكن أنت لا
يجدر بك ذلك، ألقِ بذرتك في أي مكان واصنع جذورا.

أقول لها: حتى الآن يبدو أنني لا أستطيع.

تقول: أستطيع أن أدفئ فراشك الليلة، ولكني امرأة عابرة، لا
نستطيع أن تحفظ بذورك، أنت في حاجة إلى امرأة دائمة، عندما

تراها خذها، مارس معها الحُبَّ بقدر ما تستطيع، كل امرأة هي أرض شَرْقَى، مهما مارست الحُبَّ معها فلا تحسّ بالرِّيِّ.

بالتأكيد فرح ليست هذه المرأة. حان الوقت لأزرع بذوري، تقول الجازية: تعالَ إلى الخيمة الكبيرة، سأقدِّم عرضي وستكون ضيفي.

تقودني للخيمة الأخرى، يتبعني دسوقي فجأة، نتقدَّم داخل الخيمة الواسعة، كانت ممتلئة بالناس من القرية والقرى المجاورة، بعضهم يجلس على مقاعد ولكن أغلبيتهم تجلس على الأرض، تحضر لي واحدة من الغجر مقعدا ويفضِّل دسوقي الجلوس على الأرض؛ جلسته المفضَّلة، أرفض كوب البوظة الذي تقدمه إليَّ، وأبعد فوهة الجوزة من أمام فمي، ولكني أدفع الثمن الذي طلبته مني. لم تعجبني الجلسة ولا الرفقة ولا سحابة دخان المخدر المعلقة في سقف الخيمة ولكني أبقى جالسا، ينظرون جميعا إلى مكان مرتفع مكوَّن من عدة صناديق خشبية متراصَّة، مفروش عليها كليم ملوَّن، بعد فترة نسمع صوت دقات الدفوف، تدخل الجازية وهي تحمل الدفَّ، يزداد طولها بعد أن تعتلي الصناديق، تنقر بأصابعها فوق السطح المشدود فتصدر عنه دقَّات عميقة محمَّلة بدوِّيٍّ من الصدى، تنظر إلى الجميع، وتنظر نحوي، يرتفع صوتها ليطغى على أصواتهم، كالوتر المشدود، قويّا واضحا: أول ما نبدي القول نصلي على النبي، نبي عربي حلو السمات، بديع الصفات، أواصل معكم حكايتي؛ حكاية الجازية الهلالية.

يهتف أحد الفلاحين: نريد حكاية «أبو زيد».

تنقر بأصابعها على الدفّ: أعرف أنكم تحبون حكاية «أبو زيد» لكنها ليست حكايتي، أتركها لبقية المنشدين، حكايتي عن المرأة التي أعطتني اسمها.. الجازية.. قومها من بني هلال كانوا غجرا مثلنا، أقدم منّا، ولكنهم كانوا مثلنا يدفعهم الجوع للرحيل الدائم، وهكذا أنا غجرية أحكي عن الغجر.. عن أهلي.

ترتفع أصوات الحاضرين بالاعتراض، كيف تقول هذا على سادة العرب؟ لا تهمها الأنساب، تنتظر قليلا حتى تهدأ كل الأصوات، تواصل النقر على الدفّ وتبدأ في الكلام، تتحوّل نقراتها إلى نبضات، تبعث الحياة في جسد امرأة رحلت منذ مئات السنين، كانت تعيش وسط الصحراء، بين القبائل المتصارعة والرمال الجافّة والجوع الذي يهدِّد الجميع. لم تكن تملك غير عقلها الثاقب وجمالها الباهر، كانت ابنة أمير القبيلة؛ قبيلة كثيرة العدد، شحيحة الموارد، أرضها لا تصلح إلا لدفن الموتى، تنقر على الدفّ مرتيْن، ثم بزغت الجازية مثل زهرة برية، تفتحت سريعا تحت الشمس الحارّة، وبدأ الشعراء يتغنوْن بجمالها، وتدافع الخُطاب إليها، من بينهم فارس الصحراء الشجاع دياب بن غانم.

يندفع أحد الفلاحين صائحا: نحن لا نُحبّ «دياب»، نحن من أنصار «أبو زيد».

تنقر الدفّ وتدور حول نفسها ويتطاير شعرها مثل شمس بلون الحنة: هذه ليست حكاية أيٍّ منهما، ترفض الجازية كلّ الخُطاب دون أن تعلن عن سبب، لا تجرؤ على القول إن قلبها الصغير كان متيَّما بحبٍّ من طرفٍ واحد، مشغولٍ بعشق فارس آخر هو أبو زيد الهلالي سلامة.

يتنهد الفلاحون في ارتياح، ظهر بطلهم أخيرا: لكن كان هنا
مانع رهيب بينهما، كيف لها وهي الأميرة بنت الأمير أن تحب
فارسا أسود، نبتا غريبا وسط القبيلة؟ ولكن الجازية كانت قد وقعت
في عشق لون جلده المميَّز، لم يرها أبو زيد، لم يجرؤ على أن يرفع
رأسه والنظر في وجهها، ولكن «دياب» ظل يتحرَّش بها، كان قد
تعوَّد على أن يمدَّ يده ويأخذ ما يريده، سواء كان الآخر راضيا أم لا،
والمرة الوحيدة التي قبَّلها فيها أدمى شفتيْها، تنقر على الدفِّ نقرات
متتابعة وتلتقط بعضا من أنفاسها اللاهثة وتنظر نحوي وهي تقول،
آه يا عمري.. كم أحبّ هذا النوع من الرجال، الذي يريد ويمدّ يده
ويأخذ ما يريد.

تتوقف عن النقر وتضرب صدرها وتضحك فيضحك الجميع،
تشدّ انتباه الجميع، تعيد رواية حكاياتهم القديمة، تنتزعها من
ذاكرتهم، تعاود النقر فينتبهون، يتابعون حركات جسمها، فتأخذهم
في سحرها البري غير المبتذل، تعجبهم طريقة روايتها للحكاية
بما فيها من إيحاءات. عاشت الجازية مثل كل البنات، وشاركتهن
أحلامهن، تعوَّدت الذهاب لعين الماء معهن، تحلّ جدائلها وتخفّف
من ملابسها وتكشف عن ساقيْها، جرَّبت مطاردة الشبان ولعبت لعبة
المتمنِّعة؛ أحلى ألعاب البنات، جرَّبت اللمسات والقبلات وهي
متمنِّعة، ولم يحدث أن صادفت «أبو زيد» لا في النهار ولا في الليل
كل الشباب يذهبون حتى دياب بكل ما فيه من شراسة ورعونة، إلا
«أبو زيد»، كانت تريده أن يدخل في لعبة المطاردة والتمنع، لكنه
لم يفعل. وعندما حان وقت النضج بدأ الخُطاب في التوافد لطلب
يدها؛ جاءوا من بني هلال ومن قبائل أخرى، ولم يتحرَّك أبو زيد

رضوا مهورا من حرائر وحلي ونوق، وظلَّ أبو زيد نائيا، لو أنه
مدّم ربما كانت تستطيع أن تفعل شيئا، كان لها ثلث المشورة في
القبيلة، رأيها يفوق رأي عصبة من الرجال. من المؤكد أن أباها كان
يستمع إليها ولو قليلا، لكنه لم يتقدَّم. أقدمت على فعل شيء
لم تجرؤ على فعله من قبل، أرسلت خادمتها تطلب منه أن يتقدَّم
لخطبة سيدتها، ولكن ردَّ «أبو زيد» كان محبطا. بلون مثل لوني، من
الذي يمكن أن يتقبله؟ ضاعت معه كل الفرص. عندها تقدَّم أمير
مكة يطلب الزواج بها، وافقت دون حبٍّ واستعدَّت للرحيل دون
رغبة، لكن الجفاف كان يزحف على القبيلة؛ آبارها تغيض وعشبها
يجفّ ومواشيها تحتضر. حان وقت الرحيل لأرض أخرى، ربما
كان زفافها هو آخر احتفال تقيمه القبيلة، أصبحت الجازية أجمل ما
تكون وإن لم تشعر داخلها بذلك، وسار موكب عرسها لأمير مكة،
واتمختري يا حلوة يا زينة، يا وردة من جوا جنينة.

تنقر الجازية الدفَّ وتدور حول نفسها، تنثر شعرها وتهزّ
ردفها، تهبط من فوق الصندوق وتسير بينهم، ينهمكون جميعا في
التصفيق، كأنها عروس تغني وتزف نفسها لأمير ما، تتوقف لاهثة،
تنظر إلى وجوه الفلاحين كأنها تفيق من حلمها، لم يعد هناك أمراء،
ولا عرائس تتمخطر، تصعد لمسرحها وتواصل نقر الدفّ: ذهبت
الجازية إلى بيت زوجها الشريف هاشم؛ بيت واسع وفراش من
حرير وطعام وفير وزوج رهيف. أجل يا سادة يا كرام، لم يمسك
الشريف سيفا إلا ليؤدي به رقصة العارضة، وكذلك كان الأمر
في الفراش، معركة لم يفز بها لأنه لم يخضها أصلا، ترك الفراش
باردا ونظيفا، حيَّا الله كل الشوارب واللحى، إن لم تفز في معركة

الفراش فكل معاركك خاسرة. تهزّ ردفها وتضحك فيهزّ الجميع رءوسهم ويضحكون. لم يخض الشريف معركة كما أقول، ولكنه لم يترك قافلة تمرّ دون أن يأخذ منها إتاوة. كان ثريًا آمنا دون خوف أو مغامرة، ولكنه كان فاترا، لا يقدر على إشباع جسد جائع مثل الجازية، كما أنها لم تحبّ لون جلده الباهت، سيقول لكم بعض الرواة إنها أنجبت منه أطفالا. أؤكد لكم أنها لم تفعل. وسيقولون إنها كانت سعيدة، مع فراش بارد لا يمكن للمرأة أن تكون فيه سعيدة. لا توجد أمّ تتخلى عن أطفالها، ولا توجد زوجة تترك زوجها إلا وهناك أسباب تحتّم الفراق، ولكن السنوات تمرّ، والملل يصبح عادة، والجوع يقتل أهلها من بني هلال. كانوا يواجهون مصيرا مظلما، خاصة بعد أن أصبح أولادهم يولدون موتى. عليهم أن يبحثوا عن أرض لا تملؤها مقابر الأطفال، أرض جديدة، وكان قرارهم أن يرسلوا «أبو زيد» لاستكشاف هذه الأرض، ولو هلك في هذه المهمة فلن يخسروا كثيرا، ولكنه كان أكثر ذكاء منهم. طلب أن يرافقه أولاد الأمير حسن الثلاثة، وأخواتها الثلاث، ذهبوا مع «أبو زيد» وعاد هو من غيرهم، قال إنهم وقعوا جميعا في أسر ملك تونس الزناتي خليفة. خبر صاعق لا يستلزم إلا ردّا صاعقا مثله؛ لذلك قرّرت القبيلة كلها أن تشدّ الرحال إلى تونس؛ هربا من الجوع وطلبا للثأر. فجأة أصبحوا جميعا غجرا مثلنا، لا أرض لهم ولا بلد تأويهم. خلعوا الأوتاد، وهدموا الخيام، ووضعوا متاعهم على ظهور الرواحل، كيف خطرت الجازية على بالهم وسط نفرة الرحيل؟

جاءت امرأة من بني هلال تركب أتانا، همست للجازية:

.. يدون منكِ أن ترحلي معهم، أنتِ لكِ ثلث المشورة، وفي رحلة
.. عبة مثل هذه لن يقدروا عليها إلا بوجودكِ. سألتها الجازية: مَنْ
،أملك بالمجيء إليَّ؟ قالت السيدة: ومَنْ سيكون غيره؟ أبو زيد،
لا نصدق أذنها، أبو زيد يريد منها أن ترحل معه إلى تلك الأرض
في إفريقية؛ حيث يوجد الكثير من الرجال السود، مثل لون جلده؛
.. مطة ضعفها؟ نامت واستيقظت وهي عازمة على الرحيل، قالت
.. روجها إنها في حاجة لأن تزور أهلها لبضعة أيام، كل ما تطلبه
.. نه جواد سريع وسيف وبعض الزاد. لم يتصور بالطبع أنها يمكن
ان تكذب وأنها ستضحي بزواجها من أجل وعد في الهواء. وافق
.. غم كل توجساته بدأت رحلتها سريعا، وما إن خرجت للعراء حتى
أطلقت لجوادها العنان، تركت خلفها مكة وزوجها والخادمة، فوق
الأتان، استعادت حريتها، لم ترتح حتى وصلت لمضارب القبيلة،
أو بالأحرى ما تبقى منها؛ مرابع الصبا تحوَّلت إلى أطلال، لا توجد
إلا حفنة من العجائز، وعدد من الكلاب الضامرة، أشارت العجائز
لها على طريق القبيلة، سترين على الرمال آثار خيولهم وبعر نوقهم،
ستشُمِّين رائحة الراحلين. عادت تركض من جديد، وجيب قلبها
يسابق سنابك الجواد، نامت في العراء. في اليوم الثالث عثرت
عليهم، متعبين وجوعي ويستعدون للقيام بالغزو، سيكون هذا
دأبهم طوال الطريق، كلما أمضَّهم الجوع قاموا بغزو أي قبيلة؛
قانون الصحراء الذي لا يرحم.

استقبلها أهلها بالتهليل والأغاريد، ألقى أبو زيد عليها نظرة
خجولة مليئة بالامتنان، ونظر دياب إليها كمن يودّ افتراسها، نظرة
ذئب لا تهدأ رغبته أبدا، وكانت هناك أيضا رائحة دماء. كل الذين

رحبوا بها واحتضنوها كانت تفوح منهم رائحة الدماء، ولكنها كانت مستثارة، تبحث وسط الوجوه عن الوجه الذي تريده، حتى وقفت في مواجهته. جلده الأسود تفوح منه رائحة الدم، ولكن لا بأس، المهم أنه طلبها وأنها جاءت، ليته أظهر رغبته مبكرا. لم يفهم، ظلَّ ينظر إليها في بلاهة، لا يريد أن يفهم، كان مرتبكا بما لا يليق بفارس، لا يملك الجرأة حتى يستجيب لرغبتها. ظلَّ كما هو، الفارس الأسود المنبوذ، كما أنه متزوج ولا يريد أن يترك زوجته. كان من المستحيل أن ترضى بأن تكون زوجة ثانية، أو تتدنى لتكون عشيقة. استدارت وانصرفت، ذهبت تضحيتها هباء، هدمت بيتها دون ثمن، ولكنها كانت عازمة على الردّ.. والآن دعونا جميعا نأخذ استراحة.

تتوقف الجازية عن الحكي وهي تلهث، أنظر إليها مستغربا، أنَّى لها القدرة على رواية الحكاية القديمة التي يحفظها الجميع من هذه الزاوية المختلفة، أفكر في نفسي، لا توجد امرأة قامت بتضحية من أجلي، علاقة قديمة انتهت بالرفض، وعلاقة جديدة بعيدة عن التحقق. أفكر في فرح، هل تملك جرأة الجازية، القدرة على امتلاك مصيرها والتحكم في حياتها؟ تأتي الجازية وتجلس بجانبي، قريبة بدرجة جعلت كل الأنظار تتجه إلينا، تقدِّم لي زجاجة مخروطية وتقول مبتسمة: أنت في حاجة إلى جرعة صغيرة.

تملأ أنفي رائحة الكحول المتخمِّر، أقول: لا أشرب خمرا.

تأخذ جرعة وتضحك بصوت رائق: هذه ليست خمرا، إنه عرق البلح، إكسير النسيان والتسلي، ألست في حاجة لأن تنسى؟

بالطبع كنت في أمسِّ الحاجة لذلك، لم أرد أن أشرب أمام الجميع، ألا يكفي أنها تجلس ملتصقة بي هكذا؟ تهمس: بعد أن اسهي.. لن تنصرف مع هؤلاء الفلاحين.

أقول مؤكدا: لا أستطيع.

تقول: أعرف أنك طبيب، عندك مواصفات خاصة ومعقم، ولكني أؤكد لك أنني نظيفة كالبلور، ستكتشف هذا بنفسك..

أنظر حولي خائفا من أن يكون هناك من يستمع إلينا، أقول لها: من أين اكتسبتِ هذه الجرأة؟

تقول ببساطة: أنا غجرية يا أفندي، تربيت على الطرقات، وتعلمت أن آخذ ما أريد، وعليك أن تفعل ذلك أيضا.

أقول لها: أي جازية أنتِ: الأميرة، أم الغجرية؟

تقول وهي تستعدّ للنهوض: ستعرف ذلك حين تجرِّبني..

تنهض واقفة تخفّ الضجة في المكان، يجمع بائعو البوظة وعرق البلح والمعسل أدواتهم وينسحبون، يناولها أحد الغجر الرقّ بعد أن شدَّه على حرارة النار، تنقر عليه فيصدر صوتا عميقا كوجيب قلب ضائع، تعود الحكاية للحياة مرة أخرى، وتواصل الجازية رحلة الجوع التي لا شبع فيها، تستضيفهم بعض القبائل وتصرفهم سريعا من أرضها، وتتحرَّش بهم قبائل أخرى لدرجة القتال، وتشعر الجازية بحسرة. تشاهد «أبو زيد» بجانب زوجته وطفة، فيزداد إصرارها على تحدي غبائه، تواصل القبيلة زحفها، لا تبالي بمن يتساقطون منها، تتمزق ثيابهم وتبلى نعالهم ولكن السير

لا يتوقف، لا أعداء ولا جلاميد صخر ولا رمال دهناء، ولكنهم يتوقفون مرغمين حين يصلون لمصر.

المرة الأولى التي يواجهون فيها نهرا عملاقا يشقّ الأرض متجها من الجنوب إلى الشمال، أمواجه البُنيَّة متدفقة تجرف كل من يقف في سبيلها، وعلى الضفتيْن تمتدّ حقول زاهية الخضرة كالزبرجد، تمدّ الجازية ساقيْها في الماء فتصيبها رعدة غامرة، بعد أيام طويلة من السير فوق الرمل الساخن، تشعر بالتعب يتسرَّب من بين أصابعها، هل يمكن أن يستقروا على ضفة هذا النهر العذب؟ كلَّا.. لابدَّ من الرحيل من أجل تخليص الإخوة الثلاثة المأسورين في تونس، ولكنهم ظلوا طويلا عاجزين عن اجتياز النهر، لم يشأ سلطان مصر أن يسمح لهم بذلك، وكعادة المصريين الذين يطيعون حكامهم إلى درجة العمى لم يتوقف قارب ولا مركب ليساعدهم على العبور، إضافة إلى ذلك فقد كانوا مفلسين لحد الإنهاك، شعروا جميعا بالعجز. بمرور الأيام تحوَّلت الإقامة بجوار النهر لكابوس، عاجزين عن التقدم، غير قادرين على الاستقرار، وكانت فكرة دياب التي قاموا بتنفيذها فورا، أن يكونوا ضيوفا مزعجين، يبدءون في الإغارة على القرى، يسرقون المواشي ويقتحمون أقنان الدجاج ويسطون على المحاصيل، لم يكن الفلاحون على امتداد النهر يملكون سيوفا ولا رماحا، كانوا دوما يقاومون بالعصي والفئوس وينهزمون، ما يجيدونه فقط هو الغرس والحصاد لا القتال، حياتهم هي الاستقرار مع جيرانهم وليس الإغارة عليهم؛ لذلك استطاع بنو هلال أن يحوِّلوا حياتهم إلى جحيم، وحتى عندما جاء جنود السلطان لم يقدروا على ردعهم، ولكن الفلاحين ودون أي اتفاق

ـسهِق بينهم، قرروا أن يحلوا المشكلة بطريقتهم الخاصة، كلما
ءاء الليل انتشرت قوارب الصيادين؛ ليساعدوا من يريد الانتقال
الصفة الأخرى. لم تكن القوارب تكفّ عن الرحيل بين الضفتيْن
طوال الليل، لا تتوقف إلا عند ظهور الضوء، حتى الجياد والجمال
استطاعوا أن يمسكوا بمقودها ويعبروا بها النهر، بإصرار ودأب
وجد بنو هلال أنفسهم على الضفة الأخرى من النهر، الحقول
الخضراء في ظهرهم والصحراء منبسطة أمامهم، عليهم أن يرحلوا
سريعا قبل أن يعلم السلطان أن الطائر قد أفلت. ساروا شمالا نحو
الساحل، هربوا من جند سلطان مصر ليواجهوا عدوّا آخر، يخرج
أمير برقة «ماضي بن مقرن» ليسدَّ عليهم الطريق، كانت صفوف
فرسانه هي الحاجز الأخير بينهم وبين تونس، أشكالهم تُثير الرعب
وسيوفهم تبرق تحت الشمس، ينظر فرسان بني هلال إلى بعضهم
البعض، كانوا متعبين من كثرة القتال، لكن الجازية تفاجئ الجميع
حين تتقدمهم. تركب جوادا وتضع قناعا وتُمسك سيفا صغيرا في
يدها، تصيح بهم أنها سوف تتكفل وحدها بهذا الأمر، تنطلق نحو
الصفّ الأسود الصارم، وكان على أمير برقة أن يخرج إليها بنفسه.
يقترب منها متحفزا زافعا سيفه، لا يبدو عليها خوف ولا رغبة في
التراجع، ثباتها يجعله يتردد، ينظر إليها متسائلا، تمدّ يدها وترفع
القناع عن وجهها، يشهق مندهشا؛ عينيْن واسعتيْن سوادهما داكن
وسط بياض ناصع، رموش مقوّسة لأعلى، بشرة خمرية وشفاه بارزة
ممتلئة، تنظر إليه توضِّح له في عذوبة أن قومها لا يريدون حربا ولا
قتالا، يريدون فقط الإذن بعبور أرضه إلى تونس، يقول إنه يخشى
أن يسمح لهم بذلك فيغدروا به، تقول في جراءة: يمكنك أن تحتفظ
بي، يتساءل: رهينة؟! تؤكد: زوجة.

تعود إلى قومها حاملة إذنا بالمرور وبالثمن الذي لابدَّ من دفعه، الزواج بها، يهتف الجميع بمن فيهم أبوها: ولكنك متزوجة، فعلا.. كيف فاتتها هذه النقطة وهي تفاوضه؟ تختار واحدا من أتباعها، تحمِّله رسالة إلى زوجها في مكة ليقنعه بأن يلقي عليها قسم الطلاق، وترسل امرأة تثق بها لابن مقرن لتخبره بأنهم جميعا موافقون على «طلبه للزواج» ولكن عليه الانتظار. يتجمَّد الموقف ولكن تتبدَّد نذر القتال، ينسحب فرسان ابن مقرن وتأتي بدلا منها وفود ترحِّب بهم وتحمل لهم الطعام، تثبت الجازية رجاحة عقلها وتظفر باحترام الجميع، لا أحد يجرؤ على محاسبتها. لا تطول أيام الانتظار، يعود الرسول المبعوث لمكة بعد فترة لا تكفيه لعبور برِّ النيل، ربما كان يملك حصانا مجنَّحا، ولكنه يقسم للجميع إنه قابل شريف مكة وحصل على موافقته على طلاق الجازية ثلاث طلقات نافذة، يهتف الجميع في ارتياح، لا حاجة لمعرفة تفاصيل الرحلة، ولا جدوى من الحديث عن شهور العدَّة، تمَّ الزفاف وأقيمت الأفراح.

تنقر الجازية على الدفّ عدة نقرات لتلفت نظر الجميع إلى أنها سوف تتوقف عن الحكي، تلهث وقد غمر العرق وجهها، تقول وهي تنظر في عينيَّ: هكذا المرأة، عندما تريد شيئا تبتدع الطرق للحصول عليه، لا أحد يعرف الوسائل التي ستلجأ إليها، المرأة هي أذكى المخلوقات عندما تكون راغبة.

تظلّ واقفة قليلا قبل أن تتذكر أن هناك حكاية عليها أن تواصل إتمامها، تنقر الدفّ، وتدور حول نفسها وتنثر شعرها كالليل، تواصل القول: تزوجت الجازية وصارت تمتلك رجلا وفراشا من حرير، وعاد بنو هلال للسير على وجه الرمال التي لا تنتهي بجوار

ساحل البحر، لكن الجازية شبعت من زوجها سريعا وعادت تتأمل حالها. كل الذين تزوجوها كانت وراءهم مشاغل أهمّ منها. عروش يحرصون على الجلوس عليها بدلا من الاسترخاء في فراشها، ستهرم قبل أن تجد رجلا يكرِّس نفسه لها. تتساقط أخبار أهلها بني هلال، لقد وصلوا أخيرا إلى أسوار تونس ولكنهم عاجزون عن اقتحامها، الزناتي خليفة حاكم المدينة يُعْمل فيهم سيفه كل صباح، يقتلهم ويعلّق رءوسهم على الأسوار، قطعوا هذه الرحلة البعيدة حتى يحفروا قبورهم تحت أسوار مدينته، تنام فتهاجمها الكوابيس، ترى ما حال «أبو زيد» الآن؟ هل سيموت هو أيضا تحت أسوار تونس؟ وسط حيرتها تأتي عرَّافة، يقولون لها إنها البصَّارة الأفضل في كل إفريقية، تسألها: من الذي يقدر على هزيمة الزناتي خليفة؟

تخطّ المرأة على الرمال خطوطا متداخلة، حروفا مجهولة، تقول العرَّافة: إنه دياب بن غانم. تشعر بخيبة الأمل، تسألها: وماذا عن «أبو زيد»؟ تعاود المرأة القول: الرمل يقول: دياب وليس غير دياب.

تتركها متعبة وقلقة، بعد أيام طويلة وجافة تأتي إليها امرأة عجوز من قبيلتها، تؤكد لها كلَّ الأخبار السيئة؛ أسوار تونس منيعة ولا يوجد من يقدر على الزناتي، ودياب غاضب، ابتعدَ عن الحرب واكتفِى برعي الغنم، «أبو زيد» مازال حيّا ولكن زوجته هي التي ماتت، هذا هو الخبر الذي دوَّى داخل رأسها، «أبو زيد» أصبح حرّا دون امرأة وعاجزا أيضا عن حسم معركة تونس، تشعر بأن مكانها ليس هنا، ليس على الحرير ولا تحت ابن مقرن، تذهب من فورها إليه، تقول: أنا الذي طلبت منك الزواج، وأنا الذي أطلب

منك الرحيل، أريد أن ألتحق بقومي، يقول في هدوء: كنت أتوقع ذلك، روح طليقة مثلك لا تطيق البقاء طويلا بين الجدران، يحدث التراضي ويكون الوداع. ترحل عن برقة، وحيدة كما قدِّر لها أن تكون، تصل إلى حدود تونس الخضراء ولكنها لم تعد خضراء، أكسبها الدم لونا أرجوانيًا ورائحة هي الموت، يبدو أبو زيد وقد تثاقلت السنوات على كتفه ودفعت به إلى حافة الكهولة.

يزوم الفلاحون الجالسون من حولي، يريدون أن يظلّ بطلهم شابًا وقويًا على الدوام، ولكن الجازية لا تبالي بهم، تنقر على الدفّ وتعلن لهم الحقيقة؛ «أبو زيد» يفقد قوته، ودياب بعيد، غاضب من القبيلة التي لا تقدِّر شجاعته. تطوف الجازية بين بقايا الحلم، الخيام المهزومة المليئة بالأرامل واليتامى، الرءوس المقطوعة المعلّقة على الأسوار، أبيها الذي يحتضر، ما سرّ هذه المدينة، ولماذا تقاوم إلى هذا الحدّ؟ هل هناك طلسم يحميها؟ تحاول أن توقظ ذهن «أبو زيد» الذي كان لا يكفّ عن ابتكار الحيل، لكنه غارق في أحزانه، لا يريد أن ينسى وطفة ولا دفء جسدها. تعرض عليه أن تعوِّضه بجسدها؛ جسد الأميرات الذي لا يستسلم إلا على فراش من حرير، ولكنها مستعدة لأن تهبه له على حصير خشن في خيمة ممزقة، ولكنه يرفضها مرة أخرى، لماذا يتمتع بكل هذا الغباء؟ هي لم تعد أميرة، وهو لم يعد فارسا منبوذا، تساوى الجميع تحت ظلّ الموت، عليها أن تهبط التلّ، وأن ترحل خارج الخيام إلى أرض العشب حيث يوجد دياب بن غانم؛ حيوان متحفز غير قابل للترويض، يتفحصها بعينيْه الجائعتيْن دوما، يهتزّ جسدها كما لم يهتزّ قبلا، تسأله مباشرة: هل ستترك الزناتي يفني قومك؟ عذ

المنال، وستأخذ أكثر من نصيبك.. يقول: أريدكِ أن تكوني أنتِ
مسمتي ونصيبي.

يضع يده عليها، مازال يرغب فيها رغم كل السنوات، لا يخفت
موعه، ولا يعرف شبعا مهما نال من نساء، يرتجف جسدها كله
وتقول: بعد أن تقتل الزناتي خليفة.. سأكون لك.

صفقة لم تتخيل يوما أن تبرمها، تبرق عيناه وينهض مسرعا،
يسنّ سيفه ويسرج فرسه، تتغير معادلة الحرب فجأة عندما يعود
دياب من أرض العشب ليقف متحديا تحت الأسوار، اهبط لي يا
زناتي. تصل الصيحة إليه داخل قصره، يدرك أن هذا صوت القدر
يناديه، كل النبوءات كانت معروفة سلفا، يدرك الزناتي جيدا أنه
يمكن أن يقاتل الجميع إلا ديابا. يواصل الاختباء، يواجه أنظار
الجميع، يرى اتهامهم له بالجبن والتقاعس، تهتزّ رجولته كفارس
حتى بناته داخل القصر يلمنه على قلة شجاعته، ولكنه ينكص
عندما يعرف المصير الذي ينتظره، الجازية نفسها لا تصمت، كل
يوم تجمع بنات بني هلال، يمسكن الدفوف وهن يغنين ويتهمن
الزناتي بالجبن ويدعونه للنزول. كان ملكا وكان فارسا ولا يمكنه
العيش ومصيره معلّق هكذا. في أحد الأيام يستيقظ هادئا يعرض
نفسه وثيابه للبخور، لا يتناول فطورًا حتى يحافظ على خفته،
يرتدي عدة الحرب ويخرج إليه لعله يكفّ عن الصياح، يقف
وسط الميدان وسرعان ما إن ينشقّ الغبار عن دياب، ضخما وقويّا
وشرسا، حتى يقبل عليه بلا تمهل، كأنه قدر غشيم، يلتحمان
معا، وتأتي الجازية وصواحباتها، تدوِّي الدفوف مختلطة بوقع
السنابك ومقارعة السيوف كأصوات الرعد، يقترب بنو هلال،

ويتجمَّد الحرس فوق الأسوار، ويرفرف الطير مبتعدا، ويستمرّ الصراع محتدما، لا يتوقف إلا عندما يهبط المساء. ينسحب الفارسان ليلتحما في اليوم التالي، يقولون إن الصراع استمرَّ على مدى شهرين، وهذه مدة طويلة لا يطيقها صراع فردين، ولا حتى حرب جيشين، ربما في اليوم الثالث تحدَّدت المصائر. يلوِّح الزناتي بسيفه ويهوي به على رقبة دياب، ولكنه ينحرف عن مساره ويهوي على رأس «الخضرا» جواد دياب، يشحر الجواد وينفجر منه شلال من الدم ويسقط على الأرض آخذا معه ديابا وقد غطاه الدم تماما. يزفر الزناتي في ارتياح وقد تبدَّل قدره؛ انتصر وهو على أعتاب الهزيمة. يستدير ليعود إلى مكانه خلف الأسوار، ولكن يخترق ظهرَه رمحٌ نافذٌ، لا يدري دياب كيف وصل إلى يده، شخص ما ألقاه إليه؛ ربما كانت الجازية، من يمكن أن يفعل هذا غيرها؟ يسقط الزناتي صريعا أخيرا وينتصب دياب والدم يكسوه، يصيح للجميع معلنا انتصاره؛ تونس قد أصبحت له، هو ملكها إلى الأبد. ينتزع الرمح من الزناتي ويرشقه في الحائط، منذ الآن على كل من يدخل لمقابلته أن يحني رأسه ويمرَّ من تحت هذا الرمح، الجازية نفسها مرَّت من تحته وهي ذاهبة لتعطيه جسدها.

لقاء مروع، وسقوط أشدّ مرارة، لا يريد دياب أن يمتعها ولكن يمتهنها، يجعلها قربانا لصعوده، تطيع كل أوامره وتخضع لقسوته ومطالبه الشاذة، وعندما سألته ماذا ينوي أن يفعل بها، يقول إنه سيتزوج سعدة ابنة الزناتي، وإنه يريدها خادمة لها. تحوَّل إلى وحش في إهاب آدمي، لا يكتفي من القتل؛ قتل كل الذين يمكن أن ينافسوه وأولهم أبو زيد الهلالي.

هنا يكون الكيل قد فاض بالفلاحين، يصيح أكثر من واحد: هذا مستحيل، أبو زيد لا يموت، لا يجرؤ دياب على قتله.

لكن الجازية صدمتهم جميعا، اغتالت بطلهم المفضَّل، تصبح الصيحات أكثر ارتفاعا، تتلفت حولها حائرة، هناك ضجة أخرى؛ صراخ وأصوات جهورية تصيح في الجميع، كلها تأتي من خارج الخيمة، ينهض الجميع في ارتباك، أتلفت حولي في حيرة وأرى علامات الفزع على وجه الجازية وهي تصيح بي: اهرب.

أهرب ممن؟ وإلى أين؟ وقع أقدام غليظة، ألتفت إلى الوراء فأشاهد جحافل من العسكر يقتحمون المكان، ثيابهم داكنة، ووجوههم مدبوغة، لا يحملون بنادق ولكنْ عصيًا غليظة يهوون بها على رءوس الجميع. تصرخ الجازية ويختفي جسدها خلف أجسادهم، أشعر بضربة هائلة على ظهري فأتهاوى على الأرض. يدخل التراب في فمي وأنفي، أحاول الزحف حتى أتفادى المزيد من الضربات، تمتدّ أكثر من يد لتجذبني، تجرجرني على الأرض إلى خارج الخيمة، تلقي بي في الساحة تحت الأقدام، أريد أن أقف ولكني أخشى المزيد من الضربات، تقترب مني سنابك أحد الجياد، توشك أن تركلني ولكنها تبتعد، كأنها خارجة من الحكاية القديمة، أسمع صوتا غليظا يصيح: أوقفوهم جميعا.

يدفعونني بالعصي فأقف مترنّحا، أمسح التراب عن عينيَّ لأرى ما يحدث؛ ضابط شرطة فوق جواده، يبدو عظيم المقام لأن أزراره الصفراء تلمع بشدَّة وكذلك علامة النسر المعدنية على كتفيْه، بقية الفلاحين وأنا منهم يقفون في جانب تحيط بهم الشرطة، يضربونهم بالعصي عندما يصدرون أي صوت، لا أرى الجازية ولا أحدا من

الغجر، ربما كانوا في مكان آخر، أو أخذتهم الشرطة بعيدا، لا شيء مهدَّم؛ الخيام قوِّضت والرايات مزِّقت والمشاعل أطفئت، والجواد يحمحم غاضبا مثل صاحبه، ينظر الينا الضابط مهددا ماذا يفعل أوساخ مثلكم في هذا المكان الوسخ؛ دعارة وحشيش وخمر؟ أين تحسبون أنفسكم؟

يطبق علينا العساكر أكثر وأكثر، يهوون بالمزيد من العصي على أجسادنا، يستدير الرجل عظيم المقام بجواده ويقول في اعتداد: أنا مأمور هذه الناحية، وسأعلمكم جميعا الأدب، كل متعة يعقبها عذاب وسيكون عذابكم على يدي في سجن المركز.

أشعر باليأس، سيفتحون الملفات ويعرفون ماضيَّ المشبوه. سيخرجون جميعا وأبقى أنا أتعفن في سجن المركز، لن يعلم بي أحد، ولن يبحث عني أحد، سأنضمّ إلى السجناء الذين يموتون في السجن دون أن يعرف أحد تهمتهم.

تنشقّ الأرض ويظهر دسوقي، كما يفعل دوما، يتحمَّل ضربات العصي ويُفلت من أيدي العسكر ويرتمي أمام الحصان دون خوف من ركلته: عفوا يا باشا. أرجوك، اسمعني يا باشا.

يخفف الضابط من هياجه قليلا، ربما أثّرت فيه لوعة النداء بالباشا، ينتبه له قليلا، يسارع دسوقي بالإشارة نحوي: هذا الرجل ليس منهم، إنه دكتور.. طبيب الوحدة وقد مرَّ هنا بالمصادفة، ليس له في أي شيء؛ لا حشيش ولا نسوان، وجوده هنا مجرد مصادفة.

ينتبه الضابط فجأة لكلماته وينظر نحوي، يلكز الجواد ويتقدَّم، يتأملني ويتأمل ثيابي التي اتسخت، لا يبدو مقتنعا، لست إلا مصريّا غلبانا كحال الجميع، يقول في غلظة: معك بطاقة؟

أمدّ يدي لجيبي الخلفي، من حسن الحظ أن أجد حافظتي ،امرج منها بطاقتي. يسير بجواده حتى يقف بجانب أحد المشاعل ا' ي مازالت متقدة ويقرؤها بعناية، يهزّ رأسه في أسف قبل أن يعود ، بلقيها في الهواء حتى ألتقطها، يقول: أنت موظف حكومة محترم، .ا الذي جاء بك إلى هذا المكان؟ ألا تخشى على سمعتك؟

ألتقط الخيط من كلمات دسوقي، وأقول في صوت خافت: مجرد مصادفة.

يقول: يمكنك أن تذهب، لا أريد أن أراك في موقف مثل هذا الموقف مرة أخرى.

أخفض رأسي في خجل، سرت وسار دسوقي خلفي دون أن يتعرّض لنا أحد، نتعثّر وسط طرقات القرية المتداخلة، نحاول الوصول إلى الوحدة قبل أن ينشقّ الظلام ويفضحنا الفجر القريب، لا نتبادل كلمة واحدة، ألهث وأنا عاجز عن التقاط أنفاسي، عندما أخطو في داخلها ألتفت لدسوقي وأنا أقول: أغلق كل الأبواب وانصرف، لا يوجد كشف اليوم حتى الحالات الطارئة، لا أريد أن أرى أحدا.

أصعد إلى السكن وأغلق أبوابي وأرتمي على الفراش، ماذا فعلت بنفسي؟ كيف تركت هذا الأمر يحدث لي؟ أحدق في ظلام الغرفة وأدرك فجأة أنها الوحدة؛ الوحدة الممضة الباردة التي تحيط بي. لا عذر لديَّ. تطنّ في أذنيَّ كلمات الجازية ونقر أصابعها فوق الدفّ، ترى لو أن العسكر لم يهاجمونا، فكيف كان الأمر سينتهي بيني وبينها؟ أغمض عينيَّ متعبا، وأغرق في الظلام وأنا لازلت أحسّ بطعم التراب في فمي.

٧

لثلاثة أيام لم أفتح أبواب الوحدة، ولم أوقّع الكشف على أحد. من خلف نافذتي كنت أراهم وهم يتجمّعون عند باب الوحدة وعند شباك الأدوية، يهزون رءوسهم في أسف قبل أن ينصرفوا. لا أريد أن أواجه نظراتهم الفضولية وعيونهم المبحلقة. في اليوم الثالث يصعد دسوقي إلى السكن ويطرق الباب، هذا هو اليوم الأول في الأسبوع ولا يمكن أن أبقي الوحدة معطّلة وإلا انهالت الشكوى فوق رأسي، ولكني كنت أريد أن أعرف ماذا حدث للجازية على وجه الخصوص، أقول له: ماذا حدث للغجر؟

يقول بلامبالاة حقيقيه: فضوا ليلتهم في قسم الشرطة، وتركوهم بعد أن سلب العسكر منهم كل ما حصلوا عليه من أموال، هكذا تحدث هذه الأمور دائما.

أهبط خلفه، أشير له بأن يفتح الأبواب، وللممرضتيْن أن تبدآ عملهما في غرفة رعاية الأسرة. ببطء يبدأ توافد المرضى، بشكواهم التي لا تنتهي وأعراضهم الغامضة. يأتي أحد المرضى وهو يعاني من إحدى حالات احتباس البول، لابدَّ أن كليته تحتوي على عدد من الحصوات الصغيرة تحركت إحداها وسدَّت مجرى الحالب، يجب أن أدخل القسطرة المطاطية في عضوه حتى أخرج الحصوة

، أكون محظوظا لو أنها اندفعت بعد أن يتمَّ توسيع الحالب. عملية سخيفة ومؤلمة وتتمّ طبعا بدون مخدر، ولكن المريض بوجهه الشاحب ورائحة اليوريا التي تفوح من جلده، كان مستعدّا لكل ما نفعله به. طلبت من دسوقي أن يحضر القليل من الزيت، أريد ان أخفف ألمه بقدر المستطاع، لا تحاول أي من الممرضتيْن مساعدتي، كأنهما لم تريا عضو رجل قبل الآن. أطلب من دسوقي أن يمسكه بشدة بينما تعالت صراخات الرجل وأنا أدفع القسطرة إلى الداخل، لا أسمع باب غرفة الكشف وهو يُفتح، ولا أشعر بمن يقف بجانبي، إلا عندما شاهدت يدها وهي تُمسك بالوعاء الكلوي الشكل وتضعه أسفل خصية المريض حتى يتلقى أولى دفقات البول. كان هذا دأب فرح، تظهر في اللحظة المناسبة، وتقوم بعملها دون تظاهر بخجل زائف. أنزع القسطرة ببطء فيزداد تدفق السائل الأصفر جارفا معه الحصوة الصغيرة التي كانت تسدّ الحالب، يتنهد الرجل في ارتياح، ولكن عندما يفتح عينيْه ويشاهد «فرح» وهي تمضي حاملة الحوض الكلوي الممتلئ ببوله يتلوى في خجل، يلتفت إليَّ وهو يقفز سعيدا ويحاول تقبيل يدي، كنت أكثر سعادة منه فقط لأنها جاءت ولأنها وقفت بجانبي. من المؤكد أنها سمعت بما حدث عند الغجر ولكنها لم تتردد في القدوم، لمسة رائعة في تلك اللحظات الحزينة.

ترتفع التهليلات في الخارج فور خروج المريض مرتاحا ربما منذ أيام طويلة، نجد أنفسنا واقفيْن أمام بعضنا البعض للمرة الأولى منذ أن افترقنا، لم تكن خائفة مني فلم تبالغ في الابتعاد، ولم تكن حانقة عليَّ لأنها ابتسمت فجأة في وجهي وهي تقول: ماذا فعلت مع الغجرية؟

لا أدري كيف وصلت إليها الحكاية، ولا على أي صورة، اخترت أسلوب المزاح، أهزّ رأسي وأنا أقول: لم تترك لي الشرطة الفرصة.

تكتم ضحكتها في صعوبة، تقول: هل أعجبتك إلى هذه الدرجة؟

أقول لها في جدية: أنتِ السبب، اختفيتِ فجأة من أمامي، وتركتني وحيدا دون أي تفسير.

يحمرّ وجهها بشدّة، أفكر أنها ستبدأ في التراجع، لكنها لا تتراجع، تتمالك نفسها وهي تقول: ربما لو كنت سألت أولا.

يعلو صوتي وأنا أهتف: هل كنت ستوافقين؟

تدير وجهها للناحية الأخرى، ولكني أسمعها بوضوح وهي تقول: ربما.

يدخل دسوقي ثم يدخل مريض آخر، يقول أشياء لا أفهمها ولكني أرفع السمّاعة وأبدأ في الكشف على صدره، يواصل شرح حالته، وأنا لا أسمع كلماته ولا دقات قلبه. وشيش في رأسي، وشيش داخل الوحدة، الجميع يتحركون ويتكلمون في الوقت ذاته، لا أدري أي دواء وصفته ولكن المريض كان سعيدا لأنني فقط وضعت السمّاعة على صدره، يعني أنني عرفت كل شيء عمّا يعانيه. يخرج المريض ويدخل آخر يعاني احتقانا في حلقه، يفتح فمه فتخرج منه رائحة عفنة، أصرفه سريعا وأسألها: هل أنت جادّة؟

تقول في سرعة: الموضوع أخطر من أن أكفّ عن التفكير فيه، أو أستطيع التفكير في أمر آخر.

تدخل الممرضة علية لتقول إن الوقت قد تأخَّر، لم يكن هناك تأخير، ربما أحسَّتا بعد أن ظهرت فرح أنهما لا لزوم لهما، كانتا تريدان الانصراف، أسمح لهما بسرعة، أريد أن تصبح الوحدة خالية حتى أفهم معنى الكلمات التي همست بها فرح. أنتهي من المرضى سريعا، لا أسمح لأحد أن يناقشني أو يسألني عن التفاصيل، أفتح شباك غرفة الأدوية حتى أصرف الجميع، لا ينظرون إلى الأدوية التي أعطيها لهم بقدر ما ينظرون إليَّ بطريقة مثيرة للغيظ، تبدأ أعدادهم في التناقص، كل مشكلة يمكن حلّها إلا مشكلة وجود دسوقي داخل الوحدة. تظلّ فرح في الانتظار حتى أنتهي من صرف الـدواء، كانت تريد أن تتحدث معي ولكن عينيْ دسوقي كانتا تراقبانا كالصقر، ينصرف آخر المرضى، ولكن يظهر في الساحة مريض آخر أكثر خطورة؛ عيسى زوجها، أراه وأنا أستعدّ لإغلاق نافذة الأدوية، يقف بعيدا منزويا وغاضبا، أشعر بالإحباط، فرصة أخرى تضيع، أخرج من الغرفة لأجد «فرح» تستعدّ للانصراف، تلتفت نحوي وهي تقول بسرعة: في هذا المكان، لا يمكن فعل شيء ولا قول شيء.

تنصرف بسرعة تاركة كلماتها معلقة في الهواء، تلحق به ولكنهما لا يسيران معا، هي في المقدمة وهو بعدها بخطوة، كأنه لا يجرؤ على اللحاق بها. أراقبهما قليلا قبل أن أعود للداخل، لا يبقى إلا أنا ودسوقي، دائما أنا وهو، في النهاية لم يكن اليوم سيئا كما كنت أتوقع. عادت فرح ولكنها غامضة أكثر من اللازم، كلماتها مليئة بإيحاءات لم أفهمها. أكتشف أنني جائع وفي حاجة لامرأة، كان من الممكن أن تكون الجازية حلّا مؤقتا، وهل كان من الممكن

أن أتحمَّل فراشها المتسخ ورحمها الذي استهلك في رحلتها عبر البراري.

أهبط في الليل للكشف على إحدى الحالات؛ جزار القرية الذي يعاني من احتقان في صدره، مستلقٍ في قاعة واسعة ممتلئة بالأصدقاء، في وسطها موقد نار والجميع يتبادلون سحب أنفاس «جوزة المعسل»؛ دخان.. دخان في كل مكان، كل شيء يصعد منه الدخان، يتكاثف ويملأ سقف القاعة، كل هذا والجزار المريض لا يستطيع أن يلتقط أنفاسه، ولكنه سعيد بوجودهم بجانبه، بالضجة التي يصنعونها وهم يستهلكون كل ما في الغرفة من هواء نقي، لا علاج يصلح له وهو على هذه الحالة، أعطيه حقنة مضادَّة للحساسية حتى أخفف من احتقان رئتيْه، أشير لما يحدث حوله بأن هذا هو السبب في كل ما يعاني منه ولكنه لم يكن مستعدًا لتغيُّره. عندما كنا نستعدّ للعودة، دسوقي يُمسك المصباح لينير لنا الطريق، أقول له فجأة: دعنا نذهب للأرض التي كان يقيم فيها الغجر..

يقول في دهشة: إنه مجرد «جرن» قديم، ولا يوجد أي شيء فيه الآن.

ينصاع لرغبتي بعد تردد، نسير إلى أطراف القرية رغم نباح الكلاب وعواء الذئاب، المكان خالٍ كما يقول، ولكن بقايا من آثارهم كانت موجودة، رايات ممزقة ومقاعد محطمة وبقايا أوتاد الخيام، أسير للمكان الذي كانت الجازية تروي فيه حكايتها، أجلس على الصنايق المهشمة وأسمع صدى صوتها وهي تحكي قصة قرينتها القديمة، يقول دسوقي: من الخطر البقاء هنا طويلا، ضوء هذا المصباح يمكن أن يجذب الذئاب.

نسير معا عبر طرقات القرية، فجأة يتوقف دسوقي أمام أحد البيوت، دون أن أسأله يشير إليه، بيت عادي يشبه بقيتها ولكنه يقول في تأكيد: هنا تسكن فرح؛ هذا هو بيتها هي وزوجها عيسى.

البيت مظلم، والنوافذ مغلقة، لا يوجد ما يميِّزه عن بقية البيوت، ولو أنني جئت إليه في وضح النهار ما تعرَّفت عليه. أتوقف صامتا، اسمعه يتكلم ولكني لا أعرف ما يقول، يسود بيننا صمت ليس له معنى، أسمع صدى صوتها يتردد من خلال الجدران، نواصل السير بعد قليل حتى نصل للوحدة الخالية والمظلمة، أنام مفتوح العينيْن حتى الصباح.

ولكن الغد كان مختلفا، دائما ما يكون يوم الخميس مختلفا؛ اليوم الذي يسبق إجازة الأسبوع، والعمل يتمُّ فيه بتكاسل وبدون حماس، وهو اليوم الوحيد الذي يتمُّ فيه الذبح ويستطيع الناس، بعضهم طبعا، شراء اللحم، يوم واحد في الأسبوع تتوفر فيه اللحوم الطازجة، لم يأتِ الكثير من المرضى، وذهب دسوقي ليشتري بعضا منها، واستأذنت الممرضتان بسرعة، ووفق معجزةٍ ما وجدت نفسي وفرح لوحدنا، لم أكن أجرؤ على إغلاق الباب، أو القيام بأي محاولة للاقتراب منها، أقول: ماذا كنتِ تعنين؟

كأنني أكمل حديث الأمس، تفهم ماذا أعني على الفور، تقول: هنا لا يمكننا أن نلتقي أو حتى نتحدث، يجب أن نذهب إلى مكان آخر.

أجد أمامي امرأة أخرى، جريئة وتعرف ما تريد وتتكلم على المكشوف، ترغب فيَّ مثلما أرغب فيها، لكنها أكثر واقعية، تمتلك

خبرة التاريخ النسوي الطويل في التوقي والاختباء، أقول في حيرة كيف؟

تقول وكأنها قضيت الليل وهي تحفظ الكلمات: نلتقي في المدينة، وسط الزحام حيث لا يعرفنا أحد.

واضح أنها فكرت في الموضوع، أدمنت التفكير فيه، الجازية كانت على حق في حكايتها، عندما تريد المرأة فهي تبتدع السبل، أتطلع إليها مندهشا، هذه الفتاة الرقيقة التي تشبه ملاكا منزَّها عن كل الخطايا الأرضية، يضجّ جسدها الآن بالشهوة، ما الذي غيَّرها إلى هذه الدرجة؟ أحدِّق فيها وأراها وهي تتكلم كأنها امرأة أخرى، تكمل قولها: خالتي تعيش في المدينة، لقد وضعت طفلا منذ أيام، ومن الطبيعي أن أذهب لزيارتها.

تسكت وهي تلهث كان الأمر قد كلفها عناء كبيرا، أقول في بلاهة: ستزورينها وحدك؟

تنظر إليَّ مستغربة: ألم تفهم بعدُ؟ سأكون هناك في انتظارك، أغلق هذه الوحدة اللعينة والحق بي.

تتوقف وهي تلهث، أنظر إليها مندهشا، يحمرّ وجهها بشدَّة ولا تستطيع النظر في عينيَّ.

أقول: كيف فكَّرت في كل هذا؟

تقول في خفوت: هل تريد التراجع؟

أقترب منها وأنا أهتف: بالعكس، هذا أكثر مما كنت أحلم به.

تتطلع نحو باب الوحدة وتقول محذرة: لا تقترب، ولا تحاول أن تلمسني.

أتراجع قليلا، كان يجب أن أقبّلها في هذه اللحظة، تبدو متورِّدة من فرط الرغبة، ولكنني أخشى أن أفسد كل شيء، أقول: ومتى سنقوم بذلك؟

تقول دون أن تنظر نحوي: سأخبرك بالموعد بعد أن أرتّب الأمر مع.. زوجي.

تنطقها في تردد كأنها تحاول أن تنفي أنها متزوجة، تستدير فجأة وتخرج من باب الوحدة، تسير كأنها تعدو، أظلّ واقفا أحدِّق في أثرها، لا تكاد تلمس الأرض، أفكر في عرضها المفاجئ، وهل يمكن أن يتحقق؟

في الأيام التالية لا نتبادل أي كلمات خارج نطاق العمل، تتجنب حتى نظراتي، يتوافد المرضى كعادتهم، سيل لا ينقطع، تبدأ الأدوية في النفاد، أكتب قائمة للمديرية حتى تمدَّني بأدوية جديدة، وكالعادة لا أتلقى ردّا، يجب أن أذهب بنفسي، لابدَّ أن أدور بين مكاتب الموظفين للحصول على الموافقات، أقول لدسوقي إنني سأغلق الوحدة وأذهب، لم أحدِّد الموعد ولكن الجميع كانوا يعرفون أن الوحدة سوف تغلق أبوابها. بدأ عدد المرضى يقلّ بالتدريج وبدأ دسوقي يتطلع نحوي في تساؤل، لماذا لم أتحرك؟ لماذا لا أذهب وأحضر المزيد من الأدوية؟ أنظر نحوها ولكنها لا تنطق ولا تحدِّد موعدا. أراقبها كل يوم وهي تنصرف؛ تسير في الأمام وزوجها خلفها بخطوات، وأسأل نفسي: هل تراجعت؟

هل خافت؟ هل انكشفت خطتها؟ لا إجابة إلا ساعات طويلة م
الشرود، لكنها تتحدث أخيرا، تنتهز خلو الغرفة بين مريض وآخر،
تقول لي: سأسافر بعد غدٍ، اسبقني بيوم.

أتماسك وأومئ برأسي في صمت، ألتفت للمريض الثاني،
وبعد مريضيْن تقول مرة أخرى: بعد غدٍ، الساعة الخامسة، في
ميدان محطة السكة الحديد.

بتلك الإشارات التلغرافية القصيرة انتهى حوارنا، يطوف زوجها
في الساحة الخارجية، تخرج بسرعة لتلحق به، لا تنتظر حتى أنتهي
من صرف الدواء، أراهما ينصرفان بالنمط ذاته، هي في المقدمة
وهو خلفها، كيف يكون الأمر معي؟ هذه الحادثة الأخيرة كشفت
قوة شخصيتها رغم رهافة حجمها، تعرف ماذا تريد وتسعى إليه،
أنتهي من المريض الأخير وأعود لدسوقي، أقول: لم يعد توجد
أدوية كافية، سأذهب لمديرية الصحة غدا وسنغلق الوحدة لعدة
أيام.

لا يبدو أن الأمر قد أثار اشتباهه، يقول: هل آتي معك؟

أقول له: ليس الآن، ربما بعد يوم أو اثنيْن سأتصل بك لتأتي.

لا يوجد مبرِّر لإطالة الحوار معه. أصعد للسكن لأعدَّ حقيبتي،
يرتعد جسدي رعدة خفية، تمرّ في ذهني كل علاقاتي بالجنس
الآخر؛ لحظة النضج التي توقفت فيها مشاعر الطفولة، عندما
تغيَّرت النظرة إلى الجنس الآخر واختلفت العلاقة به، المطاردات
والقبلات المختلسة، لذة التلامس وما تثيره في النفس من شحنات
كهربائية، أولى لحظات العشق والشعور بالنشوة الغامرة، ولحظات

الهجر والفراق التي تأتي على غير توقع، تجربة الارتباط الفاشلة التي تترك إحساسا بخواء الكون، تجارب الجنس الناقصة، الخوف من المحترفات، ولكنها بداية لابدَّ من خوضها، اختبار التأكد من الرجولة، ولكنه اختبار غير قاطع؛ فالمحترفة دائما ما تبالغ في التمثيل، تريد من الزبون أن يفهم كم هو قويّ ومثير وقادر على إشباع النساء، اختبار زائف ولكنه يعطي الثقة على الأقل حتى الدخول في تجربة حقيقية، تتأكد منه أنك تحبّ الجنس الآخر بشكل سويّ وطبيعي، ولكنها تظلّ تجربة ناقصة وتظلّ كذلك لسنوات طويلة.

أغـادر البلدة مبكرا، ممتنا لـ«أحلاهم» لأنها حضرت في موعدها، تحملني في يسر مبتعدة عن غابة النخيل والضباب الذي مازال ينام على قمتها، تحيط بي وجوه القرية وحيواناتهم، وترتفع الشمس بسرعة إلى قلب السماء، ويصبح الطريق واضحا، غير أنني لا أريد أن أكون بهذا الوضوح، يحدقون فيَّ بلا سبب أو هكذا يخيَّل لي، ينتهز البعض الفرصة ليشكو لي أوجاعه، لا أملك لهم جميعا إلا جوابا واحدا: تعالوْا إلى الوحدة، لا أدري إن كانوا يسألونني حقًا، أم يحاولون استدراجي. أقرِّر أن أبقى صامتا، يهبط البعض ويصعد أكثر من الذين هبطوا، ما إن نصل إلى الأسفلت حتى يصبح الزحام خانقا دون نسمة هواء. ألهث في مكاني، أهبط في الموقف المكتظّ، أبتعد عن زحامهم سريعا، لا أريد أن يتبعني أحد منهم، أواصل السير حتى ميدان السكة الحديد، غدا سيكون موعدي في هذا المكان، ولكن فجأة يباغتني السؤال الذي لم أفكر فيه من قبل: أين هو المكان الذي يصلح لهذا اللقاء؟

أسيرغريبا في مدينة لا أقارب لي فيها ولا أصدقاء، أمامي يوم واحد فقط لأحلّ هذه المشكلة، أدور حول نفسي، لا سبيل لي إلا أن أجد غرفة في واحدة من «اللوكاندات» المتناثرة حول الميدان، أعرف أن أمامي مساومة شاقّة، ولكني على استعداد لأدفع ما يكفي لإغضاء البصر. أحمل حقيبتي وأدخل باب الفندق الأول؛ «لوكاندة العائلات». مدخل عتيق، جدران مكسوة بالخشب الحائل اللون، في صدر المكان يقف رجل ضخم، يقسم وجهه شارب مفتول إلى أعلى، أقدِّم له بطاقتي وأنا أقول: أنا في حاجة لغرفة لليلتيْن.

يقول: لا توجد غرف مفردة، هل تقبل بغرفة مشتركة.

أتردد قليلا قبل أن أضيف: أريد غرفة مزدوجة؛ زوجتي ستلحق بي غدا.

يعود لتأمل بطاقتي مرة أخرى، يمطّ شفتيْه وهو يقول: بطاقتك شخصية وليست عائلية.

أقول بثبات: تزوجت حديثا، ولم أقم بتغييرها بعدُ.

يُعيدها إليَّ وهو يقول: عدْ إليَّ بعد أن تغيِّرها.

كان صارما، يكاد شاربه أن ينفر من على وجهه، ومع ذلك كان عليَّ أن أحاول، أقول له: سأدفع ضعف السعر.

يردّ في حزم: لا أتعامل في هذه الأشياء، مع السلامة يا أفندي.

أتراجع من أمامه، المسألة صعبة، والنقود لا تصلح كحل. أقف محتارا أمام باب الفندق، لا أريد أن أتراجع، لا مجال للتراجع. أواجه الردّ نفسه في فندقي «الفردوس» و«الأحلام»، يهددني

ا مدهم بطلب الشرطة فأنسحب من أمامه مسرعا، أشعر بالمهانة ،الحني أواصل. أدخل الفندق الرابع، كان اسمه «لوكاندة الشرفاء». الاسم وحده حوَّلني إلى حالة من اليأس والخشية، مستواه يبدو أقلَّ من الفنادق الأخرى، لم أكن أريد إلا جدرانا أربعة. توقفت عند المدخل قليلا وتأملت الشخص الموجود خلف طاولة الاستقبال، لا يبدو أنه صاحب الفندق، كان شخصا هزيلا، يرتدي ثيابا واضعة؛ فانلة وفوقها صديري حائل اللون. ربما أستطيع التفاهم معه، أتقدم متجرئا وقد أخرجت ورقة مالية كبيرة بعض الشيء، قبل ان نتبادل أي كلمة أضعها أمامه، وقبل أن يتطلع إلى وجهي، يمدّ يده بحركة آلية ويُخفيها تحت الطاولة، يرفع وجهه وينظر إليَّ بابتسامة باهتة، أقول له: أريد غرفة لليلتيْن، سوف تلحق بي زوجتي غدا.

يتناول البطاقة وعلى وجهه ابتسامة متواطئة، أتنهد في ارتياح عندما يبدأ في تقييد البيانات في السجل الموجود أمامه، يقول بصوت خافت: ما اسم زوجتك؟ أقول له اسما ما، يكتبه في السجل أيضا، يرفع رأسه ويقول: اللوكاندة مزدحمة عن آخرها؛ لذلك فالأجرة مضاعفة.

ينظر كل منا إلى الآخر، نلعب على المكشوف، في صمت أقدم له الثمن الذي طلبه فيقدم لي المفتاح، يقول مرة أخرى: احرص على أن تأتي زوجتك وتذهب في هدوء. لا جلوس خارج الغرفة، ولا تدع صاحب الفندق يراها.

يُشير إلى صورة معلقة على الجدار المقابل؛ شخص ضخم مفتول الشوارب، يشبه تماما صاحب اللوكاندة الأولى والثانية وربما الثالثة، من حسن الحظّ أنه ليس موجودا، لكن هذا الرجل

يُملي عليَّ شروطه. قوَّاد يشمّ رائحة أي صفقة جنسية، أجد نفسـ
متورِّطا معه، لم أظن أن رغبتي وجوعي يصلان بي إلى هذا الحد
يستدير الرجل من خلف طاولة الاستقبال ويتناول حقيبتي وهو
يقول: محسوبك بسطويسي، إذا احتجت لأي شيء آخر، فأنا تحت
أمرك.

يصعد عدة درجات ويسير بي في ممرٍّ معتم ويفتح باب غرفة
عتيقة متوسطة الحجم، يُشير إلى السرير الذي يتوسطها ويغمز
بعينه: اخترت لك هذه الغرفة بسبب هذا السرير، واسع ومتين
ولا يُصدر صوتا، لا يوجد له مثيل في اللوكاندة كلها، إنها خدمة
مخصوصة لك، أتوقع أن تعطيني «حلاوتي» بعد أن ينتهي الأمر.

أضيق به، ولكنه مثل أي قوَّاد محترف يحاصرني، مستمتعا بما
يقوم به، وأخيرا بعد طول لجاجة يضع الحقيبة فوق حامل خشبي،
ويسلمني المفتاح، ويتركني وحدي. أجلس على حافة السرير،
لم يكن مريحا، وكانت المرتبة رفيعة أشعر من خلالها بأخشاب
السرير، لم تكن هناك بدائل، أستلقى على الفراش، أمامي يوم كامل
من الانتظار، هذا إذا سارت الأمور كما خطّطنا. تركت الحقيبة
في الغرفة الكئيبة، سرت على أقدامي إلى مخازن الأدوية التابعة
لمديرية الصحة، انشغلت في إعداد كشوف الأدوية والحصول
على الموافقات اللازمة، هكذا أنتزع أي بذور للشكّ من دسوقي
وأشباهه. أتناول الطعام في أحد المطاعم، كان لذيذا رغم تواضع
شكل المطعم، أواصل السير حتى حافة النيل، أجلس في مواجهة
جبل البرِّ الغربي، أتأمل غروب الشمس وهي تنعكس على صخور
الجبل وتعطيه ألوانا مختلفة، لا أريد أن أركز تفكيري فيها أو في

، مها، أنا هنا فقط متورط في رغبة مستحيلة وغامضة أحاول أن
ا: مها، مهما كانت الطريقة. أراقب مياه النهر وهي تودِّع ضوء
ا ٭ار وتتشرَّب ظلمة الليل. أسير نحو الفندق، يستقبلني بسطويسي
ا.. ـامته الصفراء، يفرك يده ويسألني إن كنت سأقضي الليلة
، مدي، أقول له أي كلام وأصعد إلى غرفتي، لا أستطيع النوم
.هولة، كان يجب أن أكون في الوحدة الآن، أنتظر طابور المرضى
ي الصباح، ولكني غرقت في كوابيس متتابعة.

صباح مختلف، رمادي وغريب على هذه المدينة الحارَّة،
ام ب من الفندق دون أن أنظر في وجه أحد، لا مكان ألجأ إليه
الا حافة النيل ومياهه البنية المتدفقة. كنت متوترا، وفي هذا اليوم
، داد توتري، رغبتي عمياء، أريد أن أجرَّ هذه الزوجة القروية إلى
، اش متسخ في فندق رخيص، رغم أنها لم تكن على هذه الدرجة
ن السذاجة، خطوت نحوها خطوة فخطت نحوي خطوتيْن، رغم
ذلك فأنا ما زلت أواصل الطريق، أطمئن أن استمارات صرف
الأدوية تسير على ما يُرام، ثم أذهب إلى ميدان المحطة، أجلس
على مقهى جانبي يكشف عن حركة الميدان بحيث لا يُلاحظني
أحد، أتأمل وجوه المارَّة، هل يوجد أحد من أهل البلدة؟ هل
يوجد من يمكنه التعرف عليَّ؟ يمرّ الزمن ببطء ولا تتحرَّك عقارب
الساعة من مكانها، هل يمكن أن تأتي حقًا؟ هل تمتلك الجرأة على
ذلك؟ كنت ما أزال مترددا بين الانصراف وانتظار ماذا سيحدث، لا
أدري كيف مرَّ الوقت وأنا جالس متجمد في مكاني، تمرّ في ذهني
ذكريات كل الإحباطات الأولى، مثقل بالأفكار دون سبب.

رغم كل الهواجس أراها وهي قادمة، لا أرى وجهها الذي كان

مخفيًا تحت شال القطيفة الأحمر، لكنني أرى حركتها المذعورة، تقف وتتلفت حولها ثم تخطو فوق الأرض كأنها على وشك الوقوع في هوَّة عميقة، أحسّ بذعرها لأنني أيضا كنت مذعورا، أضع بعض النقود التي لا أدري عددها فوق منضدة المقهى وأنهض واقفا تراني منذ اللحظة الأولى، وتقف متجمدة في مكانها، كأنها على وشك النكوص والتراجع، تحدق فيَّ من تحت الشال وأنا أواصل التقدّم نحوها، تحرِّك يدها وتفرد كفّها، تُشير لي أن أتوقف، يقف كل منا متجمدا في مكانه، يُخيَّل لنا أن أنظار كل من في الميدان مصوبة علينا، أستدير وأعطيها ظهري، خطواتي بطيئة غير واثقة، أتوقف كل فترة وألتفت وأتأكد أنها تسير خلفي، تفصل بيننا مسافة واسعة؛ المسافة التي تفصل بين عالميْنا، غريبان لا يجمعهما سوى الحاجة لملامسة الآخر، كأننا لسنا معا، يرتجف قلبي مثل ارتجافة قلبها بالتأكيد، نواصل سيرنا المتعثر حتى نصل إلى باب الفندق، أستدير نحوها وأشير لها بالانتظار، أخطو وحدي عبر المدخل وألقي نظرة سريعة على المكان، لا توجد إلا ابتسامة بسطويسي المتواطئة والصورة الغاضبة على الجدار، أعود سريعا وأشير لفرح أن تتبعني، تنتهي لحظات التردد، كأنها تضع قطيعة مع حياتها الماضية، وتدخل خلفي، يتابعنا بسطويسي بابتسامته الصفراء، يغمز لي بعينه ولكني أتجاهله، تصعد فرح الدرج بسرعة وهي تخفي وجهها، نتوجَّه سريعا للغرفة وأتنهد في ارتياح بعد أن أغلق الباب خلفنا.

في الغرفة، بعد أن نغلق الباب، تظهر قلة خبرتنا معا، تقف فرح حائرة لا تدري كيف تتصرف، وأقف أنا أراقبها صامتا، خائفا من

،. أقوم بأي حركة حتى لا يزداد فزعها، تجلس على حافة الفراش
ودئ من أنفاسها اللاهثة، تُزيح الشال الأحمر من على شعرها
،ظهر وجهها القاني الحمرة، تتطلع نحوي بعينيْن متسائلتيْن، أتقدَّم
ا جلس بجانبها، أمسك بيدها وأربِّت عليها، أحسَّ برجفتها، تتركها
ي يدي، تقول فجأة: أنا مرعوبة، لا أتصور أن أقوم بهذا الفعل، إنها
ني الأولى، وهي الأخيرة أيضا.

أقول: دائما هناك مرة أولى، لا تخشيْ شيئا، أنتِ في أمان داخل
ه الجدران، أعرف أنها ليست جيدة، ولكن هذا كل ما استطعت
صول عليه.

تبتسم في خفوت: المهم أن نكون بعيديْن عن أعينهم جميعا..
مى نقوم بأمر مثل هذا يجب أن نكون بعيديْن عن كل الأعين؛ كل
يون أهل البلد.

أقول مبتسما: ما يهمني هنا عيون دسوقي.

أنجح في أن أجعلها تبتسم قليلا، أنتهز الفرصة وأزيح الشال
الأحمر عن رأسها، أتحسس شعرها، تُمسك بيدي، لا تبعدها ولكن
تُبقيها مكانها، تقول: دعني أسترد أنفاسي أولا.

أقول: أمامنا كل الوقت.

تتخلل أصابعي شعرها، ناعما ومثيرا، يرتعد جسدها، تقول:
صدقني، لم آتِ من أجل هذا الشيء الذي يمكن أن يحدث بيننا،
بالنسبة إليَّ الأمر مختلف.. أستطيع الاستغناء، وطنت جسدي على
هذا ولكن..

تنتظر قليلا قبل أن تُكمل: ثم رأيت نظراتك لي، تتابعني في ا
مكان، منذ أن تزوجت لم يهتمّ بي أحد، حتى ولا زوجي، كان ا
جميلا أن أرى اهتمامك، خاصة أنك قادم من دنيا مختلفة، وا
في أعماقي كنت أريد أكثر من ذلك، وعندما قبّلتني رغما عني ا
حقل الذرة، اشتعل جسدي من هذه اللحظة دون أن يهدأ.

تتحدث ببساطة آسرة، وتبرق عيناها كأنها على وشك البكا
تطغى عليها رغبتها، أحيط كتفها بذراعيَّ وأجذبها إليَّ، هذه الم
يكون جسدها طيِّعا، راغبا وغير متفاجئ، ولكنه يرتجف من ا
الخجل، أجد شفتيْها، هذا أجمل ما في الأمر، دائما أجد شفتيْها
دافئة وطرية، تتشكّل وتذوب بين شفتيَّ، تتركهما لي، أست
بمذاقهما، أنفاسها الساخنة تلفح وجهي، يتوهج جسدها كا
تخفض رأسها وهي تلهث، تقول: أعرف أنه لا مستقبل لأي علا
بيننا إلا هذه اللحظة.

أقول: فلنأخذ منها كل ما نستطيع من متعة.

خلع ملابسنا لم يكن أمرا هيِّنا، كنا ننزع آثار حياة قديمة بأسرها،
سنوات من الكبت وعشرات من الكوابح، تمنعنا من أن نرى أنفسنا
على حقيقتها، نريد أن نصل إلى عري ما قبل كل الخطايا، تحرير
أجسادنا من خنقتها، نكتشف أننا لم نستعدّ لهذه اللحظة كما يجب،
قلة الخبرة جعلتنا مكبليْن بملابسنا العادية، قشرتنا الزائفة، نرتدي
قطعا كثيرة كل واحدة منها تخلق مقاومة مع أجسادنا ومع تاريخ
الإخفاء الطويل، وصولنا إلى لحظة الامتزاج ليس سهلا، رغم رغبتها
فمازالت تقاوم بشكل غريزي حتى يظهر لي عريها، ولكنها بعد ذلك
تترك يدي تتجوَّل في جسدها بحرية، كل لحظة يُخيِّل لي أنها ستُنهي

ا ...يء وتغادر الفراش، لا يغادرها التردد وهي تعرف أن جسدا آخر
ا... لأن يغوص في جسدها، ولكني أنتهي من كل القطع وأنجح
... في أن أري جسدها ناصعا بكل ما فيه من بهاء، نكتشف معا أن
... هو أجمل ما في ممارسة الحبّ؛ لأنه ينزع كل الفوارق التي
... مها الثياب، كل الفوارق والألقاب وكل شظايا الماضي والأماكن
... سنمي إليها والأشخاص الذين يربطوننا بهم، تمنحنا لحظات نادرة
... مرر من رذيلة الخجل، تحوّلنا فقط إلى جسديْن عاريين صريحيْن،
... جمعهما سوى الرغبة والحاجة للإشباع، لا توجد ممارسة ناجحة
... جود الملابس، ليس ماديًا فقط ولكن نفسيًا أيضا، ولكن جسدها
... غضًا ونقيًا أكثر مما ينبغي، جسدا نضرا كأن لم يمسسه رجل حتى
...، لم يُنتهك ولم يصل إلى ذروة نشوته، لا أشبع من تقبيل كل جزء
...، وهي تتمنع ثم تستسلم ثم تستمتع في حذر، تمتلئ الغرفة المعتمة
... نرات النجوم الملوّنة، وينعكس على صرتها ضوء خافت لا أدري
... صدره، أقول لها: حلمت بهذه اللحظة ولكني لم أعتقد أنها قابلة
... لتحقق، تقول: أعرف أنك كنت ترغب فيَّ من اللحظة الأولى ولكني
... نت عاجزة عن القيام بالمخاطرة. أجد شفتيْها، دائما أجد شفتيْها،
... نوقف الكلام ولكن وهج جسدها لا يتوقف، واستجابتها طبيعية بلا
... صنُّع، مشتاقة ومتلهفة ولكنها أبعد ما تكون عن الابتذال، نتوقف
لاهثيْن، ولكنها تصبح حريصة أكثر على مواصلة كل طقوس المتعة،
... تعلق برقبتي، تقول: لا تبتعدْ عني، أريد كلَّ قطرة منك في داخلي،
تُصيبني الرعدة من قوة رغبتها، أتأملها من جديد، كأن في داخلها أكثر
من امرأة، كل مرَّة تُفاجئني بشخصية مختلفة، مغمضة العينيْن، على
جبينها قطرات من عرق، لم تُفق من رعدتها بعد، غائبة في عالم آخر،
أفكر أنني سأضاجعها من جديد، ولن أَمَلّ من مضاجعتها أبدا، نُفيق

معا على صوت طَرقات على الباب، نشهق معا في فزع، تتبدد الحمرة من وجهها وتصبح شاحبة كأنها على وشك أن تفقد الوعي، أتمالك نفسي وأنهض من فوقها، أصيح: مَنْ؟ لا يُجيبني أحد، ولكن الطَرْق يعود أكثر إلحاحا، أرتدي أول شيء يصل إلى يدي، تلتفّ هي في كل الأغطية بحيث لا يظهر منها شيء، تلتصق بالحائط، أذهب إلى الباب وأفتح فتحة صغيرة، يطلّ عليَّ وجه بسطويسي بابتسامته الصفراء، يقول في لهجة متواطئة: أي خدمة؟ هل تحتاج إلى طعام أو شراب؟

أمسك نفسي حتى لا أهوي بقبضتي على وجهه، يتراجع قليلا بعد أن يرى ملامحي، يقول: أنا محسوبك، أردت فقط أن أحذرك من الأصوات العالية الخارجة من الغرفة، أنا خائف عليك.

أتراجع من على الباب، أبحث في ثيابي حتى أجد ورقة مالية مناسبة، أعود بها إليه، تتسع ابتسامته، يختطفها من يدي وهو يصيح: ولا يهمك، استمتع بأعلى صوتك.

أغلق الباب وأعود إليها، أرفع الأغطية عن جسدها المرتجف، تتمسك بها وتتطلع نحوي بعينيْن واسعتيْن، تهمس: دمي نشف، أتحسس جسدها الناعم، أحاول أن أعيدها إلى دفء الرغبة، آخذها في حضني وأحسّ بثدييْها على صدري، تقول وهي ترتجف: لقد اعتقدت أنه زوجي، ليس هو فقط ولكن بقية أهل البلدة كلهم خلفه.. أتحسس شعرها، أهمس لها: لا أحد يعرف أننا هنا، أقبِّل رأسها وخصلات شعرها، تقول: أريد أن أذهب من هنا، أقول: هذا جنون، أين تذهبين في هذا الوقت من الليل؟ لا يمكن العودة للبلد ومستحيل الذهاب لخالتك، مكانك هنا.. بجانبي.

هدأ أخيرا، تقول وقد هاجمتها ذكريات بعيدة: عندما ماتت أمي
في الرابعة عشرة من عمري ساد منزلنا الصمت؛ صمت ثقيل
، العتمة في منتصف النهار، كان أبي يعمل في الحقل طول اليوم
د منهكا لا طاقة عنده للكلام، وحتى إن وجدت لم يكن بيننا
قال، كنا نجلس صامتيْن، مات في داخلي كل الكلام، وهربا
هذا الصمت رضيت بالزواج مبكرا بعيسى، ولكنه كان مثله،
امنا ومتعطلا معظم الوقت، حياته كلها لحظة واحدة مكرَّرة،
في حاجة لمن يشقّ هذا الصمت الذي يُحاصرني، في الوحدة
أثناء العمل كنت أتكلم معك، لم أتعوَّد قط على الكلام مع
ن الممرضتيْن، كانتا عجوزتيْن لدرجة مروعة، كان الكلام
اك جيدا، ولكنه متقطع وغير كافٍ، كنت أريد شيئا أكبر؛ طفلا
، جسده مفعم بكل أسباب الحياة، لا يكف عن الصراخ والبكاء
طلب الطعام، هذا هو فقط كل ما أريد.

ويعود الدفء لأطرافها، وتُبادلني القبلات، يتغيَّر الأمر فجأة،
ستيقظ نبضات الرغبة وتسري في عروقنا، هدأت حدة الجو
لكن رغبتنا لم تهدأ، أصبحت أكثر حميمية، تلامسَ جسدانا في
أكثر من موضع، نحفظ تفاصيل جسديْنا ونصبح أكثر قدرة على
الالتحام لنصير جسدا واحدا، تقول فجأة وهي تشعر بيدي وهي
تدور حول بطنها: لم أكن يوما عارية إلى هذه الدرجة حتى مع
زوجي، ولا أدري كيف أمكنني أن أخلع كل هذا القدر من الثياب،
أقول مندهشا: لم يكن زوجكِ عاريا معكِ؟ تؤكد: ولا مرَّة، رغم
أننا تزوجنا فإنه ظلّ يتذكر جيدا أنني ابنة عمه. هناك دائما جزء
من جسده ظلّ محجوبا عني، أنا الآن أعرف تفاصيل جسدك أكثر

مما أعرفه. ذات لحظة يخفت الحديث، ولا تصبح هناك ضرو..
للكلمات، نكتشف أننا لم نعد نمارس الجنس بإرادتنا، أجسا..
هي التي تتواصل، تتحاور في صخب دون صوت، شعور أعـ..
من مجرد إرضاء الرغبة؛ محبة ومؤانسة ومداعبة وأفعال لا تنتهي
تعويضا عن الخيبات القديمة وتجميعا لكل الآمال المبعثرة، شي..
يجعلنا نتحمَّل صنوف الصعوبات التي نواجهها، هي بالزوا..
الذي فرض عليها منذ طفولتها، وأنا في هذا المنفى النائي بعـ..
أن فقدت عالمي الماضي، تلتقط أنفاسها وتداري جسدها حتـ..
تخفض من درجة الإثارة، تسألني فجأة: أنت وحيد لدرجة غريبـ..
هل تقف بمفردك في هذه الدنيا الواسعة؟ لماذا لا تحدثني عـ..
أهلك؟ تحاول أن تتقرَّب مني، ولكنها تفتح جروحي القديـ..
دون قصد، أقول: أنا فعلا وحيد لهذه الدرجة، مات أبي وأمي في
حادثة قطار، كانا في رحلة صغيرة لبلدة مجاورة، لم يكن الأمـ..
يستحقّ، ولكن هذه الحوادث أصبحت عادية، كل الأشياء التافهة
ندفع ثمنها موتا، تلتهم ما تلتهم من أرواح ولا أحد يتوقف ليسأل
عن السبب، كأنه قدر لا مفرَّ منه أن يضيع كلّ عالمي في ضربة
واحدة.

نعزي أنفسنا بمزيد من القبل، لا داعي لمضغ هذه الأحزان
القديمة، هذه اللوكاندة البائسة، والجدران المتساقطة الطلاء، هما
سور عازل ضدّ كلّ الحقائق التي تُميت القلب، كلٌّ منا يتوهج في
جسد الآخر في حياة جديدة، وبداية مختلفة، مع مضي ساعات
الليل كان هناك رباط حميمي يولد من خلال ذروة النشوة المتصلة،
لقاء واحد لا يكفي، وليلة هي عمر قصير لأجساد عطشى، لا أدري

إن كان جسدها يموج بالمشاعر نفسها أم لا، ولكننا نغفو وكلٌّ منا متشبث بالآخر، ونمارس الحبَّ في منتصف الظلمة دون أن نستيقظ، لا ندري إن كان هذا حلما أم واقعا، رغم كل شيء يفاجئنا ضوء النهار، من خلال خصاص النافذة يتسلل ضوء الشمس في إصرار، تستدير فرح مبتعدة عني، ولكنها تظلّ عارية، يبدو جسمها وقد أكسبه الضوء نوعا من النضارة الجديدة، متأهبا لفعل مبكر من أفعال الخصوبة، كنا قد فعلنا ذلك دون أي موانع، ودون أي تردد، لحظة الذروة هي ملكنا نستدعيها ببساطة وتلقائية، تحاول أن تداري ابتسامة الرضا التي تشعّ من وجهها، واللمعة التي تشعّ من خلايا بشرتها. كانت خجلى لأنها أطلقت العنان لرغبتها، تمدّ يدها وتضعها عليَّ، تعبث بأصابعها في شعر صدري، تقول: من المحتم أن نفترق الآن، ولا أحد يعلم هل هناك أمل في لقاء قادم أم لا، هل يمكن..؟ تترك سؤالها مفتوحا، أزيح الشعر من على وجهها، تبدو شديدة الرغبة في ضوء النهار، أبدأ في تقبيلها ثم أغطيها بجسدي، تتنهد في استسلام: هذا أفضل حتى نتأكد أن كل قطرة منك بداخلي. لا أعرف ماذا تقصد، ولكن المؤكد أننا نعود للالتحام من جديد، أصبح كلٌّ منا خبيرا بجسد الآخر، نعرف مواطن الإثارة ومكامن الحنين، يمتلئ جسدي بطاقة جديدة، كأننا نلتقي للمرة الأولى، ويستقبلني جسدها في توق ورغبة، كلٌّ منا لا يريد أن يصل إلى درجة الاكتفاء، نسمع صوت الحياة في الخارج، ونفاجأ بطرْقٍ على باب الغرفة، أعرف أنه اللعين بسطويسي، لم أكن أريد الشجار معه ولكني أعاني من الإحباط بسببه، أرتدي أي شيء وأفتح الباب، أرى ابتسامته وأسنانه الصفراء، يقول: اعذرني، لم أكن أريد أن أقطع شيئا، ولكن صاحب اللوكاندة قادم الآن، إن

كنت تنوي البقاء يجب أن تظلّا داخل الغرفة طوال اليوم، ولكن إذا كانت هناك نية للانصراف يجب أن يتم ذلك الآن.

أغلق الباب وأعود إليها، أجدها ترتدي ثيابها في صمت، انتهى اللقاء بغتة، لم نعد نستطيع العودة للفراش، أو البقاء محبوسيْن داخل الغرفة، اللعنة على بسطويسي وعلى صاحب اللوكاندة معا، نتسلل على أطراف أصابعنا خارجيْن من الغرفة. بسطويسي جالس على المقعد يتظاهر بأنه لا يرانا، نخرج بسرعة، لا نتوقف إلا بعد أن نبتعد بمسافة كافية، المدينة هادئة، أعداد قليلة تسير في الطرقات، لكننا أصبحنا مكشوفيْن، أقول: أريد أن نتناول طعام الإفطار معا.

تقول في خوف: مستحيل، يكفي ما فعلناه معا، سأذهب لبيت خالتي الآن وسأمكث عندها اليوميْن القادميْن، لا أريد أن أترك مجالا للشكّ.

تلفّ الشال حول وجهها بإحكام حتى تُخفي كلَّ ملامحها، تُشير لي مودِّعة دون أن تُخفي ابتسامتها الراضية، أظلّ أراقبها وهي تبتعد آخذة معها جزءا من نفسي، أذهب إلى شاطئ النيل، أظلّ جالسا ساكنا أمام مياهه الساكنة، أحاول أن أهدئ ذات نفسي، أقنعها بأن ما قمنا به لم يكن مجرد خيانة زوجية، كانت رغبة تحوَّلت لعشق؛ عشق كان يجب أن يتمَّ في مكانه الطبيعي؛ في الفراش، المكان الذي يُعبِّر فيه أي جسد عن أعمق الرغبات وأصدقها، رغبة خالصة دون زيف، لم يكن زوجها إلا ظلّا عابرا، قرابة واهية، وشريكا غير مدعوّ إلى فراشها، أردد هذه الكلمات في نفسي وأنا أتناول إفطار الفول والبيض في مطعم صغير، وأرددها وسط مكاتب مديرية الصحة وأنا أخلّص طلبية الأدوية، وأعيد ترديدها وأنا أركب «أحلاهم»

..زدحمة بالناس والحيوانات، هل يشمون رائحتها على جسدي؟
..ل ما حدث حلما لم يكن له أن ينتهي قط، أراقب الأحاديث التي
، ور حولي في حذر، هل رآنا أحد؟ هل علم أحد بما دار في تلك
..لوكاندة البائسة التي شهدت أجمل لحظة في حياتي؟

تسير «أحلاهم» بالوتيرة نفسها وكأن العالم لم يتغير، وتظهر
..م النخيل زاهية الخضرة، كأنها اغتسلت في عرق رغبتنا، مشاعر
.جنونة تموج داخلي، وبيوت القرية تظهر أمامي حقيقية؛ حيث
,, جد زوجها وعالمها وكل الحواجز التي تحول دون علاقتنا معا.
وقف الحافلة أمام صفٍّ الرجال الجالسين المستندين أبدا إلى
الحائط، ينهض بعضهم لاستقبال القادمين، ويبقى البعض كما هو
عبر آبهٍ بالحركة من حوله، ورغم التدافع أستطيع أن ألمحه وهو
ملتصق بالجدار، زوجها عيسى يحدق في الجميع بحثا عن شخصٍ
ما؛ عنها بالتأكيد، ولكنه يثبت أنظاره نحوي، يتابعني بنظراته،
أتجنب النظر إلى وجهه، لا أريد أن تلتقي أعيننا حتى لا أشعر بأي
ذنب. أتجاهله وأدير له ظهري متجها للوحدة، من طرف عيني
ألمحه وهو يسير خلفي، ماذا يريد؟ هل يحمل سكينا؟ لا أريد أن
أسرع الخطى حتى لا أبدو خائفا، يسير خلفي ولكنه يحافظ على
المسافة نفسها. عند الباب ألمح دسوقي واقفا يترقب عودتي، يظهر
في الوقت المناسب، أتنهد في ارتياح وأدخل الوحدة دون أن ألتفت
خلفي، أتوقف لأتحدث مع دسوقي، أتوقع أن يتوقف عيسى أو
يتراجع ولكنه يواصل التقدّم، يصعد درجات الوحدة ويتقدم نحونا
في إصرار، لا أطيق هذا الإصرار، كأنه يريد كشفي أمام دسوقي،
يفضحني داخل الوحدة، ألتفت إليه وأنا أقول في حدَّة: ماذا تريد؟

أريد أن أباغته، يرتدّ أمام لهجتي الحادَّة، يتلجلج في الكلام، يقول: دواء.. أريد دواء.

أدرك فجأة أنه لا يعلم شيئا، وإلا ما كان على هذه الحالة من الضعف والارتباك، أقول له: اذهبْ إلى غرفة الكشف، أنا عائد للتو من السفر، اجلسْ هناك وانتظرني.

يجلس طائعا على أحد المقاعد، متقوقعا حول نفسه يريد أن يختفي. كنت عدوانيًا، متسلّطا بعض الشيء كما يليق بعشيق خفي أصعد للسكن، ألقي بحقيبتي وأنزع كلّ ثيابي، أقف تحت سيل الماء، لا أريده أن يشمَّ رائحتها على جسدي، إن كان يُحبّها حقا فسوف تهديه غريزته لذلك. أستخدم أكثر من نوع من الصابون، أبقيه في انتظارى لأطول وقت ممكن، أهبط إليه وأنا فائق تماما، شاعر بالتفوق. امتلكت المرأة التي أريد رغم أنه يظنّ أنه يمتلكها، يسبقني إلى حياتها بخطوة وأسبقه إلى جسدها بخطوات، أحرص على وضع السمَّاعة حول رقبتي، أشير له أن يتبعني إلى غرفة الكشف، بعيدا عن آذان دسوقي، أسأله بلهجة عملية: ممَّ تشكو؟

يقول متوسلا: أريد أن أنام. أي دواء يساعدني على النوم دون كوابيس.

أعتزم أن أعطيه بعض الدواء، أي دواء؛ لينصرف، ولكن أجدني أواصل الحوار معه، بلا ودٍّ حقيقي، أسأله: ليس لديكما أولاد، أليس كذلك؟

يحدق فيَّ ولكني لا أتراجع، يقول: نحاول، نحن ما زلنا شابّيْن و..

أقاطعه: هل عرضتما نفسيْكما على طبيب مختصّ؟

يهزّ رأسه بالنفي، أقول: يعني لا تعرف إن كان العيب منك أو منها؟

ينهض واقفا، أدرك أنني قد تجاوزت الحدود، أقول له: اجلسْ، سآتيك بالدواء الذي تريده.

أسرع إلى غرفة الدواء. بالطبع كنت وقحا ولكني كنت أريد أن أعرف كلّ شيء عن المرأة التي كانت في أحضاني منذ ساعات قليلة. أحمل له بعض الأقراص، بعض المسكنات لن تضرّ، يأخذها ويتمتم بعدة كلمات غامضة قبل أن يمضي، أتابعه وهو يمضي مهرولا، يوشك أن ينكفئ على وجهه. يراقبني دسوقي وأنا أتابعه، يقول فجأة: كان يجب أن نأخذ منه أجرة الكشف.

أقول بلامبالاة: لم يكن يشكو من شيء ذي بال.

أنام بعمق، أشعر بأن داخلي قد أصبح فارغا من أي احتقان؛ لا أحلام مزعجة، ولا أي نوع من تأنيب الضمير، ولا حتى التفكير في خطواتي القادمة. أتناول إفطارا خفيفا وأهبط إليهم. الجميع حاضرون ماعداها، ترمقني الممرضتان الأخريان، تدركان بالغريزة النسوية أن أموري تكون مختلفة حين لا تكون موجودة، أنصرف بطريقة آلية. لم يكن عيسى موجودا كما كنت أظنّ، وبدا هذا باعثا على الراحة، أريدها ولا أريده بطبيعة الحال، لست وغدا ولكنها اختارتني. يتوافد المرضى بأعراضهم المختلفة، يصل دسوقي حاملا شحنة الأدوية، أتنفس الصعداء وأنا أفتح النافذة وأرى وجوههم الشاحبة وهي تتزاحم أمامي، أنتهي منهم جميعا، وأجلس

وحيدا بعد أن ينصرفوا جميعا. نحن في منتصف اليوم ولم أرد أن أصعد للأعلى، كنت أريد أن أخرج لضوء الشمس وأرى الجميع، أريد أن أرى «أحلامهم» وهي قادمة للقرية ربما تكون فرح بها، يجلس دسوقي على الدرج ويتحدث دون أن أستمع إليه، لا تأتي الحافلة، ولكن تأتي عربة أخرى مثيرة للأتربة، يظهر «بوكس» الشرطة بألوانه السوداء القاتمة، تسير بسرعة لا تهتمّ بمن يقفز من أمامها، لابدَّ أن هناك مشكلة داخل القرية، لكن السيارة تستدير فجأة وتتجه نحو الوحدة؛ نحوي تماما، سريعة كوحش يلهث. أنهض واقفا في قلق، اندفاعة العربة بهذه السرعة مثيرة للرعب؛ تتوقف أمامي تماما، تحيطني بهالة من عادمها، يقفز منها شخص ما، لا أتبينه إلا بعد أن يتجلي الغبار؛ المأمور، شخصيًا المأمور. أشعر بالخشية، كأنه ضبطني متلبسا هذه المرة أيضا، يقف وهو يعدل ملابسه وغطاء رأسه، يُشير إلى بضعة أشخاص يجلسون في مؤخرة العربة، يتحركون جميعا ليقذفوا بشيء من داخلها، يسقط جسد أمامي على الأرض وتصدر منه صيحة ألم: لم تكن مجرد جسد، كانت امرأة تمَّ إلقاؤها في قسوة، كومة من الأسمال الداكنة، ولكنها مازالت حية، تحرك جسدها في صعوبة حتى تتمالك نفسها، ترفع رأسها، وتزيح الشعر الذي يغطي وجهها الدامي، أشعر بالصدمة بينما يقف هو مفرود القامة معتدًا بنفسه، يقول في تفاخر: لقد جئت بها إليك، لم يكن هناك داعٍ للذهاب إليها.

لا أفهم ماذا يعني. أعاود النظر إلى وجه المرأة الملقاة على الأرض، متورم ومليء بالسحجات والبقع الزرقاء. أتعرَّف عليها بصعوبة، ليست الجازية التي شاهدتها وهي ترقص وتحكي مفعمة

بالحيوية، لكنها مخلوق مسحول يحاول التمسك بالأهداب الأخيرة في الحياة، تنتزع أنفاسها بالعافية من الهواء الملوَّث بالتراب. لا أبالي بوقفة المأمور المتشفية، أشير لدسوقي أن يحملها معي، لا أريد لأحد منهم أن يلمسها. نحمل جسدها المتهالك معا، ندخل بها إلى غرفة الكشف، نضعها برفق فوق المنضدة. لم تكن غائبة عن الوعي، ولكن علامات الحياة في جسدها كانت على وشك التبدد، كلما حاولت التحرك كان جزء من جسدها يؤلمها، أسرع بإعطائها حقنة في العضل لتخفيف إحساسها بالألم، ثم أفحص بقية جسدها، آثار للكدمات في كل جسدها، تمَّ ضربها بوحشية، كل جزء منها كان مليئا بالجروح الصغيرة، أنظف كل جرح وأضع فوقه بعضا من المرهم المضادّ للجراثيم، وألفّ الشاش المعقّم على الجرح الموجود في ساقها، ولكن جسدها كله كان ملوَّثا تفوح منه رائحة نتنة ولم أرد أن تتلوَّث هذه الجروح وتلتهب. تهدأ أنفاسها قليلا، تحدق فيَّ بعينيْها الواسعتيْن وأنا أقوم بتضميد جروحها، لا أدري إن كانت قد تعرَّفت عليَّ أم لا، أو إن كانت تدري أين هي بالضبط. نظراتها زجاجية، لامعة وغير متفاعلة، وأخيرا استطاعت إغماضها، وانتظمت أنفاسها. من الغريب أنها استغرقت في النوم، لم تشعر بي وأنا أفحص جسدها، بدت مثل طفلة صغيرة وجدت أخيرا ملاذا آمنا. كانت ترتعد قليلا ثم تهدأ. دون أن أطلب، قام دسوقي بمسح وجهها وإزالة الأتربة وجلطات الدماء، ثم يُحضر ملاءة نظيفة ويفردها عليها. كانت في حاجة للهدوء حتى تتخلص من لحظات الرعب التي مرَّت عليها، نخرج من الغرفة ونُغلق عليها الباب، أحسّ بالارتياح حين لم أجد سيارة الشرطة. تخلصت من المأمور، أستطيع أن أعالج هذه المرأة المسكينة ثم أتركها ترحل

فور أن تتمالك قواها، أخطو خارجا ولكني أجده جالسا على مقعدي نفسه، ماذًا ساقيْه في الشمس وهو ينفث دخان سيجارته في استمتاع، مازال الكابوس متواصلا. أتناول مقعدا وأجلس مقابله، يسحب ساقيْه قليلا ويُلقي بالسيجارة وهي مازالت مشتعلة على الأرض، يتطلع إليَّ قليلا ثم يقول فجأة: أنت لا تعتقد أنني جئت هنا فقط من أجل هذه الغجرية.

أقول متفاجأ: كنت أظنّ أنك لا تريدها أن تموت داخل زنزانتك.

يقول بلامبالاة: إنها ليست بهذه الأهمية، حيَّة أو ميتة. ليست لها أي قيمة ولن يسأل عنها أحد. في تلك الأنحاء، لا توجد هناك أهمية للكثير من البشر.

يتوقف قليلا ليشعل سيجارة أخرى، يواصل القول: سبب مجيئي هنا أهمّ بكثير.

أشعر بعدم الاطمئنان، لم تكن عندي أي نية للتعامل معه، ولكني أتساءل: خيرا؟

يقول: أنت تعرف أننا نظريًا بلا رئيس للجمهورية، منذ أن تمَّ اغتيال الرئيس السابق في هذا العرض العسكري المشئوم ونحن بلا رئيس، ليس فعليًا ولكن نظريًا.

لا أعرف ماذا يعني، أقول: كنت أعتقد أن نائبه قد تولى السلطة بدلا منه، وأن الأمر قد حسم.

يقول: الأمر حسم فعلا، ولكن النظام في حاجة إلى غطاء من الشرعية، هذا هو دور لعبة الانتخابات ومبرِّرها.

أقول: أعرف ذلك، ولكن ما دخلي بهذه اللعبة؟

يقول: هذه المرَّة ستكون جزءا منها، هذه الوحدة ستكون مقرّا انتخابيّا، ستقوم أنت بالإشراف على عملية تصويت خمسمائة صوت.

أهتف معترضا: وما شأني بهذا الأمر، أنا موظف في وزارة الصحة وليس الداخلية.

يقول: أعرف ذلك، ولكنها انتخابات رئاسية، يعني فوق رءوسنا جميعا، ويجب أن تكون حرَّة نزيهة لا تتدخل وزارة الداخلية فيها، ألا يروق لك ذلك؟

ينظر إليَّ نظرة ذات معنى، هل عرف شيئا عن تاريخي؟ هل قام بالتحرِّي عني كدأب رجال الشرطة؟ ماذا توحي لهجته: سخرية، أم تهديدا؟ أقول فجأة: هل هناك أهمية لهذه الأصوات؟ هل ستؤثر حقّا على الانتخابات؟

يضحك وهو ينهض واقفا، يقول: لا أحد يفوز بصناديق الانتخابات، وكما أقول لك من قبل، إنها لعبة وعلينا جميعا أن نشارك فيها.

يُشير بيده في الهواء، أكتشف أن سيارة الشرطة مازالت موجودة، تقف على مبعدة تحت إحدى الأشجار، تُدير محركها وتبدأ في الاقتراب منَّا، أقول له فجأة: وهذه المرأة، ماذا أفعل بها؟

يزيد من ضحكته وهو يقول: إنها لك، افعلْ بها ما تشاء، إذا ماتت فألقها في عرض الطريق، سيوجد من يدفنها حتى بدون كفن،

وإذا عاشت فسيأتي إليها أهلها من الفجر، سيشمون رائحتها في أي مكان. لا تقلق، اعتبرْها هدية مني.

يركب السيارة وهو يلوِّح لي بيده: بعد أيام ستصلك الصناديق والبطاقات، وعليك أن تعطِّل الوحدة في هذا اليوم.

تزوم السيارة وتُثير المزيد من الأتربة ثم تقفز إلى الطريق الرئيسي لا تهتمّ بمن يقف أمامها من ناس أو بهائم. أظلّ واقفا أحدق فيها ببلاهة حقيقية، يتبعني دسوقي وأنا أعود لداخل الوحدة، أفتح غرفة الكشف وأطلّ على الجازية، ما تزال نائمة، متكوِّمة فوق منضدة الكشف، يصدر منها غطيط خافت، أغلق الباب مرَّة أخرى، يقول دسوقي حائرا: ماذا سنفعل بها؟

أقول: اتركْها نائمة، ولكن ضعْ بجانبها بعض الطعام؛ ربما تنهض وتأكل وتنصرف.

أحسّ فجأة بأنني متعب، أصعد إلى سكني وأحاول أن أستمع للموسيقى، أو أتشاغل بغروب الشمس خلف النخيل، أنام في قلق، أعرف أن الجازية ستقاوم حتى الصباح؛ بنيانها كان قويّا، كانت في حاجة فقط لبعض العناية ولنومة مريحة دون رعب. أغرق في النوم، لا أدري إلى متى، ولكني أستيقظ والظلام مازال سائدا، أتذكر أنها مازالت موجودة تحت سقف الوحدة، لابدَّ أن دسوقي قد أغلق باب الوحدة وانصرف. ترى ماذا حلَّ بها؟ هل مازالت على قيد الحياة؟ كانت مجازفة مني أن أتركها في الداخل، ولكني لم أدرِ ماذا أفعل بها، هل كنت ألقي بها في الخارج وهي على هذه الحالة؟ أشعل المصباح وأدبّ بأقدامي على الأرض حتى تهرب الفئران،

افتح الباب في حذر وأهبط الدرج، أفتح باب غرفة الكشف، أرفع المصباح عاليا حتى أنير المكان، أتوقف مندهشا من المفاجأة، يهتز المصباح في يدي، أراها ملتفّة في الملاءة البيضاء تجلس على منضدة الكشف، مثل شبح استيقظ من بين الموتى، تلتفت نحوي وعلى وجهها علامة الفزع الشديد، تصرخ: من أنت؟ ماذا تُريد؟

أتوقف وأوجِّه المصباح إلى وجهي وأنا أقول لها: لا تخافي إنه..أنا، فقط أنا.

تحدِّق فيَّ بعينيْن جاحظتيْن، أظلّ واقفا، أترك لها فرصة استيعاب المكان الذي تُوجد فيه، ثم أقترب منها ببطء، أضع المصباح بيننا، أقول لها برفق: أنتِ الآن خارج قسم الشرطة.

تُغمض عينيْها وهي تقول: أنت الحكيم، تذكرت الآن.

أقول: أنتِ الآن بعيدة عن أظفارهم، وأنتِ حرَّة أيضا في الرحيل في أي وقت.

تقول في حزن: لا أعتقد أنني سأكون قادرة على المشي لمدة طويلة..

أقول مطمئنا: ستكونين بخير.

تقول وهي على وشك البكاء: أنت لا تعرف ماذا حلَّ بجسدي، لقد ترك كل الشاويشية والعساكر والمخبرين يعتدون عليَّ، كلهم أخذوا نصيبهم من جسدي.

أقول مذهولا: غير معقول.

تقول: قرِّب المصباح وشاهد بنفسك.

تسحب طرف الثوب الممزَّق الذي ترتديه، تكشف عن ساقين مليئتين بالكدمات والجروح الصغيرة، تواصل رفع الثوب عن باقي فخذيها، لا ترتدي أي شيء يستر عورتها، ولكن هناك بقعة دامية جافَّة داكنة تُغطي هذه المنطقة، لا أستطيع أن أتبيَّن شكلها التشريحي، تقول: لا تمدّ يدك، لا تُحاول أن تلمسها؛ سيصيبني هذا برعب قاتل.

أقول: يجب تنظيف هذا المكان، هل تنزفين؟

تقول: كلَّا.. لم أعد أشعر بشيء، لم أعد أشعر بألم، هذا الجزء أصبح مخدَّرا وربما ميتا. بعد أن واصلوا اغتصابي لم أعد أشعر بشيء، حتى وهم يجثمون علي صدري ويلهثون كالكلاب الجائعة لم أكن أشعر بهم، ما إن يدخلوا عليَّ حتى أدخل في ظلمة كثيفة لا أرى ولا أسمع فيها شيئا.

ألفاظها جارحة ومؤلمة، أقول: أنتِ في أمان الآن، سأجعل الممرضات ينظفونه في الصباح، سيضعن عليها المراهم المرطبة وسأعطيكِ بعض المضادَّات الحيوية، ويمكن أن أحوِّلك إلى المستشفى لو أردتِ.

توشك على البكاء: لا ضرورة لذلك، سيأتي أهلي لأخذي وسيعتنون بي على طريقتهم، نحن نتعرَّض للاغتصاب كل يوم؛ النساء والأطفال وأحيانا الرجال؛ لذا نُجيد استخدام الأعشاب لمعالجة هذه الأضرار.

كنت مشفقا عليها، أقول: لماذا تعيشون في هذه الظروف الصعبة؟ ما الذي يُرغمكم على هذا؟

تتنهد وهي تقول: القسمة والنصيب. نحن نخضع للعنة استمرَّت

على طول الزمان. جدنا الأكبر، أبو كل الغجر تصارع مع أخيه على قطيع من الغنم، وفي فورة من الغضب قام بقتله؛ وهكذا غضبت عليه السماء وحلّت عليه اللعنة، ومنذ ذلك الوقت وهو يهيم وذريته على وجه الأرض.

انظر إليها مندهشا، لم أكن أومن بالأساطير كثيرا، ولكنها دون أن تدري كانت تحكي قصة البشرية. ورغم كل ما مرَّ بها لم تفقد مذ قدرتها على الحكي، أقول: رغم كل ما حدث في جسدكِ، فإن رأسك في حالة جيدة.

أرفع المصباح عاليا، أجد رغيفا من الخبز وقطعة من الجبن موضوعة على المنضدة، أقول لها: هنا قليل من الطعام، ويمكنني أن أحضر لكِ المزيد من أعلى إن كنتِ تُريدين.

تقول: يكفيني هذا، أنا في حاجة أكثر إلى النوم.

أقول مشفقا: سأتركك حتى ترتاحي، هل أترك لكِ المصباح؟

تقول: كلَّا.. الغجر مثل القطط، لا يكونون على طبيعتهم إلا في ظلمة الليل.

أحمل المصباح وأصعد السلم، لا أدري لماذا جعلني ما فعلته مع هذه المرأة أشعر بقدر أخفّ من الذنب، أنام بعمق للمرَّة الأولى منذ أيام.

في الصباح المبكر أستيقظ على صوت دقات دسوقي على الباب، يقول: لقد جاء أقارب المرأة الغجرية، إنهم يملئون المكان ويريدون أن يأخذوها.

أتساءل مندهشا: كيف وصلوا إليها بهذه السرعة؟ لابد أن لهم عيونا مبثوثة في كل مكان.

أهبط إليهم وأرى وجوههم الغريبة التي دبغتها الشمس، وثيابهم المحمَّلة بتراب الطرقات، وعربة وحيدة ملوَّنة بكل الألوان على جانب منها صورة فتاة تشبه الجازية، يتقدَّم إليَّ رجل ضخم وهو يقول: نريد ملكتنا، للمرَّة الأولى أعرف أن لها منصبا مهمّا.

أقول: سأسألها أولا.

في غرفة الكشف أجدها مستيقظة ومازالت ملتفّة بالملاءة البيضاء، الكدمات والبقع الزرقاء ما تزال تملأ وجهها، ولكنها استعادت بعضا من ملامحها القديمة، تقول على الفور: لم أرد أن أذهب معهم قبل أن أشكرك.

أقول: أنت ما زلت مريضة، هل تُريدين الذهاب معهم حقّا؟

تقول: لا يوجد لي مكان إلا بينهم.

أشير لدسوقي أن يفتح باب الوحدة كاملا، يدخل بعض الرجال والنساء، يُحيطون بها وهم يُغالبون دموعهم، تعدل النساء ثيابها، ويُرتبنَّ شعرها، ويضعنَّ زهور البرسيم الصغيرة في خصلاتها، ثم يتراجعنَّ للوراء ويتقدم ثلاثة من الرجال، يُحركون جسدها في رفق ويستعدون لحملها ولكنها ترفع يدها لتوقفهم، تقول في لهجة آمرة: أحضروا لي عصا.

يُسرعون إلى العربة، كأنهم كانوا يتوقعون هذا الطلب، يُحضرون غصن شجرة قد تمَّ تشذيبه ليُصبح عصا قوية، تهبط من على منضدة

اللف مستندة إليها، يختلّ توازنها قليلا ولكنها لا تسقط. واضح على وجهها أنها تتألم ولكنها لا تشكو ولا تُصدر صوتا، تسير ببطء بطيئة والجميع يضمون أيديهم إلى قلوبهم وهم يبتهلون يدعون لها حتى لا تسقط. تقف عند باب الوحدة وتُعطيني ابتسامة موجعة، أقول لها: هل يمكن أن أعطيكِ بعض الأدوية لتساعدكِ على الأقل في تحمل الألم.

تبتسم وتقول في إنهاك: افعل يا حكيم.

أسرع إلى غرفة الأدوية، أختار أشياء تخفض حرارتها وتخفّف ألمها وتُساعد جروحها على الاندمال. أعود فأجدها واقفة في انتظاري، متوكئة على العصا، تأخذ كيس الدواء مني وتُعطيه لواحد من أتباعها، تقول لهم في صوت مسموع: ابتعدوا قليلا.. أريد أن أتحدَّث مع الحكيم.

يتراجعون جميعا بظهورهم، يتركون الفناء حولنا خاليا تقريبا، تلتفت نحوي، أرى عينيْها لامعتيْن ممتلئتيْن بالدموع، تقول في صوت خافت ولكني أسمعه جيدا: أنا راضية. في أي وقت تُريدني في أي مكان تُريده، أنا راضيـة. إذا أردتني أن أشاركك الفراش أو فقط أسهر الليل بجانبك، أنا راضية. شاركتني طعامك أو تركتني جائعة، أنا راضية. استخدمت جسدي كما تُريد أو جعلتني عبدة أنفّذ كل رغباتك، أنا راضية. عاملتني برفق أو تركت علاماتك على جسدي، أنا راضية. اكتفيت بي أو شاركتني مع أخرى، أنا راضية. أردتني الآن أو انتظرت حتى تندمل جروحي، أنا راضية.

أود أن أقبِّل رأسها أمام الجميع، ولكني لا أمتلك الشجاعة

الكافية، أكتفي بأن أضع يدي على كتفها، أضعها برفق لأنني أعرف أنها تتألم، أتراجع للوراء وأشير لها مودِّعا. تُواصل السير ويقترب بقية الغجر منها ببطء ويُحيطون بها. تتوقف بجانب العربة، تصعد النسوة لأعلى ويتقدَّم الرجال ويأخذون منها العصا، ثم يحملونها ويرفعونها إلى أعلى، تستقبل النساء جسدها بنفس الرفق والحنان، تنظر نحوي وتُهديني ابتسامة موجعة. من المؤكد أن جسدها كله كان يتألم ولكنها تظل متحمِّلة، فكرت هل يقدرون على علاجها، أم سيفقدونها على طرقات سفرهم الطويلة؟ يُهللون في حبور حين يطمئنون على استلقائها وتبدأ عربتهم في السير، أراقبهم حتى يختفوا عن الأنظار، ثم يبدأ أهل القرية في الظهور، كأنهم كانوا لا يُريدون الاختلاط بالغجر، تظهر فرح أيضا.

يخفق قلبي وأنا أراها قادمة عبر الساحة، أنظر إلى وجهها فأجده محايدا لا مبتسما ولا مقطبا، تحييني بهزّة من رأسها قبل أن تدخل الوحدة، مثل أي غرباء عابرين، ربما لا تريد أن تكشف عما دار بيننا، ينتهي دسوقي من تنظيف غرفة الكشف، تلقي فرح عليَّ نظرة متسائلة، لكن المرضى لا يدعون لنا مجالا للشرح. ظلّت متباعدة، تصرّ على أن تعاملني بطريقة رسمية، حاولت أن أقرأ إثر ما حدث بيننا في أي حركة من جسدها أو كلماتها، أخيرا بعد مرور أكثر من ساعتيْن وجدت فرصة ضئيلة حتي أسألها: ماذا حدث؟

تردّ بسرعة: لماذا تحدثت معه؟

أقول مندهشا: من؟

تقول: زوجي. تدخلت فيما ليس من شأنك، وأثرت شكوكه.

يدخل مريض فيبتر الحديث، وتظلّ كلماتها معلّقة في الهواء،
ح المريض ولا يدخل آخر، أقول لها: أردت أن أطمئن عليكِ،
ب أن نتحدّث.

تقول في خسم: انسَ كل شيء، ما حدث لن يتكرَّر، لا أريد أن
ر حياتي.

٨

ثلاثة رجال، طوال عراض، شواربهم ضخمة كأنها خطّ متصل عابر لوجوههم الثلاثة، يقفون أمامي في غرفة الكشف، يلقي على بقية المرضى نظرات غاضبة تجعلهم يتراجعون، يمسكون عصا غليظة يدقون بها الأرض في توتر، يتقدّم أطولهم من مكتبي وهو يقول: السيدة هي التي طلبتك بالاسم.. نريدك أن تأتي الآن، وتلقي نظرة عليها.

لا أعرف من هم، ولست مرتاحا لوقفتهم أمامي، أحسّ أن فيها نوعا من التهديد، أقول: أي سيدة؟

يقول الشخص نفسه كأنه المخوّل بالكلام: السيدة جليلة.. أنت تذكرها بلا شكّ؟

تلتفت فرح نحونا وهي تقف بعيدا في ركن الغرفة، مازالت السيدة على قيد الحياة، لم أكن قد سمعت عنها منذ إعلان فضيحة أبانوب الخيَّاط، ترى هل مازالت مريضة؟ هل تمارس حياتها بشكل طبيعي بعد أن تمَّ طرد حبيبها السري؟ يقف الثلاثة ويسدون عليَّ مجال الرؤيا، نظراتهم وحدها كفيلة بإبعاد المرضى، أتذكر ماذا حدث للخيَّاط التعيس، أقول: العيادة مازالت في أولها، وهناك الكثير من المرضى.

يقول في إصرار: لن نأخذ الكثير من الوقت. لن يذهب المرضى إلى مكان آخر، وحالة السيدة خطيرة لا تحتمل الانتظار.

أشعر بالتردد في السير معهم رغم أننا في وضح النهار، تنسحب ... سريعا وتتجه إلى غرفة رعاية الأسرة؛ خائفة من اختياري لها، ... لم تكن متلهفة على مصاحبتي في كل خطوة، يتدخل دسوقي ... يطلب مني الحديث على جنب، يقول: إنهم أقارب زوجها، وهم ... لن نستطيع التخلص منهم بسهولة، من الأفضل أن نذهب، ... إلا سيبقوْن في الوحدة طوال اليوم.

أعدّ حقيبتي، ويسير دسوقي خلفي، لا توجد ركوبة، لم أكن أنوي استخدامها على أي حال. يسير الثلاثة في المقدمة وأنا ودسوقي خلفهم، القرية تبدو هادئة ومترقبة، اعلم أن الرجال في الحقول، لكن أين الأطفال؟ لماذا لا يلعبون، ولماذا لا أسمع أصواتهم؟ نصل إلى المصرف الموجود على طرف القرية، ونعبر الكوبري المتهرئ، الرحلة نفسها التي قمت بها بصحبة فرح. حدث هذا منذ أسابيع قليلة ولكن أمورا كثيرة تغيرت، يظهر البيت المبنيّ من الطوب الأحمر وسط الزرع، يتقدم أحدهم ويدفع البوابة الحديدية، أعرف طريقي إلى داخل البيت، ولكن الثلاثة أصروا على أن يصحبوني للداخل، مازال الأثاث على حاله، والصور التي على الجدران موجودة، نعبر الغرف. اعتقدت أنهم سيأخذونني إلى غرفة النوم الرئيسية، ولكنهم لدهشتي يقودنني للغرفة نفسها، المنزوية الخالية من الأثاث؛ حيث لا توجد إلا الحشيَّة الوحيدة التي كانت ترقد عليها، ومازالت ترقد عليها في الوضع نفسه. يقفون جميعا خارج الغرفة ويتركونني أتقدم وحدي، هل مازالت تعاني من آثار الإجهاض القديم؟ الغرفة على

حالها، مقبضنة وخالية من الهواء النقي، هل ظلت موجودة طوال الوقت في هذا المكان، أقترب منها، جسدها ساكن تماما، لا تشعر بدخولي ولا تسمع أصوات بقية الرجال، أنحني عليها وأهتف باسمها، لا ترد ولا تتحرك ولا يبدو أنها تتنفس، أهزها برفق لكنها لا تستجيب، أزيح الغطاء قليلا لأرى وجهها. للمرة الثانية أراها ملونة بالدم المتجلط، ليس في رحمها ولكن في وسط صدرها، قريبا من مكان القلب. أنظر إلى وجهها الشاحب المتقلص وعينيها الجامدتين المفزوعتين. أمسك أطرافها الباردة وأضع أصابعي على وريد العنق، لا يوجد أثر لأي نبض، ميتة تماما، تمَّ طعنها حتى الموت دون أن يبالي أحد بإخفاء ذلك، أرفع رأسي حائرًا، أتطلع إلى وجوههم الثلاثة التي تحدِّق فيَّ. أنهض واقفا، أواجه جمودهم المميت، أقول لهم من بين أسناني: لماذا أصررتم على جلبي من الوحدة إلى هنا؟ أنتم كنتم تعرفون أنها ميتة، مقتولة.

يقول الأطول: إنها فقط ميتة، هذا ما يبدو عليها.

أغتاظ من صفاقته، أقول: وماذا عن كل هذه الدماء التي تلوثها؟

يقول: لا نريد منك أن تعيدها للحياة، نريد فقط شهادة بوفاتها.

أقول: لست أنا الذي يصدر هذه الشهادة.. الطبيب الشرعي هو وحده من يصدرها.

ترتفع أصواتهم غاضبة، يزداد جو الغرفة قتامة، يسدون عليَّ باب الخروج، يتقدَّم واحد آخر منهم نحوي، لم أكن أعرف أسماءهم، كل ما علق في ذهني هو أطوالهم المختلفة، يقول: فلنتحدث في غرفة أخرى يا دكتور.

لم يكن هناك كلام يمكن أن يقال بيننا، ولكني كنت أريد أي
حجة تخرجني من الغرفة ومن جوار هذه الجثة. نعبر الممرَّ إلى
غرفة أخرى، كثير من النسوة يجلسن على الدرج صامتات، لا
عويل ولا نواح. أسير معه إلى غرفة أخرى، يبدو أنها حجرة نوم
السيدة جليلة الرئيسية؛ فراش فاخر وصوان به مرايا ومنضدة للزينة،
باب الصوان نصف المفتوح يكشف عن الكثير من الثياب النسائية
المعلّقة، يُحكم الرجل إغلاق الباب قبل أن يستدير نحوي وهو
يقول في لين: ليس لدينا طبيب شرعي، ولا نحتاج إلى عيون غريبة
تدخل بيننا وتكشف أسرارنا، أنت كلّ ما لدينا ويجب أن تسهِّل لنا
الأمور.

أقول: هذه جريمة قتل، أنت تعرف ذلك وهذا فوق تخصصي،
وكفيل أيضا بأن أفقد مهنتي.

لا يبدو أنه يبالي بكلماتي كثيرا، يعاود الحديث، يقول: أنت
تعرف حجم الفضائح التي تسببت فيها هذه السيدة، علاقتها مع
هذا القبطي جعلتنا لا نستطيع رفع رءوسنا حتى الآن، إنها تستحق
الموت أكثر من مرَّة.

تذكرت كلمات فرح عندما قالت إنه في هذه القرية لا أحد ينسى
ولا أحد يغفر، أقول: لم تستطيعوا أن تغفروا له؛ لذلك قمتم بقتلها.

يقول معترضا: لم نقتلها، ولا نعرف مَنْ قتلها ولكنها إرادة الله.

يمدّ يده داخل جيبه الداخلي، يُخرجها وهو يُمسك رزمة من
الأوراق المالية الكاملة، وليست تلك العملات الصغيرة التي
أتلقاها في الوحدة، يقول: أنت أولى من الغريب، سيأتي الطبيب

الشرعي وسيوقع على ما نريد، ولكن بدلا من الفضيحة والشرطة، أنت منا وعلينا وسوف تستفيد من هذا المبلغ.

أقول له: يكفي بلاغ صغير من أقاربها حتى تأتي السلطات وينبشوا القبر، وينفضح كل شيء. لا أريد أن أكون أنا الضحية، فليتحمل الطبيب الشرعي ذلك.

أخرج من الغرفة مندفعا، دسوقي يقف في انتظاري وعلى وجهه علامات الخوف، والأخوان الاثنان يقفان في تحفز. أهبط الدرج بسرعة، توسَّع لي النسوة المتشحات بالسواد طريقا، ربما لو لم يكُنَّ موجودات لما عرفت طريقي إلى الخارج، نعبر البوابة الحديدية، يقول دسوقي: ما كل هذا الجدل؟ لم نظفر منهم بجنيه واحد، لماذا لم يدفعوا أسجرة الكشف؟

لا أردّ عليه، أسمع كلماته في أذنيَّ مثل الطنين، نعبر القرية الصامتة، دون وجود للأطفال، كأنهم يعلمون جميعا أن هناك جريمة قتل قد حدثت، ربما سمعوا صراخها في منتصف الليل، ولكنهم جميعا متواطئون على الصمت ماعدا دسوقي الذي يُصرّ على الطنين في أذنيَّ، أسبقه بعدة خطوات حتى لا أستمع إليه. تبدو الوحدة ممتلئة بالمرضى ينتظرون في صبر، يدهشني أن أحدا منهم لم ينصرف. ألقي بالحقيبة وأدخل غرفة الكشف، تأتي فرح لمساعدتي بطريقة آلية، ولكن بوجه مختلف؛ قلق ومتوتر. أعرف السؤال الذي تريد أن تقوله، أبادرها بالقول: قتلوها. تشهق بصوت عالٍ، ترتد وتستند إلى الحائط، ينظر إليها المرضى في دهشة، ويتقدَّم دسوقي نحوها خطوة، ولكنها تعدو فجأة خارجة من الوحدة، لم تكن تريد آن يراها أحد وهي تبكي، لا أعرف نوع الصداقة التي نشأت بينهما،

الآن فجأة يتبادر لذهني خاطر مرعب، هل رأت نفسها في مكانها؟ هل قارنت ما حدث بيني وبينها بما حدث بين جليلة والخيَّاط؟ هل علينا جميعا أن ننتظر العقاب؟

لم تأتِ الشرطة إلا في اليوم التالي، اقتحمت سيارة البوكس السوداء شوارع القرية الضيقة، ارتفعت وانخفضت مع تضاريس الطريق، قفز الناس وحتى البهائم من أمامها. أراقبها من شرفتي، سيذهبون للمنزل ويبدءون التحقيق والتفتيش وينتهون إلى لا شيء. أعرف هذا مقدما، لم تحضر فرح العيادة في الصباح، المرضى أيضا لم يحضروا، وجود الشرطة غير الاعتيادي قد بث الرعب في قلوبهم جميعا، كانوا في عالم صغير يحكمه العمدة والغفر، ولكن مشكلتهم تبدأ عندما ينفتحون على عالم السلطة الواسع. وجود الغرباء في القرية يهدد وجودهم، لا يريدون أن يروْها بشكل مباشر وفج، أتوقع أن يأتي أحد من الشرطة لاستجوابي، أو يتمّ استدعائي لهذا الأمر، ولكن هذا لم يحدث. ظلّ رجال الشرطة متناثرين مثل غربان سود، يجد دسوقي من واجبه فجأة أن يمدّني بالأخبار، لم يتكلم أحد، لم يدلِ أحد بأي معلومات، والأهمّ أن الطبيب الشرعي قد كتب بالفعل شهادة الوفاة؛ هبوطا حادًا في الدورة الدموية، وأنه قد أصدر تصريحا بالدفن. اقتنع الجميع بأنه حادث سطو، قام به أحد من خارج القرية بالتأكيد، وفي اليوم التالي كان موعد الجنازة ووقفت في شرفتي أراقبها. لم يوجد الكثير من الناس كما توقعت، ولم يكن الإخوة الثلاثة متواجدين، كانت هناك نساء، الكثير منهن، يسرن في حزن مكتوم، لم يكن هناك رجال يحملون النعش. كان كبيرا ومغطى ببساط أخضر مطرزٍ بآيات قرآنية، ولكنه موضوع فوق عربة «كارو» يجرّها حصان أعجف، كان أكثر حزنا منهم جميعا،

يسير ببطء منكس الرأس دون أن يوجد من يودِّعها وداعا حد..
ربما يكون أبانوب مختبئا في مكان ما، لكنها بدت وحيدة لدر..
تكسر القلب، وكان هناك صفّ من رجال الشرطة يسيرون خا..
النسوة. حسبت أنهم قد خرجوا لتشييعها لقلة الرجال، ول..
اكتشفت أنهم يغادرون القرية نهائيًا. صمت الفلاحين والروا..
البديلة جعلا دفن السيدة جليلة وحكايتها مرتجاتيْن وسريعتيْن..
ففي النهاية لا تأبه السلطات قليلا بهؤلاء الذين يموتون في القر..
النائية. عندما اختفت العربة من أمامي، شعرت بحزن جارف، خيِّل
إليَّ أنه كان في استطاعتي أن أعمل لها شيئا يخفف من مصير..
المؤلم ولكنني لم أستطع.

في اليوم الثاني جاء المأمور للمرَّة الثانية للوحدة، زيارة
ثقيلة كعادته، كنت قد انتهيت من العيادة، وحضرت فرح سريعا
وانصرفت سريعا، وبدا أن المأمور يعرف مواعيدي جيدا، ترك
البوكس بعيدا تحت ظلِّ شجرة وأخذ يدخن ويشرب الشاي الذي
أعده لنا دسوقي، قال: هل تعرفها جيدا؟

أدركت أنه يتحدَّث عن جليلة، ولم أكن في حاجة لإخفاء أي
شيء. حكيت له عن زيارتي الأولى، ونصف الحكاية عن الزيارة
الثانية، لا أريد أن أورِّط نفسي في شيء، لا أريد أن أكون الوحيد
الذي تكلم. يحدق فيَّ بشكل مباشر وهو يقول: خبرتي تقول إن
الاخوة الثلاثة هم الذين قتلوها، وهو ما يحدث دائما. ولكننا
دائما ما يواجهنا جدار من الصمت. يوجد الدافع واضحا وجليًا،
ولكن دائما لا يوجد شهود؛ لا شهود إثبات ولا شهود مصادفة، لم
ينطق أحد بحرف يجعلنا نُمسك طرف خيط، ولا شكوى نبدأ منها

حقيقا، لم يكن هناك بُدّ من أن نغلق القضية مثل عشرات القضايا التي تُصيبنا باليأس.

يصمت ويخفض رأسه، ويرفعها وهو يقول: هل رأيت البيت من الداخل؟

أقول مندهشا: بيتها؟

يقول: طبعا بيتها، كيف كان؟

أقول: لم أتجول في البيت كثيرا، لكنه كان بيتا موسرا كما أرى، أكثر ثراء من بيوت الفلاحين ماعدا العمدة طبعا. كان بيتا مليئا بالأثاث والستائر والنجف، ولكنها تركت كل هذا لتنام على حشيَّة في غرفة منعزلةٍ.

قال المأمور: هكذا توقعت، ولكننا لم نجد شيئا.

لا أفهم، أنظر إليه محتارا، يكمل: كان البيت خاليا تماما، على البلاطة كما يقولون؛ لا أثاث ولا سجاجيد ولا أسرَّة ولا مقاعد، لقد تدبرنا مقعدا بالعافية ليجلس عليه وكيل النيابة.

أنظر إليه مندهشا: لقد رأيت إحدى الغرف، أعتقد أنها كانت غرفة نومها، كانت مكتملة وكان هناك صوان مليء بكل أنواع الثياب، أين ذهب كل هذا؟

يستعدّ المأمور للنهوض: يحدث هذا كثيرا، ولكن هذه هي المرَّة الأولى التي أجد فيها بيتا يتمّ سلبه حتى النخاع.

ينهض واقفا يقول: لقد انتهيْنا من هذا الأمر سريعا؛ لأن الانتخابات باتت على الأبواب. بعد عدة أيام ستصل إليك الصناديق والبطاقات، القرية أصبحت نظيفة أخيرا.

٩

أكتشف فجأة وجود الصور بكثافة وأنا عائد من كشف خارجي، كانت تملأ كل مكان في القرية، معلقة على جذوع النخيل، وملتصقة على الحيطان الطينية للبيوت، ومثبتة بالمسامير على أعمدة التلغراف، حتى الجدران الداخلية للمقهى المكوَّنة من الخوص كانت تحمل بعضها. أتوقف أمام صورة كبيرة نسبيًا ملتصقة على جدران المسجد الوحيد، أقف أمامها متأملا؛ فرعون جديد يتأهب ليأخذ مكانه فوق العرش، لا يرتدي قناعا ذهبيًا مثل أسلافه من الفراعنة، ولكن ملامحه في حد ذاتها قناع حي، أعيد تشكيلها بواسطة كهنة سريين كانوا يتوقعون هذه اللحظة ويُعِدُّونه للعرش؛ الأنف الممتدّ قليلا، الشفتيْن البارزتيْن والذقن الملتوي لأعلى، تلتقى كلها في خط وهمي عمودي مع الوجه، عمل يتسم بالإتقان كدأبهم دوما. أتأمل عينيْهِ التى حافظت الصورة على بريقهما؛ طموحا واضحا ورغبة في الاستئثار، «سوف يعمر طويلا»، أسمع صوتا قادما من خلفي، ألتفت لأجد الأستاذ عمر مدرس أول اللغة العربية. يقف بجانبي بقامته المرتفعة، رأيته قبل ذلك في المدرسة، وفي الوحدة مرَّة أو مرَّتيْن، انطباعي الأول عنه أنه مدرس تقليدي، ينتقد ويغضب ولكنه يخاف أولا من حضرة الناظر، ويصيبه المرض

ـم الخصم من مرتبه، أدهشتني ملاحظته، أقول له: هل تتحدث
هذه الصورة؟

يقول: أليست هذه صورة الرئيس القادم؟ لماذا يضع صورته
يجهز للانتخابات وهو يحكم بالفعل؟

أقول بسخرية خفيفة: الانتخابات أمر مهمّ حتى ولو لم تكن
هناك حاجة إليها.

يقول: نحن مغرمون بإقامتها، ولا نكفّ عن تزويرها، حتى
الفراعنة عندما كانوا يُزيلون نقوش الفرعون القديم ويستبدلونها
بنقوش الجديد، كان هذا أقدم أنواع التزوير.

يعود لتأمل الصورة في تمعن، يحاول النفاذ إلى ما وراء الملامح
الغامضة، يقول: رغم رداءة الطباعة ولكني أرى هذا الرجل جيدا؛
تلك الجبهة العريضة لن تعرف التجاعيد أبدا، والابتسامة غير
المبالية ستظلّ هكذا لن يعنيها شيء، لا سرور ولا ألم، لا انفعال
ولا شفقة ولا تعاطف، وهذا هو سرّ العمر الطويل، وتلك الشفتيْن
البارزتيْن بما فيهما من شهوة التملك والعبّ من متع الحياة، سيكون
ثريّا هذا الرجل.. أكثر ملوك مصر ثراء.

ينظر إليَّ طويلا، أتطلع إليه بوجه جامد؛ وجه المقامر الذي
يلعب الدور الأخير، يتراجع معتذرا وهو يقول: لا أريد أن أورِّطك
بكلماتي، أنت لم تسمع مني شيئا.

ينصرف من أمامي بسرعة، يستدير متجها لداخل القرية، يخيَّل
لي أنه سينكفئ على وجهه ولكنه يواصل السير المتعثر، أشير إلى

دسوقي الذي كان يقف على مبعدة، أسأله وهو يسير بجانبي: متى تمَّ وضع هذه الصور؟

يردّ في حيرة: لابدَّ أنهم تسللوا في الظلام، لقد وضعوها في كل مكان، حتى على جدران الوحدة.

أقول مندهشا، جدار وحدتنا، كيف لم ألاحظ ذلك؟

بالفعل.. أجد الكثير من الصور على جدران الوحدة، وتحتها الشعارات المعتادة عن عصر جديد سيشرق، وأحلام سوف تتحقق، ما دام هذا الرجل التاريخي قد جاء، فسوف يصاحب القدر وقع خطواته. أسير محنيَّ الرأس نحو باب الوحدة، أفاجأ أن هيكل المأمور الضخم يسدّ الباب وهو يقف مترقبا قدومي، يقول هذا الرجل الذي كنت تتحدث إليه في شوارع القرية، لا يجب أن تتحدث إليه؛ إنه مشاغب..سوف يتسبب لك في المتاعب.

أنظر نحوه مذهولا: هل تضعني تحت المراقبة؟ على أي حال، لم نتحدث في شيء ذي بال.

يواصل القول: أنت لست مراقبا، حتى الآن على الأقل، ولكن هو المراقب، حتى في هذه القرية النائية، هناك عيون، وهو يعرف أنه مراقب وسوف يتمّ القبض عليه.

أهتف في فزع: تقبضون عليه لماذا؟ إنه مجرد مدرس عادي.

يقول المأمور في برود: نعرف، ولكن لابدَّ أن نفعل ذلك. إنه جزء من طقوس الشرطة، في كل مناسبة سياسية مهمة يجب القبض على هذا الصِّنف من البشر حتى تسير الانتخابات في هدوء، لا تُقلق بالك.. سنفرج عنه فور انتهائها.

،صمت قليلا: أنت لن تُخبره بذلك، مسألة يسيطة مثل هذه لا ، اج للتحذير، عليك أن تجعلنا نستعيد الثقة بك.

،حدث بجدية مخيفة، يشعرني بأنني في قبضة لا تُريد أن ،ان من حولي؛ قبضتهم. أنظر إليه في غيظ، يُجيد تأدية دوره، ، امل بمودة مرعبة، ولكنه بخفة ومهارة يُخلّص وجهه من قناعه المخيف، ويُضيف بمرح: عموما، لا يجب أن تغادر الوحدة في هذه اللحظات التاريخية.

أقول محوّلا الموضوع: هذه الصور، متى وضعت هكذا؟

يقول في افتخار: أرأيت، شغل محترفين. في استطاعتهم ، صول إلى أبعد مكان، حتى إلى جدران قريتك التعيسة.

أقول مستغربا: بمثل هذه الكثافة؟

يردّ عليَّ: نحن في عالم جديد، يجب أن تنطبع هذه الصورة في أذهان الجميع حتى تمحو صورة الرئيس السابق، هكذا تسير الأمور؛ كل واحد جديد يُريد أن يفرض وجوده على ذاكرة الجميع.

أتذكر كلمات المدرس عن محو النقوش الفرعونية القديمة، يُشير بيده إشارة غامضة في الهواء، تظهر عربة الشرطة السوداء من اللامكان، تزوم وتُثير الأتربة حتى تتوقف أمام الباب، أتطلع إليه في دهشة ولكنه يقول: لقد أحضرت الأمانة؛ بطاقات الانتخاب، والصندوق المغلق بالشمع الأحمر وزجاجات الحبر الزفر، والحاجز الخشبي الذي سيقف وراءه الناخب؛ كل أدوات المسرحية موجودة.

أقول متظاهرا بالدهشة: مسرحية؟

يرد مؤكدا: قلت لك من قبل، الصناديق لا تختار الرئيس، الله وحده هو الذي يختاره، يأتي به من المجهول ليحكم ويعلو قبل أن يختاره إلى جواره، كل شيء عدا ذلك هو مجرد مسرحية.

لا أملك إلا أن أتابعه في دهشة، ها هو يكشف لي عن جانب خفيّ من شخصيته، كنت أريد أن أتناقش معه، ولكني كنت خائفا منه، خائفا منهم كلهم، يهبط من العربة بعض الجنود وهم يحملون الصناديق، يقول: هذه الصناديق عهدتك الآن، احتفظْ بها في مكان أمين حتى يوم الانتخابات.

أقول: ماذا؟ هل تخشى التزوير؟

يقول بمرح: يجب أن تكون المسرحية محبوكة، استلمْ عهدتك

أرشد العساكر إلى غرفة الأدوية؛ المكان الوحيد الذي أتحكم في إغلاقه. يراقبني المأمور قبل أن يتنهد في ارتياح عندما أغلق الباب بالقفل، يقول: ستكون الانتخابات في أول الأسبوع القادم، لن يكون هناك عمل بطبيعة الحال، ولا نحبذ حضور الموظفين من أهل البلدة منعا للشبهات.

يضحك للمرّة الأولى، ويضع يده على كتفي وهو يقول: تذكر الحبكة المسرحية.

يقفز داخل السيارة، ويزوم محركها مثيرا كل الأتربة، أظلّ واقفا حتى تختفي من أمام عينيَّ، أعود لغرفة الأدوية ورأسي يدور، أتأمل الصناديق؛ همّ ثقيل ومفاجئ حلّ على كتفي، اللعبة التي كنت أقف

،ى الجانب الآخر منها، التي دخلت السجن ثمنا لمعارضتها، اصبحت الآن جزءا منها، كان عليَّ أن أشعل النار الآن في هذه الصناديق، ولكن هذا لن يغير من الأمر شيئا، وقد يقودني للسجن ، ، أخرى. أصعد إلى الأعلى وأنا أشعر بأن الوحدة قد أصبحت ،حترقة، وأن هذه الصناديق معبأة بأجهزة للتجسس عليَّ وعلى مباني؛ لذلك لم أجرؤ على التفكير حتى في فرح. كنت حزينا لأنها ،انت بهجتي الوحيدة في هذا المكان؛ ولأن علاقتي معها لم تصل امداها.

قبل الانتخابات بيوم، أمنح العاملين يوما للراحة، لا أحتاج لأن ،نواجد أحد منهم. تتطلع فرح نحوي بنظرة متسائلة، أودّ أن أدعوها و حدها للبقاء؛ ربما نستطيع أن نتفاهم معا، نصل إلى اتفاق مشترك و إلى الجحيم بالانتخابات، ولكني لم أجد فرصة للحديث معها منفردة، الأصحّ أنها لم تعطني الفرصة. أستيقظ مكتئبا، أجد اثنيْن من رجال الشرطة واقفيْن بجانب الباب الخارجي، متصبيْن وصامتيْن، لكنهما لا يرفضان ما قدَّمته لهما من الطعام وأكواب الشاي، كنت متأكدا أنهما جاءا على لحم بطنهما. أخرج الصندوقيْن؛ أحدهما كان ،ارغا ولكنه مغلق بالشمع الأحمر، هذا هو الصندوق الذي سيتلقى البطاقات الموجودة في الصندوق الآخر. وضعته فوق مكتبي، و استخدمت الحاجز الموجود في أحد الأركان حتى يكون مكانا يختفي خلفه أي شخص ليوقع بطاقته. أنزل من مسكني، الراديو الصغير لم يكن يذيع غير الأغاني الوطنية، وكان هذا مناسبا لإضفاء الجو الزائف للانتخابات، أحضر رواية إنجليزية ضخمة وأنشغل بقراءتها، أو أتظاهر بذلك، لم أدرِ عمَّ تدور بالضبط لأن عينيَّ كانتا

مشتتيْن بين سطورها وبين الطريق الخارج من القرية نحو الحقول. لم أرَ أحدا، لا هم ولا المواشي، لم تأتِ الحافلة «أحلاهم»، لم تمرق حتى دراجة بخارية واحدة، لا شيء إلا الفراغ والريح التي تلعب مع النباتات. كان هناك ذباب كثير، كلما هششته عاد، وكانت هناك عصافير تحطّ على السور وتتلفت حولها بعيون قلقة وبارزة قبل أن تطير مبتعدة، ظللت أراقب مالك الحزين وهو يقف على ساق واحدة ويبحث في الطين عن دودته المفقودة، وكانت الشمس تفرش ضوءها قبل أن تنسحب ويأتي الظلّ ثم يصبح الظلّ حسيرا ولا أحد يأتي، ولو بطريق الخطأ، لا أحد يشكو من مغص، ألم، جرح، صداع، لم تقع مشاجرة، لم يعتدِ أحد على أحد، أو يضرب زوجته، لم يتعثر أحد، أو يقع من على الدرج، أو يشكو من عضة كلب أو فأر أو لدغة عقرب أو ثعبان، لا شيء. قرية هادئة ساكنة كأنها تعيش اللحظات الأولى من بدء الخلق، غير قادرة على التحرك أو تقرير مصيرها. أنهض من مقعدي وأسير نحو باب الوحدة، أنظر إلى الشرطييْن الواقفيْن بجانب الباب، يتبادلان معي نظرات قصيرة مليئة بالإحراج، هل كانا يرثيان لي لأنه لا يوجد من يأبه بي؟ كلّا.. أهل القرية يأتون إليَّ كل يوم حاملين آلامهم وهمومهم، ولكنهم اليوم خائفون من هذه الصناديق والبطاقات، ومن هذيْن الشرطييْن، ومن هؤلاء الذين يحكمونهم دون أن يأبهوا بهم. أقف مرَّة أخرى وأطلب منهما الانصراف، يردّ أحدهم: ولكنها الأوامر يا أفندم، يجب أن نظلَّ واقفيْن في هذا المكان، لا نكلم أحدا، ولا نتحرش بأحد، نبقى فقط واقفيْن.

يبقيان في الوضع ذاته ولا أحد يأتي حتى بعد أن بدأت الشمس

.ميل خلف صفّ النخيل، أنظر إلى البطاقات الخالية، وأهزّ الصندوق الفارغ لعله يمتلئ فجأة ببطاقات غير مرئية، أجلس على مقعدي وألف ذراعيَّ حول صدري، أشعر ببرد يغمر أطرافي، أتمنى لو يأتي أي أحد يلقي عليَّ التحية ويمضي، ولكن صمت السكون يظلّ ثقيلا، ولكن ليس إلى الأبد، يرتفع صوت محرك السيارة مبددا السكون، يثور الغبار المصاحب للغرباء، تظهر السيارة بلونها القاتم وتقف خلف باب الوحدة تماما، يظلّ المحرك دائرا، يقفز من خلفية السيارة عدد من رجال الشرطة، ويأخذون وضعية الاستعداد للهجوم، أو هكذا تصورت. يُفتح الباب ويقفز المأمور، كان يجب أن يأتي. يرفع الشرطيان أيديهما بالتحية، ويضربان الأرض بأقدامهما، ويقفز المأمور من منتصف الساحة إلى منتصف الغرفة تقريبا، يضرب ساقه بعصا رفيعة، يقف في مواجهتي سعيدا، مشرقا، يهتف بصوته القوي: كل شيء تمام؟

أقول: كلّا.. ليس تماما، لم يحضر أحد.

تتغير ملامح وجهه، تذهب الإشراقة وتأتي الشراسة، يواصل التحديق في تشكك: ماذا تعني؟ لم تحدث أي عملية انتخابية!

أومئ برأسي وأنا أشير للصندوق: انظرْ إليها مازالت خالية.

يواصل اندهاشه: كيف؟ الصور تملأ القرية، والموعد معروف، وهؤلاء الناس لا يُجيدون غير طاعة الحكومة، ما الذي دفعهم للعصيان هذه المرَّة؟

سؤال بلا معنى ولا إجابة، يواصل النظر إليَّ في تشكك وهو يقول: هل كان لك دخل في ذلك؟

أقول: يمكنك أنْ تسأل الشرطيَّيْن عند الباب عن ذلك.

يدور حول نفسه وهو ينفخ، يتوقف وهو يصيح: ماذا ننتظر إذن؟ هيًّا نبدأ العمل.

اعتقدت أنه سيشير للعساكر حتى يحملوا الصناديق بعيدا؛ ربما لإلقائها في الترعة، ولكنه لا يفعل، يتوجه للصندوق الأول وينزع البطاقات منه، ينثرها على سطح مكتبي صائحا: ستقوم أنت بتسويد البطاقات، وسأقوم أنا بالتأشير على أسماء الناخبين. يجب أن نسجل حضورهم جميعا وقيامهم بالانتخاب.

أقول معترضا: هذا تزوير.

يقول: بالطبع تزوير، ماذا نفعل عندما يتقاعس هؤلاء الفلاحون عن أداء واجبهم؟ أنا وأنت فقط سنقوم بما عجزوا عن القيام به، علينا أن نسرع حتى نحمل الصناديق للمدينة.

فكرت متبرما وأنا أتناول البطاقات، كنت أعتقد أن الأمر سينتهي عند هذا الحدّ، أتأمل إحداها، الدائرة الحمراء والأخرى السوداء، هل هناك أهمية للاختيار بينهما، أم أن الرئيس القادم قدر لا مفرَّ منه؟ أرى المأمور وهو يقلب الكشوف بلهفة ويوقع بالحضور أمام كل الأسماء، لا يهمّ إن كانوا أحياء أو أمواتا، يعرفون القراءة أم لا، يلهث في حماسة وهو ينتهي من كل كشف لينتقل للصفحة الثانية، أبدأ في وضع علامات الموافقة؛ كان الأمر سهلا، لولا هذه الغصَّة التي أشعر بها مع كل علامة. من غير الواقعي أن يوافق الجميع، لابدَّ من رأي مختلف معارض، دون أن أدري تتجه يدي إلى العلامة السوداء، كأنني أنتقم لنفسي، أتشفى من عنجهية المأمور

وتحكمه، تتحرك يدي رغما عني، مع كل عدة موافقات على الدائرة الحمراء. أهدئ نفسي بعلامة على الدائرة السوداء، أسقط البطاقات أولا بأول في الصندوق المغلق بالشمع الأحمر، لا أترك الفرصة للمأمور حتى يراجعني، كنت متأكدا أنني أقوم بقليل من الصواب وسط كل هذا الخطأ. ينتهي المأمور من كل التوقيعات وأنا أسقط آخر البطاقات، يتنهد في انتصار حقيقي وأشعر داخلي بهزيمة ساحقة. فرض المأمور إرادته عليَّ هذه المرَّة أيضا، يخبط بيده على الصندوق، يندفع العساكر فجأة، يحملون الصناديق في صمت إلى «البوكس». أتنهد في ارتياح، هَمّ وانزاح من فوق صدري، ولكن المأمور مازال يحملق فيَّ، يهتف في ضيق: لم يعد لدينا وقت، علينا أن نذهب إلى المدينة لتسليم هذه الصناديق لحضرة القاضي.

أصيح في ضيق: أي مدينة، وأي قاضٍ؟ لقد انتهيت هنا ولم تعدْ لي صلة بهذا الأمر.

يقول في هدوء كأنه يشرح لتلميذ صغير: القاضي هو رئيس الدائرة، وأنت الآن رئيس واحدة من اللجان، ويجب عليك أن تسلم الصندوق بنفسك.

أشعر بأنه يريد توريطي أكثر، أقول: ولماذا لا تقوم أنت بتسليمه؟

يقول: سيرفض القاضي، سيتهمني بأنني قمت بتزوير البطاقات، وسأقسم على المصحف الشريف إنني لم ألمسها، وأنا بالفعل لم ألمسها.

كان شرطي محترفا، ومن أنا حتى أستطيع مجاراته؟ يلمس ذراعي في رفق ويخفض من صوته قليلا: لا تقلق، سنذهب في

سيارة البوكس سريعا، ونعود أسرع، سيعزز هذا من صورتك أمام المسئولين، لا أحد يعرف كم سيطول عمر هذا الرئيس، ربما كثيرا، على أي حال، أعدك بأن تبيت الليلة في فراشك.

لا مفرَّ من أن أتبعه إلى آخر المدى. يقود السيارة وأنا أجلس بجانبه، يدور بها نصف دورة سريعة حتى توشك أن تنقلب، ولكنه يعدل مسارها وتصبح القرية خلفنا فجأة، يمتدّ أمامنا بساط أخضر من غيطان البرسيم، عيدان محنية دوما بتماوج تحت الريح، يبدو الكثير من أهل القرية وسط الحقول، أشباحا معتمة تمارس عملا ما، كأنها لا تستطيع مفارقتها. يظهر حقل آخر بلا زرع، الأرض البنية الداكنة تبدو حزينة، مشتاقة للغرس والري، وقطع الطين المتكورة تتحرك مع الريح في قلق، تحاول أن تطرد ما بداخلها من بقايا جذور قديمة، ورغم أننا في نهاية اليوم فقد كان هناك فلاح يعمل في منتصف الحقل، يرفع فأسه عاليا ويهوي به في بطن التربة، بصحبته امرأة، ربما كانت زوجته تحمل فأسا صغيرة تفتت بها كتل الطين وتسوِّي الخطوط. عند طرف الحقل يوجد طفلان آخران؛ ولد وبنت، منكبيْن على انتزاع الأعشاب البرية، يعملان معا في صمت وانهماك، ولابدَّ أن هذا المأمور الخارق قد قرأ أفكاري؛ فقد ارتفع صوته قائلا: إنهم يعملون بصبر ومشقة، ولكنهم أغبياء.

كان قاسيا عليهم كعادته، ولكن ملاحظاته جعلتني أهتف في انزعاج: أغبياء.. كيف يمكن ذلك؟

يقول: لأنهم يعيشون على الفتات وقد تعودوا على ذلك، كل هذه الأراضي على مدى البصر يتحكم فيها خمسة أو ستة من التجار، أعرفهم بالاسم، يشترون بالسعر الذي يفرضونه، ويتركون ما لا يريدونه للبوار.

أقول بصوت نصف ساخر: ولماذا لم تمنعهم؟ كان عليك أن تخلص هؤلاء الناس من الاستغلال.

يضحك بجفاف وهو يقول: من تحسبني؟ رغم هذه الثياب، أنا مجرد موظف، هؤلاء الناس أقوى مما تتصور، يمكنهم أن ينفوني إلى آخر بلاد المسلمين.

كنت مصرّا على معاندته، أقول: أنت تملك قوة القانون، وبطشه أيضا.

يقول: ولكني لا أملك أن أغير التاريخ، منذ أن خلق الله مصر وهناك ثلاث طبقات؛ فراعنة وكهنة وفلاحون، كل طبقة تعيش على مصِّ دم الطبقة الموجودة تحتها، هكذا كان الأمر وسيظلّ دائما.

أقول: لقد نسيت التجار، أصل كل المشاكل.

يقول: إنهم جزء من الكهنة، وهم الذين يقومون بتمويل كل الفراعنة.

نقضي بقية الطريق في صمت، تتبدد آخر أضواء النهار وتسود الطريق عتمة لا تقوى عليها أضواء السيارة، تتاح لي الفرصة أخيرا لأتأمل هذا الرجل الغريب دون أن يلاحظني. يجمع كل المتناقضات، مختلف عن بقية رجال الشرطة الذين واجهتهم خلال فترة السجن، ولكنه بالتأكيد واحد منهم، نخرج من الطريق الترابي، تنساب السيارة أخيرا على الأسفلت، يواصل القيادة بسرعة فائقة، تتجنبنا بقية السيارات في رعب، وتبدو أضواء المدينة أخيرا، مهمتنا توشك أخيرا على الانتهاء، مهمة عبثية ولا فائدة منها، أقول: إلى أين سنذهب؟

يقول: سنتجه للمدرسة الثانوي إلى حجرة الناظر مباشرة، هناك المقرّ الرئيسي.

تغوص السيارة في ليل المدينة وطرقها الموحلة، يبدو سور المدرسة وعليه مئات الملصقات، صورة عديدة لرجل واحد بلا حاجة لأي نوع من الانتخابات، يشير المأمور للصور معجبا، يقول: إنه رجل القدر كما يقولون، الله هو الذي يختاره، لا دخل للصناديق في هذا الأمر.

هذا الملعون كعادته يقرأ أفكاري. ندخل فناء المبنى العتيق، يبدو كأن لم يتمّ تجديده منذ أيام الاحتلال البريطاني، نهبط معا من البوكس، يحمل العساكر الصناديق ويسيرون خلفنا؛ كأننا ذاهبون لتقديم القرابين لإله مجهول، ندخل من طرقة المدرسة إلى قاعة داخلية مزدحمة بالمكاتب والصناديق والعديد من الكتبة الجالسين كأنهم محنطون خلف مكاتب قديمة حائلة الألوان، نسير نحو المكتب الأضخم في صدر القاعة، لونه بني داكن ولامع، الوحيد الذي يشعّ ضوءا في عتمة القاعة، خلفه يجلس رجل ضخم، كأنه نصف نائم، يشبك يديْه فوق كرشه ويراقب قدومنا عبر القاعة، يتوقف المأمور أمامه مباشرة، يدقّ الأرض بقدميْه وهو يؤدي التحية العسكرية، تمام يا أفندم.

ينتفض القاضي قليلا كأنه استيقظ، يقول بلامبالاة: أخيرا.. أنتما الصندوق الأخير، أوشكنا أن نغلق الدائرة من دونكم.

يقول المأمور في لهجة تقريرية: الدكتور «علي» رئيس اللجنة رقم ٤٠ يسرّه أن يقدم لكم الصندوق الأخير.

لا يبالي القاضي بالنظر إليّ، يشير إلى أحد الموظفين: أزل الشمع الأحمر وافتح الصندوق، أحصِ البطاقات وافحص عينة منها واكتب المحضر حتى نتخلص.

لا يدعونا للجلوس، نظلّ واقفيْن أمامه كأننا متهمان، يهدأ وبصيح صوت تنفسه مسموع، يشرع الموظف في إزالة الأختام وإفراغ محتويات الصندوق، يرتبها بسرعة في خمسة أعمدة ويحصيها بسرعة وبراعة، ينتقل بجانبه موظف آخر ويبدآن في فحص عينة من البطاقات، يفرزانها في سرعة، أشعر بالملل الشديد، أريد أن أتركهم وأذهب، أقضي الليل في أي فندق، لا أريد أن أركب البوكس مرة أخرى مع هذا المأمور العكر، فجأة يهتف الموظف صارخا: هناك بطاقة غير موافقة.

يستيقظ القاضي مرعوبا، ينتفض المأمور من هول المفاجأة، ولكن القاضي ينهض واقفا بسرعة على الرغم من وزنه الثقيل، ينتزع البطاقة من يد الموظف ويدقق فيها النظر، ثم يصرخ فجأة: افحصوا كل البطاقات.

يفيق بقية الموظفين الجالسين على المكاتب الحائلة، أشباح تنهض من الموت، يهجمون على البطاقات وأنا أتأملهم صامتا، يظلّ القاضي واقفا، التفتّ ناحية المأمور الذي يواجهني بنظرات غاضبة، يتنفس بصعوبة من فرط الغيظ، من المؤكد أنه يريد قتلي، لكنه لا يستطيع أن يفعل ذلك أمام القاضي وكل هؤلاء الشهود، يصيح موظف آخر وهو يرفع بطاقة جديدة: هذه بطاقة أخرى غير موافقة.

ولا تمضي لحظة أخرى حتى يرفع موظف آخر بطاقة ثالثة، غير موافقة، غير موافقة، هذيان، كابوس يحلّ على الجميع، كلهم يصرخون في هستيريا، الوحيد الهادئ كان أنا، ولكن الموقف كله على وشك الانفجار، يلتفت القاضي نحوي ويلقي عليَّ نظرات نارية، يهتف بي: كيف حدث هذا؟

أهزّ كتفي في استهانة: عادي، مثل أي انتخابات، لا يجب أن يكون الجميع موافقين، لابدَّ من وجود قلة غير موافقة، هذا هو الأمر الطبيعي وهذا ما يجعل النتيجة أكثر صدقا.

يقول القاضي: أنت متأكد من هذا؟

أقول: إنها عدة أصوات ضئيلة لن تؤثر في النتيجة النهائية، ولا في الأغلبية المطلقة.

يزفر القاضي أنفاسه ويعاود الجلوس في مكانه؛ ربما لأنه اقتنع بمنطقي، أو تعب من طول الوقوف، يقول وهو يتنهد: دعونا ننتهِ من هذا الأمر، أحصوا الأصوات كلها واكتبوا في المحضر عدد الموافقين وعدد غير الموافقين، أريد أن أوقعه قبل أن أنصرف.

للحظات اعتقدت أن الأزمة قد انتهت فجأة كما ظهرت فجأة، كنت واهما، يرتفع صوت المأمور صارخا: هذا لن يكون، ليس وأنا مأمور هذه الناحية.

يلتفت نحوي ويغرس إصبعه في كتفي المجاور له، يواصل القول في غيظ: لا أحد يخدعني أو يتلاعب بي.

أبعد كتفي عنه وأقول: لم أفعل إلا ما يجب فعله.

يصرخ: خطأ، ما فعلته هو عين الخطأ، لا بديل عن الأغلبية المطلقة، الموافقة الجماعية التامَّة، هذا ما يجب عليَّ تحقيقة، هذه مسئوليتي كمأمور مخلص.

لا يأبه القاضي بلهجته الثائرة، يقول في برود: هذا الطبيب فعل الصواب. هذا هو المنطق.

تزيد الكلمات من ثورة المأمور، يمدّ يده فجأة وينزع المسدس من جرابه، يرفع يده عاليا وهو يصيح: اللعنة على المنطق، أنا الذي أقرِّر ما الصواب.. وما المنطق.

تسود المكان ضجة مفاجئة، ترتطم المقاعد على الأرض، وتسقط البطاقات من فوق المنضدة، أتراجع في ذعر حتى ألتصق بالحائط، ألمح بقية الموظفين وقد هبطوا كلهم تحت المكاتب، يظلّ القاضي في مكانه ولكن وجهه كان ممتقعا، يفتح فمه أكثر من مرَّة ليتكلم ولكن بلا صوت، يدور المأمور حول نفسه وهو يوجِّه مسدسه للجميع؛ ربما يبحث عني، أتراجع أكثر حتى أختفي في الظلال، يخرج صوت القاضي أخيرا: اهدأ وقل لنا ماذا تريد؟

يقول في قوة: هذه البطاقات غير الموافقة تمزق.. تمحى نهائيّا.. يتمّ تبديلها بأخرى موافقة، أريد أن يكون المحضر مائة في المائة موافقة.

يشير القاضي لبقية الموظفين، يخرجون من تحت المكاتب في حذر، يعيدون فحص البطاقات بأصابع مرتعبة، أشعر بأنني في خطر وأنه لم تعد لوجودي أهمية، أبدأ في الانسحاب ببطء نحو

باب الخروج، ولكني أسمع صوت المأمور آمرا: توقفْ عندك، لم ننتهِ منك بعدُ، عدْ إلى مكانك.

أعود للالتصاق بالجدار، تشتعل حركة محمومة في المكان، تمزيق بطاقات الرفض، إحضار أخرى جديدة وتسويدها بالموافقة وكتابة المحضر النهائي، يتمّ كل هذا وهو يمسك مسدسه ويلقي على الجميع نظرات نارية، لا يتخلى عن غضبه رغم أن الأمور تسير كما يريد، يتقدمون ويضعون أمامي بضع أوراق، أوقع عليها دون أن أدري ما فيها، أراقب القاضي وهو يوقع على كل ورقة، أخيرا يرفع رأسه وينظر نحوي، يتجنب النظر إلى المأمور، يخرج صوتي من حلقي أخيرا: هل انتهى كل شيء؟

يتنهد القاضي ويقول: يمكنك الآن أن تنصرف.

يزوم المأمور معترضا ولكني أواصل التراجع، لا أصدق أنني خرجت من القاعة والفناء حتى باب المدرسة، أسير متخبطا في الشوارع المظلمة، تلتفّ الحواري تحت قدميَّ كأنني أخوض في دوائر مغلقة، جانب من المدينة لم أعرفه ولم أكن فيه من قبل. أفاجأ بصورة الرئيس في كل مكان، يسخر مني ومن ضياعي، لم يختره أحد، لكنه سيحكم الحقول والنخيل والقرى الطينية والنهر المرتعد والأطفال المصابين بالبلهارسيا، رجل لم يرَ الجميع وجهه إلا في صور رديئة الطباعة معلقة على الجدران، سيحكم كل هذه البيوت بما فيها من نساء وعجائز. أسير ولا أعرف إلى أين أتجه. بعد طول لهاث أستوقف أحد المارَّة وأسأله عن كيفية الوصول إلى ميدان المحطة، المكان الذي تنطلق منه معرفتي بالمدينة، أتلفت حولي

خائفا من أن يكون المأمور يتبعني، كنت مرعوبا منه، أبحث عن شارع مضيء ومزدحم بالشهود.

أتنفس في ارتياح حين أصل للساحة المتسعة وألمح المباني العتيقة وتهاجمني ذكرى لقائي الوحيد مع فرح، أبحث عن مكان مألوف يصلح كمخبأ لي حتى الصباح، أسير نحو الفندق الصغير الذي قضيت فيه ليلتي معها، الليلة الوحيدة في حياتي التي أحسست فيها بالمتعة المطلقة، أجد بسطوبسي خادم الفندق بابتسامته الصفراء نفسها، يتأمل وجهي باستغراب وهو يدوّن بيانات البطاقة، يقول فجأة بلهجة ذات مغزى: هل أنت وحدك، أم معك شخص آخر؟

أقول في صوت باتر: لا أحد.

يرفع حاجبيْه مستغربا: لعله خير، يعزّ عليَّ أن تقضي هذا الليل الطويل وحدك.

أنظر إليه غير فاهم، يقول: هناك كثير من البنات يمررن بنا ويتركن أرقام هواتفهن، هل تريد أن أتصل لك بواحدة منهن؟

أهزّ رأسي نافيا، يعاود الإلحاح ولكني أوقفه، أصعد إلى الغرفة نفسها، وألقي بجسدي على الفراش لعلي أجد بقايا من عطرها، تهدأ رجفتي قليلا ويبتعد شبح المأمور عني وأغرق في النوم.

١٠

هناك مطر، يا رحمة السماء، تسقط قطرات غريبة في هذا الوقت من العام، في تلك البقعة الجافة من الأرض، تهبط على رءوس النخل والحقول وتتشربها جدران البيوت وأكوام القشّ على الأسطح، تقتحم شرفة الوحدة التي أقف عليها، تسكن الأصوات الخافتة وتختبئ العصافير وبقية الطيور، أشعر بالوحدة وسط فراغ شاسع دون صديق أو حبيبة، حتى فرح أغلقت الباب الضيق الذي فتحته لي، أتذكر قول أحد الشعراء عن الحزن الذي يبعثه المطر في النفس وعن شعور الوحدة الأكثر إثارة للشفقة، يضرب المطر جدران الوحدة بلا هوادة، لكنه لا يستطيع انتزاع صورة الرئيس، فقط يزيل الأتربة العالقة بها فيزيدها وضوحا وتأثيرا، نتيجة الانتخابات كانت ساحقة، لم يفلت منه صوت واحد، اعتلى الحكم والقدر وحده يعلم متى يمكن أن يتركه ويأتي حاكم آخر. اليوم هو عطلة رسمية بمناسبة صعوده الذي لا هبوط له، لم يأتِ العاملون ولم تفتح الوحدة أبوابها، وقت مناسب لي حتى أخلو إلى نفسي، لا أشغل أي نوع من الموسيقى، فقط أريد أن أستمع لصوت المطر وحده دون تشويش، لا يضاهي غضبة الطبيعة أي صوت آخر، لا أدري كم بقيت جالسا هكذا، ربما ساعات والمطر يواصل هطوله

بلا انقطاع، تتخلله فقط أصوات الرعد والبرق الذي يضيء سماء القرية، في لمحة خاطفة يبدو سعف النخيل زاهي الخضرة كما لم يكن من قبل، ولكن يتخلل هذه الأصوات صوت مفاجئ وغير متوقع، طرْق على الباب الخارجي للوحدة، يتناهى إليَّ مثل صدى مكتوم، قادم من عالم آخر، للوهلة الأولى اعتقدت أنه صوت الريح وهي تصطكّ بالأبواب، يتكرَّر الصوت، من الذي يمكن أن يغامر بالخروج في هذا الطقس؟ هل هي حالة خطرة، طلق ناري، ولادة متعسرة؟ مهما كان السبب، فإن الطرْق يتواصل وعليَّ أن أهبط إلى أسفل، كنت مغتاظا لأنه قطع عليَّ لحظة استمتاعي بصوت المطر. أتجه للباب وأنا أجهز نفسي للانفجار في وجهه، ولكن ما إن أفتح الباب حتى أرى وجه فرح المبتلّ، لحظة نادرة تدوِّي فيها كل الرعود وتبرق كل البروق، أمدّ يدي بسرعة لأجذبها للداخل، لا تنطق بحرف واحد لأنني هجمت على فمها، أقبلها بكل ما في داخلي من شوق ولهفة، تحاول أن تقاومني دون جدوى، لم أتصور أن تأتي إليَّ أخيرا، رغم هذا الجو والبرودة والقطيعة التي فرضتها عليَّ، لا أصدق أنني أمتلك مرة ثانية هذا الجسد المفعم بالدفء بين ذراعيَّ، وأنني أقبِّل هاتيْن الشفتيْن الطريتيْن العذبتيْن، لحظة لم أجرؤ على تخيلها والحلم بها، يتراخى جسدها المشدود، لا تستطيع أن تقاوم قبلاتي وشدة رغبتي فتبادلني إياها، ولكنها بعد فترة تدفعني، تحرِّر نفسها من قبضتي وهي تلهث، تتراجع حتى تلتصق بالحائط، ترفع يدها لتوقف من اندفاعي نحوها، كنت أعرف ضعفها أمام لمساتي، وهو ما يغريني بالاقتراب ولكنها ترفع اليديْن لتصدَّني، وتقول: لا تقتربْ أكثر، لا تحاولْ أن تلمسني، دعني أتكلم.

أتوقف، أشعر بأنني كنت حيوانا أكثر مما ينبغي، يحوِّلني الجوع لمخلوق ضارّ، غير قادر على التصرف بحبٍّ، أريد أن أنتهك جسدها المبلَّل بدلا من أن آخذها في أحضاني برفق، وأمسِّد شعرها برقة، أبتلع أنفاسي وأقول: أنا أستمع إليكِ، ولن أتحرَّك من مكاني.

تضع يدها على صدرها حتى تهدئ أنفاسها اللاهثة، تقول أخيرا: أنا حامل.

يزداد انهمار المطر في الخارج، أو هكذا يخيَّل لي، أود أن أقترب قليلا وأضع يدي على بطنها، ولكن أخشى أن يفزعها ذلك، أقول: وهل أنا السبب في ذلك؟

تقول: لم أعرف رجلا غيرك.

أقول في تردد: ربما كان من زوجك؟

تقول في حزم: لم يقترب مني، لم أسمح له بالاقتراب من جسدي، لم يلمس خصلة من شعري، منذ أن كنا معا.

أتذكر كلماتها لي في لحظاتنا الأخيرة على فراش اللوكاندة المتسخ، أقول: ولكن هذه كانت رغبتك منذ البداية، كان هذا هو السبب الذي جعلنا نذهب معا إلى هذا الفندق، أليس كذلك؟

كنت قد فكرت كثيرا ولم أجد مبرِّرا غيره، رغبتها الجارفة وتنائيها بعد ذلك، تقول: أجل.. لحظتها كان الأمر سهلا، مجرد أمنية كنت مصرَّة على تحقيقها، رغبة حارقة، ولكن أشعر الآن أن الأمر أكبر من استطاعتي، لا أحتمل ما يدور في بطني، أشعر بأن هناك حياة أخرى، جسدا آخر ينمو بداخلي.

أتقدم وأمسك بيدها، كانت ترتجف، باردة ومبلّلة، أقودها دون مقاومة إلى غرفة الكشف، أساعدها على الجلوس على أحد المقاعد وأجلس أمامها، تهتف وهي على وشك البكاء: أنا لست عاهرة، فقط كنت أريد طفلا.

تصدمني الكلمة، ولا أدري من أين أخرجتها لتصفعني بها، أقول: من يجرؤ على القول إنكِ كذلك؟ أنا لم أفكر فيما حدث بيننا على هذا النحو قط.

تواصل القول وهي تبكي: سأكون كذلك لو كذبت على زوجي طوال هذه السنوات القادمة، لو جعلته يربي ولدا لا يخصه، لا تفعل ذلك سوى العاهرات.

أقول بسرعة ودون أن أفكر: لن يحدث هذا، ذلك الجنين الذي في بطنكِ يخصّني مثلما يخصّك تماما.

تهزّ رأسها فتتناثر دموعها في الهواء، تقول: كلّا.. كلّا.. أنا وحدي أتحمَّل ذنبه، لو أن عيسى قال إنه ابن حرام فلن أستطيع أن أردَّه.

أمسك يدها وأضغط عليها حتى تهدأ، حان الوقت لكي أتكلم وأن تستمع إليَّ، أقول: لن أسمح أن ينشأ ابني في أكذوبة، أو أن يربيه رجل غير أبيه، ولن أسمح أيضا بأن يدعوه أحد ابن حرام.

ترفع وجهها وتتطلع في عينيَّ مباشرة: ماذا تعني؟

أقول: سنتزوج.. خلصي نفسك منه وسنتزوج.

تقول: حتى ولو خلصت نفسي وهو أمر صعب، فلن نستطيع الزواج، أنت من دنيا وأنا من دنيا أخرى.

هذا الرجل ابن عمي لا أستطيع التخلص منه بسهولة، أين أخبئ وجهي من أهل البلد وكلهم أهلي وأقاربي؟

أقول: أرض الله واسعة، ستنتهي شهور التكليف في هذا المكان، ويمكن أن ننتقل لمدينة أخرى حيث لا يعرفنا أحد، نتزوج ونربي ابننا مثل أي زوج وزوجة.

تتوقف عن ذرف الدموع ولكنها لا تستطيع إخفاء علامات دهشتها، يظلّ فمها مفتوحا وهي تحدِّق فيَّ، تهمس أخيرا: أنت تحلم بالتأكيد، أو ربما تحاول التهوين عليَّ.

أظلّ ممسكا بيدها وتتركها لي دون مقاومة، أقول: أنا أريدكِ بشدَّة. في أول الأمر كنت أعتقد أنها مجرد رغبة جنسية عابرة، ستهدأ لو أنني استطعت أن أجذبكِ إلى فراشي، أي فراش، ولكن ما حدث بيننا ولَّد شعورا قويّا بداخلي، ممارسة الحب معكِ لم تطفئ ناري، ولكن عمَّقت من مشاعري تجاهكِ، صنعت رابطة بيننا، تغيَّرت نظرتي إليكِ بشكل مختلف، أحببتكِ حتى وأنتِ تعلنين رفضكِ لي، أحببتكِ رغم معرفتي أنكِ لم تمارسي الحب معي إلا من أجل أن تنجبي ولدا، وما أثار مشاعري أكثر هو أن اختياركِ قد وقع عليَّ، أنكِ احتضنتِ بذرتي، وأصبح هناك رابط أقوى مني ومنكِ سيربطنا معا، رغم كل شيء ورغم كل الاختلافات التي تقولين إنها تقف عائقا بيننا فإنني أدركت أنني أحبكِ.

تتأملني في حيرة: وكيف عرفت ذلك؟ أعني كيف تحوَّلت رغبتك العابرة إلى حبّ؟ أليس هذا غريبا خاصة ولم يكن هناك أي شيء يجمعنا سوى هذه الرغبة؟

أقول: لاتقلّلي من هذه الرغبة يا فرح؛ لأنها هي التي جعلتني أكتشف حبَّكِ بداخلي، وهي التي جعلتكِ تهبينني جسدكِ. سأقول لكِ شيئا: عندما كنت في المدينة منذ عدة أيام، كان عليَّ أن أجد مكانا أقضي فيه ليلتي. وجدتني أذهب إلى الفندق نفسه الذي قضيْنا فيه ليلتنا الوحيدة، خادم الفندق تعرف عليَّ، كنت قد قدمت له رشوة سخية؛ لذا من الطبيعي أن يتذكرني، بل إنه سأل عنكِ، فعل ذلك بطريقة غير مباشرة، وعندما عرف أنني وحدي عرض عليَّ أن يأتيني بفتاة لتقضي الليلة معي.

تشهق فرح وهي تسأل: أي فتاة؟

أقول: محترفة. يحدث هذا في كثير من الفنادق الرخيصة، ولكني رفضت وصعدت إلى الغرفة؛ الغرفة نفسها التي قضيْنا فيها ليلتنا، كنت أحفظ رقمها وطلبتها منه، كنت أريد شيئا يذكرني بكِ، ولكن بعد قليل من الوقت سمعت طرْقا على الباب، حسبته الخادم ولكن وجدتها؛ الفتاة التي كان يحدثني عنها.

تقول وقد ارتفع اهتمامها: ألم ترفض؟ هل كانت جميلة؟ هل دعوتها للدخول؟

أقول: نظرت إليها، ونظرت إلى الفراش في الحجرة، كانت عيناها واسعتيْن، تحوطهما دائرتان من الكحل تجعلهما أكثر عمقا، تحتلان معظم وجهها، وكان صدرها مرتفعا نصف عارٍ يُغري باللمس والمداعبة وكانت شفتاها ممتلئتيْن منفرجتيْن قليلا جاهزتيْن للتقبيل، كل هذا كان موجودا أمامي، سهل المنال لقاء بضعة جنيهات، ولكنكِ كنتِ في داخلي. في تلك اللحظة أدركت

ذلك، لن أريد امرأة أو أشتهيها كما أريدكِ، ولن أهنأ في حياتي إلا وأنتِ معي. طلبت منها الانصراف، وعندما أصرَّت على البقاء وبدأ صوتها في الارتفاع أعطيتها بعض المال لتصمت. كنت أشتري نفسي واثقا بطريقة غامضة أنه ذات لحظة سيتاح لنا أن نتفاهم معا، وأن آتي إليك خالصا دون خطأ.

تمسك بيدي، تنظر في عينيَّ، ويتواصل سقوط المطر في الخارج، تقول: وماذا عليَّ أن أفعل؟ ماذا يحدث إذا انسقت وراءك؟ هذا الرجل زوجي وابن عمي، لا يمكن أن أؤذيه.

أقول في حزم: فات الوقت، منذ أن اخترتِ أن تحملي ابني في بطنكِ، لقد جعلتيني شريكا لكِ، جزءا من حياتكِ، نحن في مأزق يا فرح ولن نستطيع أن نخرج جميعا سالمين، فقط بأقل الخسائر.

تقول في عجز: كل هذا ولم تقل لي ماذا عليَّ أن أفعل.

أقول: قبل أن يعلو بطنكِ ويظهر للجميع، عليكِ أن تقنعيه بالطلاق.

تقول: بعد ذلك سأكون في الفراغ.

أقول: سأكون موجودا، وسأكون بجانبكِ.

مقامرة، وكانت تعلم أننا نقوم بمقامرة، تنهض فجأة من أمامي، لا أدري إن كانت تنوي أن تغادرني فجأة أم ماذا. ولكنها تخرج سريعا من أمامي، لا تتجه لباب الوحدة ونكن إلى داخلها، إلى غرفة رعاية الأسرة، أسمع صوتها وهي تفتش داخل الأدراج، ثم تعود إليَّ سريعا وهي تلهث، تُمسك في يدها مصحفا، أعرف شكله على

الفور من حوافيه المذهبة، تضعه أمامي وتقول: ضعه على عينيْك، وأقسمْ إنك لن تتخلى عني أبدا.

تراقبني بعيون واسعة وأنفاس لاهثة وأنا أرفعه وأضعه على وجهي: أقسم بهذا المصحف الشريف إنني لن أتخلى عنكِ مهما كانت الظروف.

تهدأ أنفاسها وترفع وجهها نحوي، تريد أن تعرف درجة صدقي، لكني في هذه اللحظة كنت صادقا. تذكرت الجازية الفتاة التي لا تكفّ عن الهيمان فوق ظهر الأرض، لا أريد أن أكون مثلها، أريد أن أزرع جذوري في مكان ما، وربما لعبت المصادفة العشوائية لعبتها حتى أجد هذه الفتاة، وأزرع فيها بذرتي، ولكن هل يمكن أن تسير الأمور على هذا النحو ونفلت معا من هذا المكان؟ أن يكون هذا الطفل هو الرابط بيننا؟ أضع يدي على كتفيْها، أحسّ بها ترتجف تحت لمستي، أقول لها: سأكتب طلبا للإدارة الصحية للنقل من هذا المكان، وقبل أن يكتشف أحد أي شيء سنكون قد غادرنا معا.

تتطلع نحوي غير مصدقة، أقول لها: أدرك أن من الصعب أن تغادري المكان الذي قضيتِ فيه كلّ حياتكِ، ولكن هذا هو الحلّ الوحيد أمامنا.

تهزّ رأسها وتخبئ وجهها في صدري، تقول: لن أدعه يقترب مني، لن يلمسني بعد الآن.

أقبّلها في قمة رأسها ويظلّ جسدها الدافئ في حضني، تقول: توقف المطر ويجب أن أنصرف.

أضع على شفتيْها قبلة خفيفة وأقودها إلى باب الوحدة، أفتح

الباب في حذر وأتطلع في كل اتجاه، لا يوجد أحد، تلفّ رأسها جيدا بالشال بحيث تخفي ملامحها، وتخوض في الوحل حتى تختفي عن بصري.

يتوقف المطر ولكن الوحل يظلّ على كل الطرق لبضعة أيام، وكما يحدث دائما تتعطل كلّ طرق المواصلات وتصبح القرية معزولة عن العالم. يبقى طلب النقل مطويّا داخل جيب معطفي، كنت قد سهرت ليلة كاملة في إعداده وإعداد الإجابات المناسبة فيما لو تمَّت مساءلتي، ولكن مرَّت ثلاثة أيام دون أن أقدر على إيجاد مواصلة تأخذني للمدينة، أنشغل طوال هذه الأيام بالكشف على أعراض المرضى المتشابهة، ولكن في نهاية اليوم الثالث يأتي للوحدة مريض مختلف، لم يكن من أهل القرية ولم يكن أصلا من الفلاحين، واحد من البدو الذين لا يظهرون إلا قليلا في هذه الأنحاء، يقوده دسوقي إلى داخل غرفة الكشف ويقدِّمه لي بنوع من الفخر: شيخ العرب يريدك أن تكشف عليه.

رجل ضخم يتحرَّك كأنه جواد غير مروَّض، يزفر من أنفه ويخطو على الأرض بخطوات متداخلة، ويدقّ الأرض بعصاه، أطلب منه مترددا أن يرقد على منضدة الكشف ولم أكن متأكدا من أنه يشكو من أي علة، أنظر إلى دسوقي متسائلا ولكنه لا يعطيني جوابا، أضع السمَّاعة على أكثر من مكان في صدره، قلبه كان ينبض بشدَّة كأنه يريد أن يقفز خارج جسده، أعود للجلوس وأقول له وهو يقف أمامي: أنت لا تشكو من شيء كما أرى، ولا أعتقد أنك ستشكو من شيء في المستقبل.

يتراجع قليلا ويأخذ دسوقي إلى ركن الغرفة، يُخرج ورقة مالية

.يرة بعض الشيء ويُعطيها له، يُخفيها دسوقي وهو ينظر إليَّ، يُريد أن يفهمني أن هذه أجرة الكشف ولكنها مضاعفة. يتقدَّم الرجل، يجلس أمامي ويتنهد، يقول: أعرف أني لا أعاني من شيء، الآن على الأقل، ولكن عادة أعاني من مغص حادّ وسخونة في رأسي، وأمامي رحلة طويلة.

لا أعرف إن كان صادقا أم لا، أقول: أين ستذهب؟

يقول: رحلة وعرة عبر الصحراء، سأذهب لقبيلتي قرب الحدود.

أهتف مندهشا: مَنْ هنا؟

يقول في ثقة: هنا هي النقطة الأقرب.

يقترب دسوقي ويقول بلهجته المتوسلة: ساعده يا دكتور، أمامه مشوار صعب.

لا أستطيع أن أكون صعب المراس، أعطيه بعض الأدوية، يُلحّ عليَّ دسوقي أن أعطيه المزيد ولكني لم أرد أن أخضع لإغراء الورقة المالية لشخص غير مريض، أراقبه وهو يبتعد، يقف دسوقي بجانبي، أسأله: ماذا يعمل هذا الرجل؟

يقول إنه يتاجر في كل شيء، في البهائم والمواشي والجمال، وأحيانا يتاجر في البني آدمين.

أقول مندهشا: نخَّاس يعني؟

يلتفت إليَّ متوجسا: ما هذه الشغلانة؟ هل هي عيب؟

أنصرف عنه وأنا أرى «فرح» قادمة من رأس الطريق، كانت

متأخرة عن ميعاد الحضور، ولكني لم أكن أقول لها شيئا، ولم تم
تأبه بتعليقات الممرضتيْن الأخريين، كانت تخوض في الوحل
وتخشى أن تنزلق في الطين. أحسست بالشفقة عليها، تنظر نحو،
وعلى وجهها ابتسامة صغيرة، تحوَّلت البلدة كلها إلى فخّ من الوحل
أخشى أن تسقط وأن تتلوَّث ثيابها البيضاء، أرفع رأسي فأشاهد
واقفا؛ عيسى زوجها يقف بعيدا وهو يراقب تقدّمها، يضعها تحت
عينيْه، سيكون التخلص منه صعبا، كان تعبير وجهه يُعطي الانطباع
بأنه يمتلكها، تصل إلى باب الوحدة وتُلقي علينا نظرة سريعة قبل
أن تقف على جانب لتخرج من حقيبتها حذاء ملفوفا في كيس من
البلاستيك وتترك حذاءها المتسخ بالطين عند الباب. تدخل الوحدة
نظيفة كطائر الصباح، لا تكاد تلمس الأرض بقدميْها، أشعر بقلبي
وهو يرتجف، كان الطلب مازال مطويّا في جيبي وعليَّ أن أفعل
شيئا حتى أوصله للإدارة. يمضي النهار ونحن لا نتكلم، فقط نتبادل
الابتسامات الدافئة، لا نبالي إن كانوا قد لاحظوا ذلك أم لا، ببطء
أتأكد أنها المرأة التي أريدها، ولكنها عندما تنصرف في نهاية اليوم
ألمحه وهو واقف يترقب خروجها وهي تعبر الفناء الموحل ذاهبة
إليه بينما سأبقي بقية اليوم وطوال الليل وحيدا.

تعود الحياة في اليوم التالي، من شرفتي ألمح «أحلاهم» وهي
قادمة، تخترق الطريق الممتدّ بين الحقول، أهبط سريعا قبل أن
أكمل إفطاري، أهتف لدسوقي أن الوحدة معطلة اليوم. أتناول
حقيبة صغيرة وأطمئن أن طلب النقل في جيبي وأسير عابرا
الوحل الجافّ إلى حيث تقف الحافلة. كالعادة هناك زحام الناس
وحيواناتهم، هذه المرَّة كان السائق يقف على الباب يتحكم في

ركوب الجميع، يختار من يريده ليسمح له بالصعود، يمنع ركوب أي راكب بصحبة حيوانات أو طيور؛ وهذا يعني أن هناك مكانا لي. أهزّ رأسي للسائق ولكن يعترضني شخص آخر، يعوق صعودي، يقف عيسى في مقابلتي وهو يقول: أريد أن أتحدث معك.

لهجته باردة، متحدية بعض الشيء، أقول له في جفاء: ألا ترى أنني على وشك السفر للمدينة؟ انتظرْ إلى أن أعود.

يقول: لا أعرف متى ستعود.

أقول ساخرا: هل تريد أن تأتي معي؟

يهتف في تأكيد: أجل، ويحرك قدميْه صاعدا إلى الحافلة قبل أن أفعل. أتبعه حائرا ومتوجسا، لا نجد مقاعد خالية متجاورة، نجلس متباعديْن، أظلّ أرمقه في حذر والحافلة ترتفع وتنخفض بنا، تتوقف أحيانا حتى تتجنب حفرة مليئة بالماء ثم تواصل المسير، ماذا يريد مني؟ هل قصَّت عليه فرح أي شيء؟ هل ينوي الشجار معي وفضَّل أن يكون هذا خارج القرية؟ كنت متأكدا أنه غير قادر على قتلي؛ شخصيته تجعله أضعف من ذلك، أحاول أن أضع في رأسي حلّا لكل ما سيقوله لي، لم يكن هناك إلا حلّ واحد كلما دارت أفكاري تعود إليه؛ الطلاق. أريد أن أكون شجاعا من أجلي وأجلها، أن تكون هذه فرصتي لاختصار كلِّ التفاصيل المملَّة والمؤلمة، أريد أن أحصل علي ابني الذي لم يولد بعدُ، ومهما كان الموقف فلن أدع أحدا آخر يقوم بنسبته إليه أو تربيته. نظلّ نتبادل النظرات الصامتة، ترتجّ أجسامنا وأفكارنا دون جدوى، وربما تنمو روح العداء وتتصاعد دون أن ندري. تخرج «أحلاهم» إلى الأسفلت،

ينتظم سيرها وتقلّ الضجة وتظهر المدينة من خلف النباتات البرية، تظهر بيوتها المغبرة التي لم ينجح المطر في غسلها، أدرك أن لحظة المواجهة قد حانت ولكني كنت أريد تأجيلها، ما دام قد اختار أن يأتي معي فليتحملْ تبعات الانتظار حتى النهاية. يقترب مني عندما تصل الرحلة لنهايتها ولكني أقول له: عندي موعد هامّ في الإدارة الصحية وأخشى أن ينصرف الموظفون، انتظرني حتى أنتهي منه.

لا أنتظر ردَّه ولا موافقته، أتجه للباب الحديدي دون أن ألتفت إليه، ربما ينصرف وحده، أصعد راكضا على الدرج المتآكل، أغوص وسط متاهة الموظفين الرابضين فوق مكاتبهم، ورغم أعدادهم الكبيرة يكون الموظف الذي أريده دائما غير موجود، مريضا، في مهمة، في تدريب، المهم أنه لا أحد يملك أي معلومة عنه، لا مفرَّ من الدخول لمدير الإدارة والدخول في جدل لا جدوى منه، لماذا تريد الانتقال مع كل الامتيازات التي أعطيناها لك؟ لا أعرف ما هذه الامتيازات ولم يذكرها لي، لقد أعطيناك أفضل وحدة في المجموعة، بلا مشاكل تقريبا، فممَّ تشكو؟ لم أكن أشكو، ما قدمته ليس شكوى ولكنه مجرد طلب نقل، مجرد محاولة للبحث عن بداية جديدة في مكان جديد، يقول ضاحكا: أي بداية، وأي جديد؟ مصر كلها بلد قديم ولا يوجد فيها أي شيء جديد؛ لا مكان ولا وظائف، ومن حسن حظك، أن وجدت هذه الوظيفة ويجب أن تحمد الله بدلا من تقدم أي طلب.

لا يقدِّم لي قهوة ولا حتى ماء باردا، ويتقبل الطلب بامتعاض، يُشير لي بإصبعه محذرا: ولكن الموافقة ستظلّ معلقة حتى نجد بديلا لك.

أخرج من الغرفة مسرعا، أعرف أن الأمر لن يكون سهلا، ولكن الوقت يطاردني؛ بطنها سوف يعلو وزوجها ينتظرني في الأسفل. اهبط الدرج متجها إليه، لا مفرَّ من ذلك، أتمنى ألا يكون موجودا، ولكنه يجلس مشرئب العنق مسلطا بصره على باب الإدارة يتابعني بعينيه وأنا أمرّ بجانبه دون أن ألتفت نحوه، يتبعني في صمت، أدور بعينيَّ في الميدان الصغير حتى أرى أحد المقاهي أمامه شجرة، من الأفضل أن نتقابل في مكان عامّ مثل هذا. أجلس على أحد المقاعد، يُسرع الخطى ويجلس على مقعد أمامي، صامتا وجامد الوجه، أصفق وأطلب كوبيْن من الشاي، يظلّ على حاله، لا ينظر نحوي حتى بعد أن يُحضر الجرسون الطلبات، أقول له مستحثًا: ثم ماذا؟

يرفع وجهه نحوي ويعدل رقبته ليصبح صوته أكثر قوة، يقول: أريد نقودا.

يقول هذا ويصمت، هل يريد أن يبتزني؟ ما الذي لديه ليبتزني به؟ لم أصرخ في وجهه، أظلّ جالسا أحدِّق فيه، أريد أن أعرف إلى أي مدى يمكن أن يصل إليه، آخذ رشفة من الشاي وأقول: كم تريد؟

ينظر إليَّ غير فاهم إن كنت راضيا أم معترضا، يقول: أريد ألفي جنيه.

مبلغ ضخم، لا أدري كيف يمكن أن يديره هذا الفلاح نصف المتعلم العاطل عن العمل، أقول له: ماذا ستفعل بهذا المبلغ الضخم؟

يقول: أنا في حاجة إليه، يصمت فأظلّ أحدِّق فيه، يقول: أنا

في حاجة لأن أغيِّر حياتي، وهذا المبلغ هو الحد الأدني الذي سيساعدني على القيام بذلك.

لا يُعطيني إجابة محددة، أظلّ أحدِّق فيه وأنا أرشف كوب الشاي، يقول: أنت لا تقول شيئا.

أقول: أنتظر أن أسمع منك شيئا محددا، لماذا تريد النقود؟

يمدّ يده ويتناول كوب الشاي ويشرب منه للمرة الأولى، يقول سأذهب في مشوار، سأتخطى الصحراء للبلد المجاور، سأجد عملا هناك وأسدِّد لك كل قرش من نقودك.

أقول له ساخرا: كيف تسدُّده وقد أصبحت في بلد آخر؟

يقول: زوجتي تعمل معك، إذا قصرت في الدفع فستقوم هي بذلك.

أقول: هل تعلم زوجتك بهذه الرحلة؟

يتردد كثيرا ولا يستطيع أن يواجه عينيَّ، يقول: لم أقل لها بعدُ، أنت تعرف النساء، لن أقول لها إلا بعد أن أرتِّب كل شيء، أرجو ألا تخبرها أنت.

يضغط على كلمة «أنت»، ولكني أصرّ عليه: كان يجب عليك أن تتحدث معها أولا قبل أن تتحدث معي.

يقول: لن تفهمني، العلاقة بيننا متوترة مؤخرا.

أقول له فجأة: هل طلبت منك الطلاق؟

أدرك على الفور أنني قد أخطأت، ينظر لي ببعض الحدَّة، لكنه لا ينهض ولا ينصرف، يقول: هل قالت لك ذلك؟

أهزّ نفسي نافيا بشدَّة، أقول مؤكدا: نحن لا نتحدث في أي شيء خارج العمل.

ينظر نحوي في تشكك: بالطبع لا أستطيع أن أطلقها، لا أحد بترك لحمه، إنها بنت عمي وهي كل ما أملك، كما أن وضعي ليس جيدا، من يقبل بي وأنا في هذه الحالة؟

يسود الصمت بيننا، يأتي ماسح الأحذية وهو يخبط على الصندوق، يظلّ عيسى صامتا قليلا ثم يقول بعد أن نفد صبره: لم أسمع منك شيئا، هل ستعطيني النقود، أم لا؟

أقول مستغربا: لماذا أنت متعجِّل لهذه الدرجة؟

يقول: هذا هو الوقت المناسب للذهاب، الجو ليس حارّا وليس باردا، كما أن الرجل في القرية الآن ولن يبقى طويلا.

أسأله: أي رجل؟

يقول: شيخ العرب، الرجل الذي سيقودنا جميعا عبر بحر الرمال، إنه يعرف «مدقّا» رمليّا يخترق هذا البحر ويأخذنا مباشرة إلى الحدود حيث يمكن عبور الأسلاك الشائكة. لا أحد يضيع وهو يتبعه، لابدَّ أن أحسم أمري قبل أن يرحل ويأخذ الآخرين معه.

رغم كل شيء، أجد أنه لابدَّ من تحذيره، أعود للقول: إنها مخاطرة، هل أنت متأكد من صدق هذا الرجل؟

يقول فيما يشبه التوسّل: أرجوك إنها فرصتي الوحيدة للخروج من سجن القرية، لن تتكرَّر إلا بعد عام وربما لن تتكرَّر على

الإطلاق، أنا لا أذوق النوم من كثرة التفكير، لا أريد أن أظلَّ جالسا مستندا إلى الحائط أراقب الذين يأتون والذين يرحلون.

أقول معاندا: ولكنك لن تخبر زوجتك برحيلك.

يرتفع صوته قليلا: دعك من زوجتي الآن، أنا الذي أتحدث إليك، أنا الذي أحتاج للنقود، وأنا الذي سأردّها أضعافا إن كنت تريد.

هل كانت هذه فرصتي حتى أتخلص منه؟ ما الفرق أن تأتي فرح إليَّ وهي أرملة وليست مطلقة؟ هل يمكن أن أكون شريرا لهذه الدرجة؟ ولكني لم أختر شيئا له، هو الذي يختار مصيره بنفسه، ولكنها مخاطرة مزدوجة، فيها الموت والضياع في الصحراء، وفيها كل أحلام الثراء عندما يصل إلى هذا البلد البترولي المجاور. ينظر إليَّ وأنا جالس في حيرتي، كانت حيرته أقلَّ مني، لا تتنازعه إلا رغبة واحدة هي الرحيل بينما تتنازعني أكثر من رغبة؛ شعور غامر بالأنانية، وشعور بالخوف من المشاركة، تضيق عيناه وهو يواصل النظر إليَّ، يوشك أن ينفجر لو قلت كلمة تخالف توقعاته، كنت قد أذللته بما فيه الكفاية، جعلته يتبعني طوال الطريق ووضعت ثمرة ابني في رحم زوجته، لم يبقَ إلا أن أومئ برأسي وأنا أقول له: أجل.. سأعطيك ما تريد.

١١

تمضي الحياة بشكل عادي أو هكذا يخيَّل لي، يسود القرية هدوء مثير للريبة، أرى «فرح» كل صباح، تقابلني بوجه محايد بلا وله ولا كره، تشرق بابتسامة هادئة، فيها بعض من الانكسار، نتحرَّك حول بعضنا كأننا نؤدي رقصة خفية لا تنتهي، لا يوجد بيننا غير الكلمات الرسمية مغلفة بنظرات حائرة، لا يبدو أن زوجها قد أخبرها بشيء، ولم يرحل عن البيت بعدُ، هل كان يخدعني؟ النقود ليست المشكلة ولكن الموقف المحيِّر الذي أنا فيه، كان عليَّ أن أنفرد بها وأخبرها بكل التفاصيل، ولكن لم تتح لنا الفرصة، كما أنها ظلّت صامتة ومتباعدة قليلا، تحمل على كتفها هَمَّ الاتفاق المتواطئ بيننا، وتحمل في بطنها سرّا آخر لا تستطيع البوح به علنا. أشعر بأن الجميع يراقبوننا بمن فيهم المرضى، لماذا لا تُمطر الدنيا وتنقطع الطرق وتأتي فرح إليَّ ذات لحظة لنتحدَّث معا دون رقيب؟ ولكن الجو جافّ والشمس لا تكفّ عن السطوع. لا أجرؤ على الحديث معها ولكن كان هناك مجال للمجازفة والحديث مع دسوقي، أسأله وكأنني لا أقصد: هذا الرجل الذي جاء ذات مرة للعيادة.. شيخ العرب، هل سافر؟ هل عاد إلى قبيلته؟

يقول: مازال موجودا، يمكن أن تجده في كل مجالس القرية، لماذا تسأل عنه؟

أقول: لا شيء، ولكنه بدا متعجّلا في السفر.

يقول: سيرحل بالتأكيد، لكنه متكتم جدّا، وهو يستمع للجميع دون أن ينطق بكلمة واحدة.

يظلّ واقفا لـلّي أستأنف الحوار، لم يكن لديَّ جديد يمكن أن أضيفه، يتوقف الحوار بيننا، لكنه مازال يواصل النظر إليَّ، لا أدري سبب هذا الإحساس في داخلي، إن كل ما أقوم به يُثير الشبهات لدى الآخرين. ربما هو الإحساس بالذنب، لا يفارقني سواء كنت وحدي أو بين زحام المرضى، لا أدري ماذا يدور معها داخل بيتها، بيننا جدار مصمت لا يمكن اختراقه دون إثارة فضيحة، تتغيب عن الوحدة ثلاثة أيام كاملة، لا ترسل أي إشارة، ولا يظهر حتى زوجها، صمت مطبق ومحيِّر من جانبها، البلدة كلها صامتة في وجهي، ولكن في يوم الجمعة؛ اليوم الذي تغلق فيه الوحدة أبوابها، وينصرف دسوقي أخيرا إلى بيته، عند غروب الشمس بعد أن عاد الجميع من الحقول إلى بيوتهم، اللحظات التي يصمت فيها الجميع وترتفع الأدخنة من البيوت إلى أعلى. بعد أن مللت من القراءة والاستماع إلى الراديو، يدوِّي صوت الطرْق على باب الوحدة عاليا، أحاول أن أتجاهله ولكنه يتواصل، يتعالى أيضا نباح الكلاب، أهبط الدرج وأفتح الباب الخارجي، تقف فرح وحيدة مرتجفة، آخذها إلى الداخل بسرعة وأغلق الباب، كانت تبكي، عيناها محمرتان ومتورمتان، والكحل يرسم خطّيْن من السواد على وجنتيْها، ماذا حدث؟

تصيح فيَّ: لقد رحل.

أصنمت قليلا لأستوعب ما تقوله، فعلها أخيرا، أعرف ماذا تقصد ولكني لا أتوقع هذه الحالة من ردة الفعل، أقول فقط حتى أتأكد: ماذا تقصدين؟

تقول: زوجي عيسى، لقد رحل دون كلمة واحدة، لم أكتشف ذلك إلاّ اليوم.

ما زلت لا أفهم كيف تسلل عيسى، تجلس على أحد المقاعد وتكمل من خلال دموعها: قال لي إنه سيزور أقاربه في القرية المجاورة، لم يأخذ ثيابا لأنه سيعود في اليوم نفسه، ولكنه لم يعد، رحل عبر الصحراء.

أقول لها: كيف عرفتِ ذلك؟ ربما مازال عند أقاربه.

كنت أكذب، وكنت أعرف أنه قد رحل بالفعل، تقول: لم يرحل وحده، رحل معه عشرة آخرون بصحبة الأعرابي، البلد كله يتداول أسماءهم، أنا الوحيدة التي تأخرت في معرفة ذلك.

أقول: لو أنه قال لكِ، فهل كنتِ تسمحين له بالرحيل؟

تقول على الفور: كلّا.. ثم تقول: لست أدري.

أقول: ربما من أجل هذا لم يقل لكِ، أراد أن يتحمَّل وحده هذا القرار.

تقول في حيرة حقيقية: لقد تخلى عني فجأة، لا أدري ما السبب، هل عرف ما فعلته معك؟ هل غضب لأنني حاولت أن أنجب طفلا من رجل غيره؟ لابدَّ أنني السبب.

ندم قاسٍ يشعرني بالألم، أقول: كُفّي عن ذكر هذا الأمر، هذا

سرّنا، إذا لم تكوني قد ذكرتِ له شيئا فمن المؤكد أنه لا يعرف شيئا، ولا يجب أن يعرف أحد آخر بهذا.

تقول: لماذا فعل هذا إذن؟ الجميع يتحدثون عن السفر طوال الوقت، ولكنه لم يكن مثلهم، رغم ظروفه الصعبة لم يفكر قط في الرحيل.

أقول متفاجئا: هل أنتِ حزينة لأنه رحل؟

تقول باندفاع: أجل.. لم أتصور أن يفعلها بهذه الطريقة، من غيره يبدو البيت كمقبرة.

أتأملها صامتا، لماذا خاطرت بالحضور إليَّ إذن؟ هل لتخبرني بأن اتفاقنا لاغ، وأنها تفتقده؟ وماذا عن حقي الذي يتكوَّن داخل بطنها؟ ترفع رأسها وتنظر نحوي وقد برقت عيناها، تقول: ولكن من أين أحضر النقود؟ لقد سألت أقاربنا والناس الذين يعرفوننا، لم يُعطه أحد قرشا واحدا، وهو أيضا لم يطلب منهم شيئا؛ ربما لأنني سوف أعرف، ولكنه مازال أمرا محيِّرا.

أواصل التطلع إليها في صمت، كنت متهما ولم أكن أريد أن أزيد موقفي سوءا، ولكن رغما عني أبدأ في الشعور بالذنب العميق، لا أحاول الاقتراب منها ولا لمسها، أتركها تذرف دموعها ونهرف بكلماتها، ولكنها تعود حائرة لنفس السؤال: من أين أحضر النقود؟ لا يمكن لهذا البدوي أن يقدم شيئا بالمجان.

أشعر بالغضب يجتاح صدري، أهتف فيها من بين أسناني: كلّ هذا العويل من أجل رجل كنت تنوين أن تتركيه؟

ترفع رأسها وتتسع عيناها، تحدِّق فيَّ كأنها تراني للمرة الأولى: إنه زوجي، وابن عمي، قضيت معه طفولتي ومعظم أيام حياتي، وقد ألقى بنفسه إلى المجهول، أتعرف ماذا يعني عبور بحر الرمال؟

أشعر بأن الأرض تهتزّ من تحت أقدامي، أقول: ولكنَّ هناك اتفاقا بيننا، سنترك كلَّ شيء خلفنا لنكوِّن أسرتنا ونربي ابننا.

تنهض وتتحرَّك نحوي وعليها ملامح الشراسة، تقول: وماذا بعد أن تسأم مني، بعد أن تملَّ من جسدي وترغب في ممرضة أخرى أصغر سنّا؟ ماذا بعد أن تتخلى عني من أجلها؟ أين أذهب بعد أن أحرقت خلفي كلَّ شيء يمكن أن أعود إليه؟

أهتف بكل ما في قلبي من حرارة: لن أتخلى عنكِ أبدا.

لا يبدو عليها أنها تصدقني، لا تريد أن تصدق أي شيء، تقول: سوف يحدث. أنت الآن تعتقد أنه لن يحدث، ولكنه سيحدث، لن أكون المرأة التي باعت كلَّ شيء وخسرت كلَّ شيء.

تتوقف لتلتقط أنفاسها، أحاول أيضا التنفس، نلهث معا ولا يوجد في المكان هواء صالح للتنفس. كنت أنا الذي أعطيته النقود، أردت أن أزيحه من طريقي، فأزاحني هو، انتصر عليَّ دون أن يعلم، تركنا نقف متواجهيْن ونحن نرتعد عاجزيْن عن التصرف، لا أحاول أن أحتضنها أو حتى ألمسها، أنظر إلى بطنها فأجده قد برز قليلا، تقف حاجزا بيني وبينها، تزيد من شُقّة المسافة التي تفصلنا والتي لم تكن تتجاوز بضع بوصات، أقول محبطا: هل هذه هي النهاية؟

تقول: أريده أن يعود، وأن يجدني في انتظاره داخل بيته.

تستدير وتتجه للباب، لا أستطيع أن أمنعها ولكنها قبل أن تفتح الباب تلتفت نحوي متسائلة: هل جاء إليك؟ هل تحدثت إليه؟ هل أخبرك بما ينوي أن يفعل؟

أفهم الغرض الذي ترمي إليه، وكان يجب أن أكذب، أقول لها لست أنا الذي أعطيته النقود، ألقي اتهامك على أحد آخر.

كنت منزعجا ومغتاظا، استدارت وانصرفت سريعا، لا أصدق أن هذا الحوار قد دار بيننا، وأن كل شيء قد انتهى، هناك دائما بقايا لكل شيء. أشعر بأنني أختنق، كل الهواء الموجود في الوحدة مختلط بأنفاسها الغاضبة وبقايا دموعها. أصعد سريعا للسكن، ألملم بعضا من ملابسي، أودّ أن يكون في مقدوري أن أجمعها كلها وأغادر، أخرج مسرعا للطريق ولكني أرى «أحلاهم» وهي تمرق من أمامي، الحافلة الأخيرة، أصرخ طالبا من السائق أن يتوقف، لكنه لا يتوقف، أركلها حتى تختفي من أمامي، لم أكن أريد العودة وقضاء الليل وحدي، ولكن العثور على توصيلة شبه مستحيل. أظلّ واقفا متقبلا كل ما يحدث لي، ولكن في يوم سيئ مثل هذا يمكن أن تحدث معجزة صغيرة، تتوقف «ماكينة» أمامي تماما ويقول سائقها متسائلا: هل تنوي الذهاب إلى المدينة؟ أركب خلفه دون كلمة، ودون أن نتفق على السعر، يندفع الهواء، وأشعر فجأة بأنني أصبحت حرّا. يندفع الهواء إلى صدري باردا، محمَّلا ببعض الأتربة ولكنها محتملة، لا يهم إن ارتفعت الماكينة أو انخفضت، ما دمت ممسكا بجلباب الرجل وما دامت لا تسقط في الترعة. يقول الرجل شيئا ما، لابدَّ أنه يحدد سعرا، يفعلون ذلك دائما بعد أن يصبح الزبون في أيديهم. ألتقط أنفاسي عندما تصل «الماكينة» للأسفلت

ونكفّ عن التقافز، وتبدو ترعة الإبراهيمية بجانبنا هادئة ومتألقة ولكنها مستعدّة لابتلاعنا في أي لحظة. تتواصل رحلة الرعب حتى تظهر بيوت المدينة وشوارعها التي تفتقد الكنس، أقفز من خلفه وأعطيه ما يطلب دون مناقشة. هربت من القرية ولكن إلى أين، وإلى متى؟ من الصعب أن تألف مكانا خاليا من الأصدقاء. تسير بي أقدامي إلى اللوكاندة إياها وكأنه لا توجد في المدينة فنادق أخرى. كالعادة أجد بسطويسي خلف حاجز الاستقبال وصاحب اللوكاندة في الصورة فقط، يصيح بي: أنت وحيد هذه المرة أيضا، ومع ذلك ترفض هديتي.

أتناول منه المفتاح وأقول له: هذه المرَّة لن أرفضها.

ينظر نحوي مندهشا بينما أحمل حقيبتي إلى الغرفة، على حالها، ليست نظيفة تماما ولكنها خالية وفي انتظاري. أجلس على السرير البارد، كان قد فقد رائحتها ودفئها وعليَّ أن أعتاد ذلك. أخلع ملابسي وأستلقي على الفراش، فيمَ أخطأت؟ هل لأنني أحاول سرقة زوجة رجل آخر؟ هل سرقتها فعلا، أم أنها سعت إليَّ، قدمت لي جسدها على هذا الفراش؟ كيف تحوَّل ذلك الجوع الذي كان داخلي إلى حالة من العشق؟ كان يجب أن أقمع نفسي وروحي من التعلّق بحبال العواطف المتهرئة، أحرِّر جسدي من رغبتي فيها حتى تتحرَّر روحي، أسمع طرْقا على الباب، خافتا ومترددا كأنه همس، لا أبالي بارتداء ملابسي، أفتح الباب فأجد المرأة نفسها أمامي؛ العيون الواسعة التي يُحيط بها الكحل، والصدر البارز والفتحة التي تكشف عن جانب منه، تتأملني وعلى وجهها ابتسامة ساخرة: أرى أنك مستعدّ.

أوسِّع لها الباب حتى تدخل الغرفة، تتعمَّد أن تحتكَّ بي حتى أشعر بليونة جسمها، تتوقف في منتصف الغرفة وتتأملني قليلا وتقول: هل أنت متعجِّل لهذه الدرجة؟

أحاول الاقتراب منها ولمسها ولكنها تتراجع قليلا: الشغل أولا.. النقود يا روحي.

تمدّ أصابعها الطويلة، أخرج المحفظة من طيَّات ثيابي، أضع في يدها بضعة جنيهات، تظلّ مادَّة أصابعها نحوي فأضع فيها المزيد، لا يبدو أنها ستقتنع، أغلق المحفظة فتغلق هي أيضا أصابعها حول النقود، تقول: لا بأس، سأكسبك لأنك زبون جديد، في المرَّة القادمة يجب أن تكون سخيًا.

تضعها في حقيبتها وتغلقها في إحكام، تستدير وتبدأ في خلع ملابسها، أجلس على حافة الفراش وأنا أراقبها، تفعل ذلك ببطء وبطريقة استعراضية، أكتشف أن جسدها أضخم ممَّا كنت أتصور، وعلامات الزمن بادية في كل ثناياها، قبل أن أبدي أي ملاحظة أشعر بها وقد قفزت عليَّ وغطَّت جسدي بجسدها، تهتف وهي تلهث: لا قبلات، لا يعجبني لعاب الزبائن، الشغل من غيرها أفضل. تحاول خلع ملابسي الداخلية، كانت خبيرة بهذا الأمر، أشعر بلحمها العاري يلتصق بي، متعرِّقة وأنفاسها متحشرجة، أسمع صوتها متقطعا: لا تضغطْ على ثديي، لا يجب أن يتهدلا، كانا متهدليْن بالفعل، هل تضع كل هذه المحاذير للزبائن الآخرين؟ أتذكر «فرح» وهي تهبني جسدها بسخاء، وهي تستجيب ببهجة لكل لمسة مني، قبلاتها وما أحلى مذاق ريقها، يدخل شعر المرأة في فمي، خشنا ومليئا بالزيوت، أخرجه من فمي قبل أن أتقيأ، تقول: الأفضل أن أكون في

الأعلى، أريد أن ترتاح أنت وأكون أنا المتحكّمة، لا أدري من أين
.دأ جسدها ولا أين ينتهي، تبدو هي فعلا المتحكّمة في الإيقاع،
بجلس بنصف جسدها العاري على ساقيَّ وتُشير لي محذرة: كل
سائل في الخارج، أنا مازلت في عزي ولا أريد أن أحمل رغما عني.
اصيح بها وقد أحسست بالاختناق: لا أريد أن أمارس الجنس معكِ
بهذه الطريقة، لن تتحكَّم فيَّ امرأة بعد الآن، أنزع نفسي من تحتها،
أمسك معصميْها بقبضتي وأثبتهما في أعلى رأسها، ألوي جسدها
حتى يصبح تحتي، تقول في دهشة: ماذا تفعل؟ ولماذا هذه العنف؟
لا أردّ عليها، لا أبالي باعتراضاتها، أدهس ثدييْها بيدي الأخرى، لا
رغبة لي في تقبيلها، ولكن جسدها يجب أن يخضع لي، تهتف: لا
أحبّ العنف، إنها مجرد نومة وليست معركة، أريد أن أصبَّ فيها
كل شحنة الغضب الموجودة بداخلي، أحرِّك جسدها كما أريد،
تريد أن تقاوم فيثير هذا غضبي أكثر، أجثم فوقها بمزيد من العنف،
أريد أن أردع أي مقاومة وأخضعها لإيقاعي، تحذرني: جسدي لا
يحتمل، سأنهض وأنصرف، لا أحبّ هذه الشغلانة المؤذية. أرفع
يدي وكأنني أهُمّ بلطمها على وجهها، تُغمض عينيْها وتهتف:
أرجوك، لا تفعل. يرتجف جسدها، لم أضربها، ولكن يبدو أنها
تتذكر كل الرجال الذين فعلوا ذلك. يرتجف جسدها وتكفّ عن
المقاومة. المتعة مفقودة، لكن الطقس الحيواني يتواصل، هل
أسعى للراحة، أم للانتقام؟ لا جدوى من فعل ذلك في جسد
غريب مأجور. أنهض واقفا وأبتعد عن الفراش، بعيدا عن جسدها،
ألمح خيالي في المرآة المعلّقة على الصوان، ينتابني خجل مفاجئ
وأبحث عن شيء أغطي به عريي، ترفع يدها وهي تهتف: يكفي ما
حدث، توبة منها النوبة. أريد أن أعتذر لها ولكني لا أستطيع، أقدِّم

لها ثيابها، لم أعد أستطيع رؤيتها وهي عارية، تشير للبقع الزرقاء في جسدها: يجب أن تدفع لي تعويضا. أنظر إليها فتصمت في خوف، ولكني أعطيها المزيد من النقود حتى تنصرف، أريد أن أضع نفسي تحت الماء، أخلّص جسدي من رائحتها، من آثار لحظة الضعف التي ألمَّت بي، تحمل ملابسها وتغادر الغرفة قبل أن ترتديها، يبدو شكل الفراش أشعثَ ومشوَّها، عاجزا عن أن يُثير أي ذكرى في نفسي. يرتجف جسدى كله وأنا أتلقى أولى دفقات الماء البارد، أظلّ أغسل جسدي بالصابون ومع ذلك تظلّ رائحتها في أنفي وفي الفراش أيضا، جسدي أصبح غريبا، وانعكاس صورتي في المرآة أضحى غريبا، وكل الأثاث والجدران وحقيبة ملابسي. من المثير للغرابة أن أكون في هذا المكان، أتكوَّم في الفراش، أحتلّ أقلَّ حيِّز ممكن منه وأترك جسدي فريسة لكل أنواع الكوابيس.

في الصباح يستقبلني بسطويسي بابتسامته الصفراء، ولكنه عندما يرى وجهي غير الراضي يهمس لي: سأرسل لك فتاة ثانية.

أصيح فيه: لا ثانية ولا ثالثة.

أخوض في طرقات المدينة، وأتناول الإفطار في مطعم صغير على النيل، وأشاهد جبل البر الغربي واقفا صامتا بما فيه من مقابر وأسرار، كيف انهار جسمي فجأة وتقوَّض عالمي؟ أنا أجلس الآن في مطعم جانبي في الوقت الذي كان يجب أن أجلس خلف مكتبي في غرفة الكشف، وفرح بثيابها البيضاء الناصعة تقف بجانبي لتساعدني، وكلما التفتّ نحوها تُعطيني ابتسامة، كل شيء أصابه التلف، وهأنا ذا عاجز عن مواجهة الوحدة الخالية، محمَّلا بذنب زوج لم يكن له أي أهمية، سيعود من رحلته، ضائعا أو محمَّلا

بالرمال، وسيجد مكانه في أحضانها، وسيضحكان معا ويُلاعبان طفلهما الصغير، وأتحوَّل أنا إلى ذكرى بعيدة ليس لها أي أهمية، أنا الذي حوَّلت نفسي إلى ذكرى بلا أهمية.

أطوف في طرقات المدينة الموحلة طوال اليوم، وأجلس ساعات طويلة أراقب الشمس وهي تسقط خلف الجبل الغربي قبل أن ينطفئ الضوء فجأة ويسود الظلام. لا أصطحب أحدا إلى غرفتي، حتى الفراش أصبح معاديا لي. فقدت الذكرى الحلوة التي كانت باقية منها، ولست قادرا على النوم لساعات طويلة، أجلس كل صباح مبكرا لأشاهد شروق الشمس ويقظة الحمائم البيضاء، أتابعها وهي تحوم على صفحة النهر، قطعا متناثرة من سحب صغيرة ضلّت طريقها إلى الأسفل، من الصعب أن تعاود الصعود بعد أن يلوِّثها الغبار، يقترب مني صياد عجوز بقاربه، شبكته خالية، لم يحالفه الحظّ، يقول لي: هل تريد العبور للضفة الأخرى؟ أقول: وماذا يمكن أن يكون في الضفة الأخرى؟ لا يوجد إلا الجبل، يقول: كلّ جبل وله أسراره، هو قائم في هذا المكان لآلاف السنين التي مرَّت وآلاف أخرى قادمة، يضرب مجذافيْه في الماء الداكن، ويبدو النهر ممتدّا وساجيا بلا نهاية، عاجزا عن الغضب ولكنه ينطوي على حزن قديم. يظلّ الصياد يضرب بالمجداف وهو يشكو لي حاله: عاشرت النهر طويلا ولكنه يبدو وكأنه غاضب مني، لا يدع أسماكه تقترب من شباكي، سأبتهل إليه من الضفة الغربية حيث ترقد الشمس لعله يرضى.

تقترب الضفة الأخرى ببطء، وتبدو صخور الجبل مثل حيوانات مجمَّدة رابضة في انتظارنا، يتسلق الصياد فوقها وأنا أتبع

خطاه المبلّلة. هناك الكثير من حوافّ الصخور الجارحة، لا تنا،
بالذين يعبرون فوقها، يُشير الصياد إلى قمة الجبل، هناك مغارة يلجأ
إليها الجميع؛ قطاع الطرق والهاربون من الشرطة وبعض المجانين
والعشاق الفاشلين. كانت المغارة مظلمة وباردة، في مدخلها بقايا
رماد وأغصان محترقة بجانبها كومة من عظام طيور مجهولة، وعلى
جدرانها المليئة بالحفر والنتوءات توجد نقوش وألوان باهتة، وفي
عمق المغارة توجد صخرة مستطيلة ومستوية، كأنها فراش من
حجر، لابدَّ أنه استقبل العديد من أجساد الهاربين والمتعبين. منفى
خشن لا يُطاق، أخرج من ظلمته الرطبة للشمس الحارَّة، يجلس
الصياد على حافّة الصخر وساقاه متدليتان للأسفل، ولا يوجد تحته
إلا النهر والفراغ، أجلس بجانبه، يقول: نحن الآن نجلس في نهاية
العالم.

أقول: أي عالم، وأي نهاية؟

يقول: هنا الجوع، الجوع يعني يوم القيامة، لو أن النهر كان
راضيا عني ما صعدت إلى هذا المكان، ما صعدوا جميعا إلى هنا.

نبدأ في الهبوط، أشعر أكثر من مرَّة بأنني على وشك السقوط،
تمزِّق حوافّ الصخور الحادَّة ثيابي وتجرح ساقيَّ. أوقعت نفسي
في فخّ كما أفعل دائما، يقودني الصياد إلى البر الآخر حيث أدرك أن
رحلة هروبي قد انتهت، لابدَّ من العودة للمكان الذي يخصني حتى
لو كان ذلك مؤقتا، أعود للفندق وأجمع حقيبة ثيابي، وأسير إلى
موقف «أحلاهم»، أندسّ بين ركاب الحافلة الأخيرة، لا أجد مقعدا
خاليا، ولا أدري لماذا لم يتنازل أحد لي عن مقعده، أتأرجح معهم
وأتحمَّل اصطدام أجسادهم وهم لا يكفون عن الحديث والصراخ

في أذنيّ، «أين كنت يا دكتور؟». ويصيح آخر بي: لماذا ظلّت الوحدة مغلقة كلّ هذا الوقت؟ أقول أي كلام وأي تبرير، يحاصرونني حتى أعدهم بأن الوحدة لن تغلق بعد الآن، ومع ذلك ظلوا يعاقبونني بنظراتهم، يحشرونني بينهم. تبطئ الحافلة من سرعتها عندما يبدأ الظلام في الهبوط، وأظلّ أدعو في سرّي أن نبتعد عن حافة الترعة نهائيًا، يظلّ السير متواصلا، ويختفي كلّ أثر للضوء، أتنهد في ارتياح عندما أشاهد هامات النخيل، ويبدو الطريق المؤدي للبلدة واضحا تحت أضواء الحافلة، تمرّ اللحظات بطيئة قبل أن تتوقف الحافلة ويندفع الجميع إلى الخارج، أندفع معهم أيضا. أبواب الوحدة مغلقة، ونوافذها مظلمة كأن لم يسكنها أحد، ولكني أعرف طريقي إلى غرفتي. أخلع ثيابي المتسخة وأترك الماء ينثال على جسدي، أتخلص بصعوبة من وسخ المدينة ورائحتها، أجلس هادئا على فراشي، أدرك فجأة أن مشروعي قد خاب، وأن امتلاكي لجسد بجانبي وصوت طفل يصيح في الغرفة المجاورة لن يتحقق، لا شيء بهذا الجمال يمكن أن يأتي بسهولة، لو لم أخض تجربتي مع فرح، لكانت ستشبه هذه القرية عشرات القرى الأخري المنسية من آلاف السنين، ولكن هذه التجربة الخاطفة أعطتني لمحة من الحلم الذي تبدّد.

يشقّ الصمت صوت طرْق عنيف على الباب الخارجي للوحدة، هل هو مريض مزمن، أم أن «فرح» قد تخلت عن غضبها؟ لا أستطيع التظاهر بأنني غير موجود؛ لأن النور يشعّ من نافذتي وتراه كلّ القرية. يتواصل الطرْق ويعلو نباح الكلاب، أحمل المصباح وأهبط إلى أسفل، أجذب المزلاج الضخم وأدفع الباب، أجد

آخر وجه كنت أتوقعه؛ وجه عمدة القرية المربد الغاضب المتهدل الشارب، أنظر له مندهشا، أتحمَّل نظراته النافذة التي يوجِّهها إليّ، أقول له: هل أنت مريض؟

كان على وشك الانفجار، يصيح فيَّ بصوت خشن: أين هي؟

أحدِّق فيه محاولا الفهم، ولكنه يتحرَّك أسرع مني، يُزيحني ليوسِّع الطريق، ثم يندفع إلى داخل فناء الوحدة، يدور حول نفسه ثم يتوقف عندما يرى الظلام يسود كلّ شيء، يحدجني بنظراته، لم يكن غاضبا فقط، كان متعبا أيضا، أعاود السؤال: أنت مريض بالفعل، أليس كذلك؟

لا يردّ عليَّ ولكنه يندفع نحوي وينتزع المصباح من يدي، أخشى أن يتحطَّم أو يسقط، أتركه له دون مقاومة، تهتزّ الظلال بسبب يده المرتعشة، يدخل غرفتي الرعاية والكشف، يدور فيهما بحثا عن شيء ما، يكتشف وجود الدرج المؤدي للأعلى، ينظر نحوي دون كلام ثم يبدأ في الصعود. لا مجال لمناقشته أو سؤاله، يتحرَّك بنوع من الهستيريا والهيجان ومن الصعب إيقافه دون الاشتباك معه. أقف في الظلام دون رغبة في اللحاق به، أسمع صوت خطواته من غرفة لأخرى، لا أعرف إن كان يفتش صوان الملابس أو يفتح الحقائب ولكن السكن كان أضيق من أن يُخفي شيئا. يظهر ضوء المصباح بعد فترة ويهبط مجهدا زائغ العينيْن، ينظر لي عاجزا عن التكلم وعن الاعتذار. آخذ منه المصباح، أقوده في رفق إلى غرفة الكشف، نجلس على مقعديْن متقابليْن، لم أكن بحاجة لأن أسأله عمَّ يبحث، كنت قد شاهدت شيئا من بداية العاصفة، ونحن الآن في نهايتها، أقول له: هل بحثت في أماكن أخرى؟

يقول وهو يلهث: لم أترك مكانا، فتشت بيوت كلّ أقاربها ، معارفها، الأخير هو أنت؛ أنت الرجل الوحيد في البلد الذي تحدّثت إليه دون أن أعرف ماذا قالت، تخيّلت أنها قد اختبأت عندك.

أقول: ربما لم تكن في القرية كلها، والأرجح أنها غادرت للمدينة، كان عليك أن تذهب لبيت أهلها.

يخفض رأسه وهو يقول: فعلت ولم تكن هناك. أهلها فقراء جدّا ويسكنون أفقر أحياء المدينة، لقد تزوّجتني هربا من هذا البيت، كانت تريد فقط غرفتها الخاصّة، بعيدا عن زحام أخواتها.

الطائر الذي يفرّ لا يعود، وهذه المرأة بالذات لا أظنّ أنها ستعود إليه. فكرت في نفسي أنها امرأة يائسة، يمكن أن تلجأ إلى أي مكان إلا جحيم زوجها. يصمت قليلا قبل أن يقول: لا أدري كيف هربت، هناك العديد من الخَفَر حول البيت، كانوا يخبرونني بكل تحركاتها، كل الذين دخلوا البيت، وكل الذين تحدثوا إليها، إنها لم تمضِ وحدها، كانت معها حقيبة كبيرة فيها كل ذهبها وثيابها الثمينة، كيف لم يلاحظها أحد في طرقات هذه القرية الضيقة.

أقول: المرأة عندما تريد تكون قادرة على فعل أي شيء.

يصرّ على القول معترضا: إنها ليست امرأة، إنها مجرد طفلة وكنت أعاملها على هذا الأساس، أعشقها أحيانا، وأربيها في أحيان أخرى، كنت أنتظر لحظة نضوجها عندما تأتيني بوريث.

لا أشعر بالشفقة عليه. كان أجهل من أن يرى لحظة نضوجها وتحوُّلِها، اشترى صندوقا مغلقا دون أن يحاول أن يفتحه ويرى ما فيه، وكان من المستحيل أن يرى كمية الكراهية التي تُكنها له.

أقول: لماذا لا تجلس في بيتك صامتا؟ أنت عمدة ويجب أن تحافظ على سمعتك.

يهتف: وأتركها هكذا تفعل ما تريد؟

أقول كاذبا: ربما تعود من تلقاء نفسها، وربما لا، ولكنك تكون قد كسبت نفسك وقلّلت حجم خسائرك؛ خسائر سمعتك على الأقل.

يقول في يأس: كنت أريد أن أبلّغ الشرطة، يمكن أن أتهمها بالسرقة.

العمدة يظلّ عمدة، حتى لو كان كسير القلب، أقول: في بلدة صغيرة مثل هذه لا أنصحك بفعل ذلك.

ينهض واقفا ويقول في إحباط: حسبت أنك ستقدم لي شيئا.

أقول: لم أقدم لك ما تريده؛ لأنه لا توجد أي علاقة بيني وبين زوجتك الهاربة.

يحدِّق فيَّ ويقول: لن آخذ بنصيحتك، ولن أكفَّ عن البحث.

يستدير وينصرف مسرعا، أراقبه حتى يغوص في الظلام، أغلق باب الوحدة وأصعد إلى سكني الخالي، يظلّ نباح الكلاب يتردد في أذنيَّ طوال الليل.

١٢

صوت هاتف الوحدة يرنّ، هاتف أسود قديم كنت أظنّه معطّلا عن العمل، لم أسمع صوته إلا في مرَّات قلائل، ولا تعتمد مديرية الصحة عليه في إبلاغي بأي أوامر، لكنه يرنّ الآن في تواصل مُلحّ، أريد أن أتجاهله، ولكني غبت عن الوحدة بعض الوقت، ولا أدري كَمَّ المصائب التي وقعت دون أن أعلم بها. كان الهاتف متصلا عن طريق دوار العمدة، واحدا من الهواتف القليلة في الناحية كلها، أرفع السمَّاعة أخيرا ويأتيني الصوت الأجش: أخيرا عثرت عليك.. لقد أوشكت أن أبلِّغ كل السلطات عن اختفائك.

المأمور يتحدث بصوته الأجش المميَّز، يبعث نبضات قوية في تلفون الوحدة الميِّت، لا أدري ماذا أفعل غير أن أقول: خير.

يقول: لقد أرسلت لك إخطارا رسميّا على الوحدة، ألم يصل إليك؟

لم أكن قد سألت، ولم يسلمني دسوقي أي إخطار.

يقول: الوقت قد تأخر جدّا، وعليك أن تستعدّ، كان يجب ألا تغيب عن الوحدة قبل أن تخطرنا بمكانك.

مَنْ هذا الرجل؟ هل يعتقد أنني تابع له؟ لا يبالي بصمتي ولكنه

يواصل الكلام: نحن في مهمة إنقاذ، المهمة ستبدأ صباح «ا.
ستكون سيارات الشرطة أمام باب الوحدة مبكرا، هناك أرواح
ضائعة علينا إنقاذها.

يختفي صوته ولا يبقى سوى صوت صفارة متقطعة، يغلق
الخطَّ من جانبه دون أن يقول شيئا واضحا، أصرخ مناديا دسوقي،
أسأله عن هذا الإخطار الذي جاء من الشرطة، يأتي مسرعا يحمل
ورقة عليها عدة توقيعات وأختام؛ إخطارا رسميًا جافًا، لا توجد
فيه غير الكلمات الغامضة نفسها؛ مهمة إنقاذ بعض الضائعين،
دون أي معلومات إضافية، لا شيء عن مكان هؤلاء الأشخاص
ولا عددهم. أدخل إلى غرفة الأدوية وأبدأ في إعداد بعض الأدوية
التي يمكن أن تكون مفيدة؛ مخفضات للحرارة، مضادَّات للعدوى،
بعض الأمصال ضد لدغ الثعابين والعقارب، وأشياء أخرى يمكن
أن تساعد، وأظلَّ قلقا طوال الليل. أنهض مبكرا وأنزل في الصباح
الرمادي قبل أن يأتي دسوقي لأعيد ترتيب كل شيء. أجلس بالقرب
من باب الوحدة وأراقب الطريق، أتأمل بقعة من البقع الموحلة أمام
الوحدة والعصافير الصغيرة تقف على حافتها، تشرب ثم ترفع
أعناقها إلى أعلى ليهبط الماء لبقية جسدها، يأتي دسوقي مستغربا
من استعدادي المبكر، لكني لا أستطيع أن أخفي قلقي.

تطير العصافير مفزوعة عندما يشقّ الصمت صوت المحركات،
يثور الغبار عاليا وألمح من خلاله سيارتي شرطة قادمتيْن نحوي؛
سيارتيْن كبيرتيْن لونهما أسود، وعلى كل واحدة صورة نسر فارد
جناحيْه يحيط به قوسان من أغصان الزيتون، أظلّ واقفا حتى يهدأ
الغبار وتتوقف المحركات، ثم يقفز المأمور كعادته، بكامل هيئته

..نجومه الذهبية اللامعة، يقف أمامي وهو يضرب سرواله بعصاه الصغيرة ويقول: أرى أنك استيقظت مبكرا، هل استعددت للرحيل؟

أقول مندهشا: إلى أين؟

يسير إلى الداخل، يجلس على مقعد في غرفة الكشف، يقول: إلى الصحراء، وهل هناك في مصر غيرها؟ المبتدأ والختام، سنبحث عن البشر الضائعين في بحر الرمال.

يتحدث بانشراح كأنه ذاهب إلى رحلة خلوية، آخر مشهد له في ذاكرتي وهو يرفع مسدسه مهدِّدا الجميع حتى يوافقوا على التزوير المطلق للانتخابات، لم يكن رقيقا ولا خفيف الدم، أسأله: من هم؟

يقول: مجموعة من الحمقى، أي عاقل يُلقي بنفسه في هذه المتاهة؟

أتلفت حولي حائرا: لم أفهم الأمر على هذا النحو، ربما لم تكن أدويتي كافية.

يقول في تأكيد: معنا «جراكن» مياه وبعض معلبات الطعام، علينا أن ننقذ ما يمكن إنقاذه.

يبدو لامباليا، يجلس مسترخيا بينما يقف الجنود منتصبي القامة، ولكن لا أحد يتحرَّك من مكانه كأن عمليات الإنقاذ ستتمّ في فناء الوحدة. يُخرج سجائره ويبدأ في التدخين، ينظر دسوقي نحوي، كأنه يذكرني بأنني حرَّمت التدخين تماما داخل الوحدة، ولكني ظللت صامتا، ماذا عليَّ أن أفعل؟ كيف يمكن أن أحتجَّ؟ أقول: ألا يجب أن نبدأ التحرُّك؟

يقول: صبرك بالله يا دكتور، كما أقول لك، الصحراء متاهة و...
أن ندخلها لابدَّ من دليل، نحن الآن في انتظاره.

بدا كأنه يحدِّث تلميذا صغيرا، يا رب، هذا الرجل الوحيد الذي
لا أحبّ صحبته ومع ذلك أجده دائما في طريقي، أو ربما هو الذي
يضع نفسه لغرض ما. أجلس على المقعد بعيدا عنه قليلا، أراقب
الطريق، كيف يأتي هذا الدليل: على قدميْه، أم يركب جملا؟
يذهب دسوقي ليصنع الشاي، ألتفت للمأمور، كنت أشعر بحنق لا
أعرف مبرِّره، أسأله: لماذا أنا؟ لماذا لم تستعن بأي طبيب آخر تابع
للشرطة؟ أنا مجرد طبيب صغير في وحدة منزوية.

ينظر لي طويلا متأمِّلا: أليس هذا واضحا؟ كل هؤلاء المفقودين
من هذه القرية، أو خرجوا منها، إنها مسئوليتك بشكل أو بآخر.

لا أنطق بحرف، ولكني أتذكر عيسى على الفور، اللحظات
الأخيرة وأنا أعطيه النقود التي أعرف أنني لن أستردَّها، هل كانت
ثمنا للضياع والموت؟ يمتلئ حلقي بغصة خانقة، يضع دسوقي
كوب الشاي أمامي فلا أستطيع أن أمدَّ يدي، أتذكر وجه فرح وهي
تحدِّق في عينيَّ وأنا أنكر، لم تصدقني، مؤكد لم تصدقني. أنظر
إلى المأمور متوجسا وهو يرشف الشاي، هل يعرف بالفعل مدى
مسئوليتي عن ذلك الضياع؟ أفيق من شرودي وقد ارتفع صوت
أحد المحركات وشكل غبار الطريق وهو يثور. سيارة أخرى
قادمة، نصف نقل سوداء ضخمة تابعة هي أيضا للشرطة، تتوقف
أمام الباب دون أن يتحرَّك المأمور، يبدو كمن يعرف ما فيها، يهبط
منها شرطيان، يذهبان لمؤخرة السيارة ويجذبان منها شخصا مقيَّدا
ويُلقيان به على الأرض. أنهض واقفا. امرأة مقيَّدة، كانت الجازية

واءه كما يحدث لها دائما، تحاول النهوض ولكنها لا تستطيع، م.ها أشعث ووجهها ملطخ بالأوساخ، لا يتحرَّك المأمور من ..انه ولا يترك كوب الشاي، ولكني ألمح في عينيْه بريقا غريبا وهو اءلها، هل هي رغبة، أم تشفٍّ؟ يكزّ على أسنانه وهو يصيح: ماذا «ملتم بها يا أغبياء؟ طلبت منكم إحضارها وليس القبض عليها.. ا.الفوها فورا.

يتقدم شرطيان ويساعدانها على النهوض ويفكّان قيدها، تنزع .مسها منهما، تتقدم منّا وهي غاضبة، تصرخ: ماذا تفعلان بي؟ كيف .امرهما بنزعي من بين أهلي بهذه الطريقة؟

بالطبع لم يفكر المأمور في الاعتذار، ولا أعتقد أنه سيفعل يوما ما، اكتفى بأن يقول وهو يتفحصها: كنا في حاجةٍ إليكِ، تصوري، ولم يكن العثور عليكِ سهلا؛ لذلك كلفت المخبرين بالبحث عن حضرتك.

لا تبالي لسخريته، تضع يدها في وسطها وتصيح: وماذا تريدون مني: أرقص في فرح، أم أندب في مأتم؟

يزوم المأمور غاضبا: احفظي لسانكِ، هل تعتقدين أننا سنتوسل إليكِ؟ ستأتين معنا في جولة صغيرة في الصحراء، نريد أن نصل إلى المدقّ الذي يسير فيه المهربون في بحر الرمال.

يتغير شيء في وقفتها حين تعرف أنها مطلوبة وليست متهمة، تنصب قامتها أكثر وتدفع بصدرها للأمام، تترك وضع الاستخذاء والتوسُّل وتصيح معترضة: أنا غجرية ولست مهرِّبة، ولا أعرف أي مدقات.

يقول المأمور في لهجة مهدِّدة: هل تعتقدين أننا نيام و...
مغمضة؟ نحن نعرف أنكِ وقومك لا تكفون عن اجتياز الصـ...
وعبور الحدود كلّ حين من الزمن، هذه وحدها تهمة كافية لر...
جميعا في السجن.

ينهض واقفا ويضع يده في حزامه، يبدو عملاقا متوعدا، يُ...
بإصبعه متوعدا: اسمعي يا بنت، لا وقت لديَّ للنقاش ولا الجد...
نحن نعرف أنكِ أنتِ التي تقودينهم في كل مرَّة، وإذا لم تدلينا على
هذا المدقّ، أقسم بالله لا أنتِ ولا أهلكِ ستريان ضوء الشمس مرة
أخرى.

تتوقف الجازية صامتة، لدهشتي لا تبدو أنها قد تأثرت قليلا
بالتهديد، تُدير عينيْها بيني وبين المأمور، لا أستطيع أن أقدِّم لها
شيئا، كان ما يحدث أمامي جديدا ومفاجئا. تنفض التراب من
على ثوبها، تدفع شعرها للوراء، ويظهر القرْط النّحاسي المستدير
المعلّق قي أذنها، تقول: عندي شروط.

يقول المأمور: هي حصَّلت، مَنْ أنتِ حتى تشترطي عليَّ؟

تقول بتصميم: لا أريد لأحد من رجالك أن يتعرَّض لنا، أو
يعتدي علينا ويستولى على نقودنا.

يُشير المأمور لواحد من العسكر: دعها تُفقّ.

يتقدم العسكري ويصفعها على وجهها بقوة، ترتطم بالأرض
لكنها لا تُصدر تأوها، أنهض منزعجا، أهتف: حضرة المأمور، لا
يصحّ.

يظلّ هو واجما، تستند الجازية إلى الأرض وتنهض، تحاول الـ.ـقف بثبات أمامه، وتنفض التراب من على وجهها مرَّة أخرى، و..ـسح خيط الدم الذي انثال من فمها بظهر يدها، وتأخذ وضعها الـ.ـحدي وهي تقول: أهذا آخر ما عندك؛ تأمرهم بضربي؟ تفضل الـ.ـ أيضا وافعلها!

لا تبالي بجسده الضخم ولا نجومه اللامعة ولا وقفته المتحفزة، ..لفت حوله وقد ذاب جزء كبير من هيبته، يقول: كيف وأنتم جميعا حارج القانون؟

تظلّ واقفة، واضعة يدها في خصرها، تقول: هذا شَرْطي، امنعهم عنا، يكفي ما رأيناه منهم.

يظلّ المأمور صامتا لبرهة، ثم يقول: موافق. لن يتعرَّض لكم أحد منَّا؛ شريطة ألا تخرجوا عن القانون،

لا تبدو راضية، تواصل القول: أريد هذا الكلام مكتوبا.

يتلفت المأمور حوله في حيرة، يدرك أنه لن يستطيع أن يأمر بضربها مرَّة أخرى، يقول: وكيف أستطيع أن أوفر لكِ هذا التعهد مكتوبا الآن؟

نظلّ واقفين في صمت وحيرة، ولكن دسوقي يُقدِّم الحلَّ، يأتي من داخل الوحدة وهو يُمسك دفتر الروشتات في يد وقلما في اليد الأخرى، يُعطيهما للمأمور الذي يزفر ساخطا، يضع الدفتر على ركبته ويبدأ في الكتابة بصوت عالٍ: أمرنا نحن مأمور الناحية بعدم التعرض لقبيلة الغجر الموجودة في المنطقة، وعدم ضربهم أو إهانتهم أو رميهم في الحجز إلا بسبب الجرائم التي يُعاقب

عليها القانون. يمزّق الورقة من الدفتر، ويُقدِّمها لها وهو يقول: هل يُرضيكِ هذا؟

تتناول الورقة، تقبِّلها وتضعها على رأسها، بادرة احترام جعلت المأمور يتخلى عن غضبه قليلا، تطويها ولكنها لا تضعها في صدرها كما توقعت، تتجه إلى دسوقي وتقدِّمها له وهي تقول: سيأتي أهلي للبحث عني، أعطهم هذه الورقة وقلْ لهم إلى أين ذهبت.

كنا جميعا نعرف أنها ورقة بلا قيمة، لن يلتزم بها حتى أصغر مخبر في الناحية، ولكنها تشعر بأنها انتصرت، غسلت جزءا من المهانة التي تشعر بها كلما تعاملت مع الشرطة، ومع هذا المأمور بشكل خاصّ، بالتدريج تكتسب مهابتها كزعيمة للغجر. ويكتسب جسدها المنهك طاقة خاصَّة ويصبح مفعما بالأنوثة وفياضا بالحياة، تقول فجاة: قبل أن نتحرَّك أريد أن أدخل الحمام.

يقول المأمور في سخرية: منذ متى تحتاجين مكانا مغلقا؟

تردّ عليه في تحدّ: لا أستطيع أن أفعلها أمام كل هؤلاء الرجال.

أتدخل أنا وأشير لدسوقي أن يأخذها إلى دورة مياه الوحدة، تُلقي عليَّ نظرة ممتنّة وهي تتبعه. يهبط المأمور ويأخذ في ترتيب الرجال، يقول لي: ستركب بجانبي في المقعد الخلفي للسيارة الجيب، وهذه المرأة ستجلس بجانب السائق، وسوف تتبعنا السيارة نصف النقل ببقية العساكر.

آخذ حقيبتي أخيرا وأصعد الى المقعد الخلفي للسيارة، بطرف عيني ألمح بعضا من الغجر وهم يُطلّون علينا من بعيد، خائفين ومتوترين، ولكن لا أحد منهم يحاول الاقتراب، يتجمع أيضا بعض

أهالي البلد، نظلّ واقفين والمأمور يزفر في غيظ، ثم تقبل الجازية أخيرا، تمشي بهدوء وثقة، مشيتها المعتادة، تضع قدما مكان الأخرى، تعرف مكانها دون أن يدلّها أحد، تجلس بجوار السائق، ونبدأ جميعا في السير.

نخترق طرقات القرية التي استيقظت مذعورة، تنبح الكلاب في إثرنا، ويتطلع إلينا الأطفال وهم يتثاءبون أمام البيوت، تهرب الدجاجات ويقفز الإوز في الترعة، نتجه في طريق عكسي للاتجاه الذي يقود للمدينة، هل مررنا بمنزل فرح؟ هل يمكن أن تدرك المهمة التي نقوم بها؟ وأننا ذاهبون، أنا على وجه الخصوص، للبحث عن زوجها الضائع. نعبر المصرف المتسخ، ندخل طريقا ضيّقا وسط الحقول، تدهس عجلات السيارتيْن المزيد من الزرع دون أن تبالي بالتوقف، الجازية تجلس منتصبة بجانب السائق، لا تلتفت نحونا ولو لمرَّة واحدة، وأنظار المأمور مسلطة على ظهرها، توشك أن تخترقه، تحتكّ كتفه بكتفي باستمرار، لست مرتاحا لهذه الدرجة من القرب، لو أنه يجلس بجوار السائق ويترك الجازية تجلس بجانبي لكان الوضع أفضل، لاستطعنا التحدّث دون أن نترك الفرصة لصوت المحرِّك ليخرم آذاننا، ورغم ذلك أتحدث إليه: حتى هذه اللحظة لا أفهم ما حدث بالضبط، وكيف ضاع هؤلاء الرجال، وكيف عرفتم بأمرهم.

يقول بصوت خفيض حتى لا تسمعنا الجازية ولا تشاركنا الحديث: إنه أمر أصبح يحدث دائما، هذه المنطقة هي الأقرب للحدود البعيدة، أقلّ من خمسمائة كيلو متر، خاصة للذين يسيرون على أقدامهم، هناك طريق لا يعرفه سوى سكان الصحراء من البدو،

ويستغلّ بدو قبيلة «العوايسة» هذا الأمر ويقودونهم عبر الصحراء ليدخلوا الدولة المجاورة عبر الأسلاك الشائكة، إنهم «السلكاوية» كما يُطلقون عليهم، ولكن هذه المرَّة لم تكن نقودهم كافية، لم تقنع البدوي بإكمال المشوار، تركهم في منتصف الطريق، لا يعرفون في أي اتجاه يسلكون.

أقول مندهشا: كيف عرفتم بكل هذا؟ هل رأتهم إحدى الطائرات؟

يقول: كيف يمكن أن ترى الطائرة بضعة أشخاص ضائعين؟ لا أحد يفرِّق بينهم وبين الصخور، هذا البدوي النذل قصَّ هذه الحكاية على أحد أقاربه، لم يكن يعلم أنه يشتغل مرشدا معنا، المصادفة وحدها هي التي جعلتنا نعرف ماذا حدث، ورغما عنَّا جميعا وصلت هذه الحكاية للأعلى. أنت تعرف.. هناك رئيس جديد وحكومة جديدة، وعليهما في هذه الفترة أن يُبديا اهتماما بالناس، وحين شاعت الحكاية لم يعد من الممكن تجاهلها، وصدرت أوامر مباشرة بالبحث عنهم، وتورطنا جميعا في هذه الرحلة.

يصمت المأمور، أتأمل الطريق الذي نجتازه، اختفى النخيل ثم اختفى الشجر وخفّت كثافة الزرع، بدأت خطوط الرمل الأصفر تفرض وجودها وسط خطوط الأرض السوداء، يظهر الوجه الآخر للوادي؛ الوجه الجافّ، أصبح الهواء أكثر سخونة والشمس أكثر حدَّة، تتراجع الأرض المستوية ويأخذ الحصى الصغير في الازدياد في الحجم كلما تقدَّمنا حتى يتحول إلى صخور راسخة، كتل هائلة نحتتها الريح وحوَّلتها إلى ما يشبه الحيوانات الخرافية الجامدة،

،واصل السيارة الدوران بينها وتشقّ طريقا لا ندري إلى أين يؤدي،
،زداد سرعتها ويصبح الطريق ممتدًا وغامضا دون اتجاه محدَّد،
،سرب الرمل والحصى تحت عجلات السيارة وتبدو الأرض
خفيفة وغير ثابتة، كأننا على وشك الانتقال إلى عالم آخر لا تربطه
بالأرض السوداء القديمة إلا روابط واهنة. تأملت ظهر الجازية
وهي تجلس ساكنة، لا يتحرَّك فقط سوى شعرها مع الهواء، ولكن
بعد فترة لا يُطيق المأمور هذا الصمت، يمدّ يده ويغرزها في كتفها
بقليل من العنف ويهتف: أصبحنا في وسط الصحراء، لماذا لا
تنطقين بحرف؟

تُبعد كتفها دون أن تلتفت إليه: لم أتعرَّف على الطريق بعدُ، نحن
لا ندخل الصحراء من هنا، لنا طرقنا الخاصَّة البعيدة عن هنا.

يتساءل: طرق سرية.

تقول الجازية: ربما بالنسبة إليكم، ولكنها مألوفة بالنسبة إلينا.

يتردَّد السائق قليلا ويوشك على التوقف، يكتم المأمور سِبابه
بصعوبة ويأمره بمواصلة التقدُّم، أتراجع للوراء، أتذكر عيسى فجأة،
الضائع وسط هذا التيه الأصفر الرمادي، أتمنى لو أنها تتعرَّف
على شواهد الصخور أفضل من هذا، ونصل سريعا إلى الموقع
الذي خدعهم فيه البدوي وأن أجده حيّا، ربما استطاع بمعجزةٍ
ما أن يمضغ النباتات اليابسة ويأكل الثعابين، غريزة الحياة يمكن
أن تدفعه لفعل أي شيء، لحظتها سأعيده إلى زوجته، ولن أحاول
التدخل أو إفساد ما بينهما، تتوقف السيارة فجأة، ويزمجر المأمور:
ماذا حدث؟

نسمع صوت العجلات وهي تدور، تتلفت الجازية في مخـ..له الاتجاهات دون أن تردَّ عليه، تهبط من السيارة وتفكُّ العمـ.. الحمراء من فوق رأسها، وتترك شعرها مرسلا كأنها تحرِّر أفكارها، تنحني لتفحص الرمل وفتات الصخور، وتتمتم ببعض الكلما.. كأنها تردِّد تعويذة قديمة، تعود للسيارة وتُشير للسائق للسير في اتجاه آخر، تتبعنا السيارة الضخمة، ولكن الرمل يعلو من حولنا، وتمتدّ متاهته إلى ما لا نهاية. السماء خالية من الطيور ومن السحب، والأشجار التي تظهر كلّ حين من الزمن عجفاء ويابسة، نواصل الزحف وسط فراغ بلا حياة، فجأة يعلو صوت محرِّك السيارة فوق المعتاد، وتحتكّ العجلات بالأرض دون أن تراوح مكانها، وترتفع سحابة من الرمال، ويصيح العسكري من خلف عجلة القيادة: غرسنا في الرمال.

نقفز جميعا دفعة واحدة خارج السيارة، نرى الإطارات الأربعة وهي مغروسة حتى منتصفها في الرمال، ينتفض المأمور من الغيظ ويتجه إلى الجازية صارخا: كنت متأكدا أننا نسير في طريق خاطئ، لا يمكن أن يكون هذا هو المدقّ الرملي، لقد ضيعتنا يا بنت.

يكوِّر قبضته مقتربا منها، ولكنها تُبعد نفسها عنه، لم تبدُ خائفة، لكنها فقط تتجنب هجومه ونظرة الافتراس التي تبدو في عينيْه، ترفع يدها ويعلو صوتها: ارجعْ.. إياك أن تلمسني أو تسُبَّني، نحن لسنا في قسم الشرطة، ولست متهمة تحت أمرك، يمكنني أن أترككم جميعا الآن وسط هذا الخلاء وأمضي، وسيكون الموت مصيركم جميعا.

يُنزل المأمور قبضته مذهولا، يجد أمامه غجرية أخرى، ليست

وحادة ولا مستكينة كدأبها ودأب كل الغجر، تستمدّ قوتها من هذا الخلاء الطليق، أحاول التدخل لتهدئة الموقف، أقول لها: وماذا نفعل الآن؟

تقول بلامبالاة: دع رجاله يدعمون الإطارات ببعض الأحجار ريثما أستكشف الطريق، سأبحث عن اتجاه آخر.

تتوقف قليلا، تقول كأنها تحدِّث نفسها: يجب أن نصل أولا شمالا إلى بيض الرخّ، ثم بعد ذلك إلى صحراء البياض.

أقول في دهشة: أي بيض، وأي رخّ؟

تقول في ثقة: سوف تفهم عندما نصل إليها.

هل تخدعنا؟ تستدير وتُعطينا ظهرها غير مبالية بالمأمور الغاضب، كنت مشفقا عليها، أحسست أنها قد تهورت كثيرا عندما نحدته، قوته كانت مطلقة وسط هذا الخلاء، ولكن من الواضح أن تهديدها له قد ردعه. تسير نحو إحدى الصخور المرتفعة، أراقبها مندهشا وهي تمدّ قدميْها وتبدأ في تسلقها ببراعة وخفة، مثل حيوان صحراوي يزحف على أرضه الأليفة، يتابعها المأمور بدهشة ثم ينزع بصره من عليها، يستدير ويُشير للعساكر في السيارة الكبيرة حتى يترجلوا ويساعدوا في دفع العربة، يبدءون في حشو الأحجار تحت الإطارات الأربعة، تصل الجازية إلى قمة الصخرة تفرد ذراعيْها وتُحرِّك جسدها في حركة دائرية، تدور مع حركة الرياح، تتشمَّم رائحتها وتعرف اتجاهاتها وتردِّد كلمات غير مسموعة، ثم تقعي جالسة على الصخر وتدفن رأسها بين ذراعيْها، يدفع الرجال العربة حتى تخرج من حفرة الرمال، وتظلّ هي ساكنة في جلستها،

يتوقف الجميع ويسود الصمت إلا من صوت الريح. أتطلع للـ ا،
متوقعا أن يثور من الغيظ، ولكنه لا يفعل، يظلّ يراقبها بعيون ،ا،
وهي تنهض ببطء كأنها تُفيق من غشيتها وتهبط من على الصـ ، ،
بالخفّة نفسها، تكاد لا تلمس الأحجار. تتجه للسيارة ونـ ،
بجوار السائق وهي تُشير له على اتجاه آخر، نركب خلفها ونواصل
المسير، نحسّ بالجوع والعطش ولكننا نواصل السير، هذه المرة لم
نكن نتقدَّم أو نحاول الغوص في بحر الرمال، لكننا نسير على خط
موازٍ على الحافة، بين الرمل والحصى. تتوالى شواهد الصخو،
الأشكال التي نحتتها الريح، متحف مفتوح صنعته عوامل التعرية
التي لا ترحم، أشعر بالمأمور يتململ بجانبي ولكنه لا يتكلم، تُـ .
الجازية للسائق أن يتوغل قليلا خلف الكثبان الرملية، تتناثر أحراش
من الحشائش الجافة، يزداد سطوع الشمس حتى يوشك الرمل على
الاشتعال. أشعر أننا فقدنا الاتجاه للأبد، كثبان متشابهة لحد قاتل،
عصية على التذكر، ولكن يبدو أنها تراها بعيون أخرى، تطلب من
السائق أن يتوقف، تقفز من السيارة وتصيح: هذا هو.. وصلنا لبداية
المدقّ، ها هو بيض الرخّ.

نهبط جميعا ونسير كأننا على ظهر كوكب غريب، تُشير إلى
مجموعة من الصخور، أقترب مندهشا منها؛ صخور غريبة الشكل،
ناصعة البياض، أتحسس سطحها الناعم المتكوِّر، تنبعث منها
انعكاسات خافتة كأنها تتبع حركة الشمس، كور عملاقة منحوتة
من الحجر الجيري تتخللها شذرات صغيرة من البلّورات التي
تتلوَّن مع الضوء، كأن هناك حياة داخلية تدبّ فيها، هناك أكثر من
بيضة متناثرة بعضها مدفون في الرمل حتى منتصفها والبعض على

، ىك أن يتدحرج من مكانه لكنه ثابت. عُشّ أسطوري ينتظر طيورا
ىرافية، سوف تخرج من عمق الحكايات القديمة لترقد عليه، أدور
ىول البيضة الكبرى دون أن أتخلص من انبهاري، تقابلني الجازية
ىادمة من الاتجاه الآخر، تحدِّق فيَّ بعينيْها العميقتيْن، تقول في
همس: تمنيت دائما أن نلتقي معا، ولكننا دائما نلتقي في المكان
ىير المناسب.

أقول متجرئا: ماذا؟ هل ما زلتِ تُريدينني؟

تقول: الآن نعم.. وبعد ذلك من يدري، أنا مثل الجازية الهلالية لا أستطيع أن أبقى في فراش رجل واحد طويلا.

لا تفاجئني صراحتها، أعرف أنها روح طليقة. حتى الآن، لا أصدق أننا نلتقي في عُشّ الرخّ؛ طائر السندباد القديم، هل تعرفين هذه الحكاية؟

تقول: بالطبع..أنا أعرف كل حكايات الدنيا، ومع ذلك أعيش دائما على هامشها، هذا الدرب الممتدّ أمامنا سرت فيه عشرات المرَّات دون أن أجد فيه مكانا أستقرّ فيه.

أقول: ربما يتغيَّر كل شيء، ربما نخرج من الصحراء ونجد مكانا مناسبا.

أشعر بأن فيها الكثير من المرأة التي أبحث عنها، لم تكن بأناقة فاتن وتعاليها، ولا ببراءة فرح وعفويتها، كانت امراة بريَّة، خرجت متفرِّدة من عفن العالم الذي تعيش فيه. جسدها منتهك قليلا، ولكنها تعوِّض ذلك بطاقة بدائية من غريزتها الأساسية الموجودة بداخلها مثل جذوة لا تخمد. يقترب المأمور منَّا، لم يكن غاضبا

لدرجة كبيرة، كانت قد نجحت مبدئيًا في اختبار الضياع، أ:
أنها تعرف خبايا الصحراء جيدا وربما تكون سببا في نجاتنا م. ،
يقول: أين هذا الطريق الذي تتحدثين عنه؟ لا أرى إلا الص..،
والرمال الممتدَّة.

تقول: ربما لا تراه واضحا أمامك ولكنه موجود، تعترضه بعض
الصخور، أو فخاخ الرمال المتحرِّكة، وتغيِّر مساراته العوامل
الرملية، ولكنه يتواصل دائما، نحن وحدنا الذين نعرفه ونحفظ
تضاريسه من كثرة ما سرنا فيه.

يقول المأمور: كم يوما تستغرق الرحلة حتى الحدود؟

تقول: سيرا على الأقدام خمسة أو ستة أيام، إذا لم يسقط أ..
من التعب.

يقول في تبرّم: كنت أعتقد أننا يمكن أن ننتهي اليوم من هذه
المهمة اللعينة.

تقول: لا أدري كم يوما مرَّ عليهم وهم يسيرون خلف هذا
البدوي، ولكننا سنجدهم في مكان ما على هذا الطريق.

لا يكفّ المأمور عن تبرّمِه: رغم أنني لا أرى أي طريق، ولكن
يجب أن نواصل السير.

تتلفت الجازية حولها وهي تبدو وكأنها تتسمَّع شيئا، كل شيء
حولنا كان صامتا إلا أصواتنا نحن، تقول فجأة: الأفضل أن نعود،
يكفي هذا لليوم.

يصيح غاضبا: ماذا؟ هل فقدتِ عقلكِ؟ هل ظننتِ أننا نلعب
معكِ؟ نحن في مهمة رسمية، ويجب أن نجد هؤلاء الناس.

تقول في تأكيد: مضى معظم النهار، وهناك عاصفة تتأهَّب للهبوب.

يتلفت المأمور حوله مستريبا، يصيح: لا أثر لأي عاصفة، وكل شيء هادئ، ومازال هناك ضوء كافٍ.

أقترب منها مندهشا، أقول لها: كيف تعرفين أن هناك عاصفة؟

تقول في تأكيد: ربما لم تسمعها، ولكن صوتها يتردد في كثبان الرمل كدقات الطبول الخافتة.

ننصت قليلا، نسمع صوت الريح، ورفيف أجنحة الطيور العابرة، ولكن لا نسمع أي أصوات خفية ولا نشعر بأي حركة، يقول المأمور: كلام فارغ، حتى لو جاء الليل، فمعنا ما يكفي من البطاطين والماء ومعلبات الطعام، لا نريد أن نضيِّع الوقت.

ولكن علامات الخوف كانت واضحة على وجهها، تدور حول نفسها في حيرة، ولكن المأمور كان قد أصبح غاضبا من جديد، ينظر إليها شَزْرا وصدره يعلو وينخفض في غضب، يُثير رعبها فتسير في صمت نحو السيارة، نبدأ في التحرّك من جديد، نواصل التقدّم وليس أمامنا إلا طريقٌ ملتوٍ وغامضٌ، حتى الآن كانت الجازية تُجيد قراءة لغة الرمال، فهل يستمرّ ذلك؟ كنا بعيدين عن أي واحة، عن أي نقطة من العمران، وبدأت الشمس تسحب ضوءها ببطء، كان يجب أن نتوقف لنأخذ استراحة أو لتناول القليل من الطعام، ولم أكن متأكدا إن كنا نملك طعاما أم لا؛ فالمأمور صامت ومُصِرّ على التقدّم كأنه في مهمة مقدَّسة. تُشير الجازية للسائق فيستدير حول هضبة عالية تنمو عليها أشجار عجفاء، ويبدو خلفها سهل

ممتدّ رماله داكنة. أفاجأ بوجود العديد من الهياكل العظمية، عظام لمخلوقات ضخمة، أكثر من هيكل بعضه متماسك، وبعضه متكسّر ومتكوِّم بعض الشيء، أقول: ما هذا؟ تقول: إنها عظام جمال، سقطت هي أيضا في الرحلة، الضباع لم ترحمها، الصحراء لا ترحم من يسقط. تتغيَّر سرعة الرياح وتبدأ الرمال الساكنة في التحرّك في موجات متتابعة. تتمايل العربة وقد بدأت تفقد ثباتها على الأرض، للمرَّة الأولى تلتفت الجازية نحونا وقد ظهر الفزع على وجهها: لقد بدأت العاصفة، لا أعرف شدَّتها ولكنها قادمة.

يقول المأمور: هكذا فجأة؟

تقول وهي تتلفت حولها: هكذا الصحراء، تغضب بسرعة وتهدأ بسرعة، علينا أن نجد مكانا نحتمي خلفه.

تُشير للسائق أن يحتمي خلف صخرة كبيرة، تأتي السيارة الكبيرة وتلتصق بنا، لكن الصخرة لم تكن كافية للسيارتيْن. تشتدّ الريح، تختفي زرقة السماء ويتحوَّل الجو إلى اللون الأصفر، لم نعد نرى ما حولنا، موجات من الذرَّات تحجب السماء والأفق، تتحوَّل الصحراء إلى فخّ محكم حولنا، يهبط المأمور من السيارة وعندما يشعر بشدة الريح يضطرّ للعودة حانقا. نغلق كل النوافذ والمنافذ ولكن الرمل الساخن يظلّ يتسرَّب إلى الداخل مثل شواظ لاسع، يصيح غاضبا: مهمة لعينة، ماذا سنفعل الآن؟ لا نستطيع التقدّم، ولا نقدر على العودة.

تقول الجازية: لا مفرَّ من أن نقضي الليل في هذا المكان.

يتعقّد الموقف، يقول السائق فجأة: سيادتك.. لن نستطيع أن

ـهضي الليل في هذا المكان؛ سوف تطمرنا الرمال. أنا صعيدي وطالما تعرَّضنا لهذه العواصف يمكن أن ندفن هنا.

للمرَّة الأولى تظهر علامات الذعر على وجه المأمور، يهتف في الجازية: أحقًا يمكن أن يحدث هذا؟

تحدِّق فيه بعينيْن واسعتيْن ولا تقول شيئا، يصرخ: قولي شيئا، لابدَّ من مكان نلجأ إليه.

يظلّ وجهها جامدا، رغم صوت الريح التي تلطم السيارة أسمع صوتها وهي تلتقط أنفاسها في صعوبة. أشعر بأنها تخفي شيئا، أضع يدي على كتفها، لا تحاول إبعاد نفسها، رغم أنها كانت ترتجف، لابدَّ أنها أدركت أنني أحاول تدعيمها، أقول: الأمور تسوء يا جازية، نحن فعلا في حاجة إلى مكان نحتمي به.

تقول بصوت خافت: إنهم لا يستحقون.

لابدَّ أن المأمور قد سمعها ولكن لم يصدر عنه صوت، أقول لها: الأمر مختلف، نحن في مهمة إنقاذ.

تقول بصوت عالٍ: أنا هكذا أخون عهد الغجر. لقد قضينا عمرنا نتجنب الشرطة ونواصل حياتنا بعيدا عن أعينهم، فكيف أقودهم بنفسي إلى مخبئنا؟

يقول المأمور: في مثل هذا المكان وهذا الجو، هل تتوقعين أن نستطيع التعرُّف على هذا المخبأ اللعين فيما بعد؟

أقول لها: أتمّي جميلكِ علينا يا جازية، قودينا إلى هذا المخبأ.

تصمت قليلا ثم تُشير للسائق بمواصلة السير. يسير ببطء وتسير

العربة الضخمة خلفنا، لا ترى شيئا تقريبا، خليط من الرمل والطا. ا
التي حلّت فجأة يحجب كل رؤية، ترتجّ العربة بشدَّة ونسمع صو
العاصفة مثل عواء ذئاب جائعة، لا أعرف كيف تتبيَّن الطريق وا. ٠ا
لا تكفّ عن إرشاد السائق الذي يطيع أوامرها وهو يزمجر. بعد ٥. ٠
من السير المتقطّع أشعر بالسيارة وهي تبدأ في الانحدار. يحم
السائق ولكنها تواصل حثّه على التقدّم. يتنقل خوف السائق إل ا
جميعا، يزمجر المأمور خائفا، يبدو هذا واضحا على ملامحه،
يشعر بأنه قد ورَّطنا جميعا عندما لم يستمع لتحذيرها المبكر
أشعر بأننا دخلنا في منخفض بلا قاع. يرتفع الدم إلى رأسي، ويبدو
المأمور مهزوما للمرة الأولى، لا أصدق أذنيَّ وأنا أسمع الجارية
وهي تصيح بالسائق: توقف، لقد وصلنا.

تلتفت نحونا وهي تقول: سنهبط في الظلام، ولكني أعرف الطريق جيدا.

يتحدث المأمور بصوت متحشرج: معنا المصابيح اليدوية، وبعض البطاطين أيضا.

كان أذكى مما أتوقع وقام بعمل حساب الكثير من الاحتمالات، يمدّ يده إلى خلفية السيارة ويجذب لفافة كبيرة يفتحها بسرعة ويُلقي إلى كل واحد منا ببطانية حتى نضعها على رءوسنا، ويهتف في السائق: اطلب من بقية الرجال أن يتبعونا.

نفتح أبواب السيارة بصعوبة، تقاومنا الريح المندفعة من أعلى، ساخنة كأننا في عزّ الظهيرة، ألفّ البطانية حول رأسي وأساعد الجارية على الالتفاف بها، تبدو الرؤيا في الخارج أوضح، والظلام

..س بالكثافة نفسها داخل العربة، رغم شواظ الرمال الساخنة
استطيع أن ألمح كومة هائلة من الصخور، والممرّ الذي نقف
به ينحدر أسفلها. يُنير المأمور مصباحه اليدوي، يكشف عن
منحدر من الأحجار الكلسية المتراصَّة، تدور فوقها دوامات من
الرمل، نواصل النزول حتى نصل إلى فتحة مظلمة وسط الصخور
المتراصَّة، أشبه بفوهة مغارة، مخبأ تحت الأرض، من المستحيل
تحديد مكانه وسط هذه الركام الصخري، تدفعنا الريح سريعا إلى
الداخل، تحتوينا الجدران فيهدأ كل شيء فجأة، نقف وسط فناء
واسع محفور في جوف الصخر، يرفع المأمور المصباح ويدور
به في المكان، لم يكن كهفا طبيعيًا، ولكن أيادي البشر تدخلت
لتشذيبه وجعله مناسبا للمكوث فيه. على الجدران آثار طلاء
متساقط، لون أبيض مترب، وبقايا ألوان غير واضحة. تلفّ الجارية
البطانية حول جسمها لتختفي فيها، تجلس على الأرض وتستند إلى
الحائط، يتعالى صوت العاصفة في الخارج وقد زاد غضبها، تندفع
موجات من الرمال من المدخل ويندفع معها بقية العساكر متعبين
ومفزوعين، يحملون المزيد من البطاطين وصناديق الماء والطعام،
يلعنون بعضهم البعض وهم يوشكون على السقوط من شدة
الإعياء، يشعلون أكثر من مصباح يدوي، يكشف عن مدى اتساع
المكان، والعديد من الأعمدة المكوَّنة من الصخور المتراصَّة فوق
بعضها لتحمي السقف من الانهيار. يصيح المأمور موجِّها الرجال،
يتردد صوته في فراغ المكان مثيرا الرعب، لكنه يستدير بعد ذلك
ويقف بشكل تلقائي أمام الجارية كأنه ينتظر أوامرها، لا تخيِّب
أمله تقول له: حضرتك.. من الأفضل أن نشعل نارا، سيجدون في
المكان الكثير من الحطب والأغصان الجافة.

يعاود الصراخ في الرجال، كانت هي ملكة المكان، تُمسك بيدها حبل إنقاذهم جميعا. ينتشر العساكر بسرعة، سعداء لأنهم نجوْا من العاصفة؛ ولأنهم سينعمون بالضوء والدفء. يعودون وهم محمَّلون بأحطاب كثيرة، صنعوا منها كومة في منتصف الفناء بعيدا عن مجرى تيار الهواء الغاضب، ظلوا يحاولون إشعال النار وينفخون في اللهب ويحرِّكون أطراف أرديتهم العسكرية حتى تحوَّل الشرر إلى لسان من لهب. ببطء أخذت النار تشتبك في الأغصان وتجعلها تتوهج، امتلأ المكان كله بالضوء والظلال المتراقصة، ظهرت الرسوم الموجودة على الحائط، لم تكن كاملة، تظلّ تجاعيد الصخر الداكنة تطلّ من خلالها، ولكن هناك صورة كانت واضحة رغم عدم اكتمالها، رجل لحيته بيضاء مرسلة، تُحيط برأسه هالة من المهابة، كان قديسا ولكن وجهه لا ينعم بسكينة القديسين، يُمسك بيده كتابا، ربما كان الإنجيل، ويمدّ يده الأخرى للأمام، يتطلع في رعب لفراغ غامض، يريد أن يحمي نفسه منه، يدفع شرّا يوشك أن يباغته، أتأمله مذهولا وأتمتم بصوت عالٍ: هل نحن في كنيسة؟

تقول الجازية في سخرية خفيفة: هل استغرقت كل هذا الوقت لتكتشف ذلك؟

أتناول غصنا مشتعلا وأحـاول اكتشاف المكان، أطوف بالجدران، وجوه أخرى لقديسين يتشاركون جميعا في الهالة التي على رءوسهم ونظرة الفزع التي في عيونهم، رموز وأيقونات وكتابات بحروف فرعونية، عين حوريس، ومفتاح ماعت، وخراطيش مليئة بعلامات وإشارات غامضة، أعود إلى الجازية

وهي مازالت منكمشة في جلستها، أسألها مندهشا: ما هذه الكنيسة، ومن الذي وضعها في المكان؟

تُشير بيدها إلى مكان بجانبها تقول: قلت لك من قبل إنني أعرف كلَّ حكايات الدنيا، اجلسْ بجانبي وسأخبرك بها.

أجلس بجانبها مستندا إلى الحائط، تقول: اقتربْ أكثر، على الأقل دعْ كتفك تُلامس كتفي حتى أحسَّ بوجودِك، نحن الغجر متعوِّدون على الأماكن الضيِّقة ولا نمانع الملامسة.

أنظر حولي في قلق، كنا منتشرين في الفناء الواسع إلى ثلاث مجموعات، بقية العساكر متجمِّعون حول بعضهم بالقرب من النار، يأكلون ويتحدثون في أصوات خفيضة، المأمور يجلس متباعدا في أحد الأركان، ينظر إلى الجميع في غضب لا يهدأ، وينظر نحونا بغضب زائد، أشعر بالخوف منه، أقول: هذا الرجل يا جازية ينظر إليك نظرات غريبة.

تقول: أعرف أنه يرغب فيَّ بشدَّة، أنا أجيد قراءة العيون، ولكنه خائف من العجز، مؤكد سيفشل معي.

أتجاهل نظراته وأقترب من الجازية حتى ألامس كتفها، كانت دافئة وقوية، تتسع عيناه، ويحرِّك شفتيْه في امتعاض. ولكنه لا يتحرَّك ولا يُصدر صوتا، أسألها: هل أنتِ مرتاحة هكذا؟

تقول: ما دمت أشعر بك إلى جانبي. أنا خائفة منهم. تخيَّلْ أنني وحدي وسط هؤلاء العساكر القساة وهذا الوغد العجوز الذين طالما امتهنوا جسدي، كلهم حيوانات ولا فرق بينهم، أنت مختلف عنهم.

أتأملها قليلا وأغمض عينيَّ، كيف أنها رغم خبرتها الطويلة لم تر
الحيوان الموجود بداخلي؟ وماذا يمكن أن تقول فرح عني؟ أقول
لها مطمئنا: سأظلّ بجانبكِ طوال الليل حتى لو غرقت في النوم.

تبتسم في وهنٍ، تحدِّق فينا صورة القديس المذعور، تتحدث
ببطء: جدنا الأكبر كان أول من قادنا إلى هذا المكان، كنا ـ كما هي
العادة ـ هاربين من مطاردة بعض أولاد الليل، لا فرق بينهم وبين
الشرطة كلهم بالنسبة إلينا قطاع طرق، هذا المكان تمَّ بناؤه بسواعد
المطاردين من الأقباط، كانوا وقتها يهربون من جنود الرومان، كانوا
يقبضون على كل من اعتنق المسيحية ويلقونهم للأسود، وكانوا
يحرصون على تجويع الأسود قبلها بعدة أيام، تخيَّل عندما يتركون
الأسود الجائعة تمضغ لحمك قطعة قطعة. المصريون الذي كانوا
يعتنقون المسيحية كانوا يهربون ويأتون للاختباء في هذا المكان،
المطاردة مازالت مستمرَّة حتى الآن، وبدلا من الأسود أصبحوا
يستخدمون الكلاب المدرَّبة، وهي لا تقلّ توحشا عن الأسود،
إنها تعضّ وتمزّق ولا تتوقف عن تمزيق الضحية إلا بعد أن يأمرها
أسيادها، وأحيانا لا تتوقف.

أقول لها: يكفي هذا يا جازية، لا تُريدين أن يرى هؤلاء الناس
دموعكِ.. تقول: أنت على حق. ولكن هذا الرجل الجالس أمامي
يخفيني، يرغبني ويمقتني أتمنى لو أنه يموت أو يذهب فقط للجلوس
في مكان آخر، أخشى أن تهاجمني الكوابيس وهو يحدِّق فيَّ هكذا.

أريد أن أضحك ولكني لا أستطيع، أحدِّق ناحية المأمور
الغاضب، لابدَّ أنه يعرف بشكل غريزي أننا نتحدَّث عنه، تقول: لن
أستغرق في النوم إلا إذا أحسست بكتفك وهي تلامسني.

أقول: هذا أقصى ما أستطيع فعله معك، لا أحضان ولا قبلات.

تُغمض عينيْها وهي تقول: فيما بعد.. فيما بعد.

تبدأ أنفاسها في التردد بانتظام، يتناثر بقية العساكر حول النار ويستغرقون في النوم والشخير، لكن المأمور يظلّ مستيقظا، ويتواصل قصف العاصفة في الخارج. لا أطيق نظراته الثابتة، أغلق عينيَّ فأحسّ بالرمال تملأ جفوني، ورغم أني أغرق في الظلام، تنفتح متاهة من الأحلام والضياع تتركز كلها في وجه واحد يطاردني وسيظلّ يطاردني؛ وجه عيسى يتوسَّل لي أن أقرضه نقودا، وعندما أمدّ يدي بها تتحوَّل أصابعه إلى كلابات حادة تقبض على يدي وتجذبني إلى دوامة من الرمال المتحرِّكة. أفتح عينيَّ مفزوعا فأجد نفسي جالسا متيبسا مستندا إلى الجدار، والجازية نائمة وقد انزلق رأسها من على كتفي واستقرَّ على فخذي، تتردد أنفاسها في هدوء، العساكر مازالوا نائمين حول النار، وصوت العاصفة قد هدأ تماما، والنار قد خمدت، وضوء النهار يتسلل واهنا من خلال فتحة الباب، ولكن المأمور لم يكن موجودا. أدير رقبتي المتيبسة ولكنني لا أراه، لا أعتقد أنه مات كما كانت الجازية تتمنى، لابدَّ أنه في الخارج يستكشف المكان، وربما رأى من غير المجدي الصراخ في العساكر وهم نائمون كالجثث. لا أريد أن أغمض عينيَّ مرة أخرى حتى لا يطاردني عيسى رغم أنني أتيت هنا لأطارده. أظلّ جالسا في مكاني حريصا على ألا أوقظ الجازية من نومها، ولكني أسمع صوت قدمي المأمور وهما تدبان في قوة قادما من الخارج، يركل أحد العساكر النائمين في مؤخرته ويصيح: استيقظوا أيها الأوباش، لم نأتِ هنا للنوم.

ينتفض الجميع مفزوعين، يدعكون عيونهم ويرتّبون ثيابهم
حتى الجارية ترفع رأسها وتعدل جسمها، تنهض مستندة إلى
الحائط وهي تتنفس بصوت مسموع، كأنها كانت تتعرَّض لمطاردة
طوال الليل. يُلقي علينا المأمور نظرة خاطفة مليئة بالاتهام،
ثم يخرج، يتحرَّك العساكر في اضطراب ويخرجون في إثره.
تظلّ الجارية واقفة حتى تستردَّ أنفاسها وتتخلص من فزع اليقظة
المفاجئة، نخطو معا إلى ضوء الشمس، إلى الصحراء التي كانت
تضطرم بالغضب منذ ساعات قلائل، استعادت هدوءها تماما ولم
يعد يتردد فيها غير أصواتنا، نسير خارجين من المنحدر إلى فضاء
الله الشاسع، خطوط الرمل راقدة في دعة على الصخور، متموجة
ولامعة، مليئة بالذرَّات المضيئة، والأشواك البرية التي انتزعت
من جذورها هاجعة في سكون الاحتضار، يجلس المأمور وحيدا
في السيارة الجيب، حتى السائق لم يكن موجودا، بدا واضحا أن
الجميع قد انتشروا في الصحراء لقضاء حاجتهم الطبيعية، يدرك
المأمور ذلك لأنه يجلس كابتا غضبه حتى يعود السائق، لا يمكن
مقاومة قوانين الطبيعة. تصعد الجارية فوق صخرة عالية لتستكشف
المكان، وأجلس أنا في مكاني السابق بجانب المأمور، صامتيْن
لبرهة، ولكني أسمعه وهو يقول من بين أسنانه: ما كان يجب عليك
أن تلتصق بها لهذه الدرجة. أقول: كنت أحميها. يقول: ممن؟
أقول: منكم. يضحك في سخرية: وهل كنت تعتقد أنك قادر على
ذلك؟ كان من الممكن أن أغتصبها مائة مرَّة دون أن يجرؤ احد على
إيقافي.

أنظر إليه مندهشا، كان قد أفصح عن رغباته الدفينة دون أن

.ا.ري، كان يجاهد كثيرا في قمع نفسه. يعود السائق، وتعود الجازية، يمضي بعض الوقت قبل أن يلتئم شمل الجميع، يرتفع صوت المحرِّكات، نكتشف أن هناك العديد من الطيور كانت نائمة على الصخور وقد طارت مفزوعة عندما دارت المحرِّكات، من أين تأكل هذه الطيور؟ ومن أين تشرب في هذه الصحراء القاحلة، أشدُّ صحراوات العالم جفافا كما يقولون؟ تُشير للسائق على الاتجاه الذي يسير فيه وتتبعنا السيارة الضخمة وينزاح الرمل أمامنا بعد أن كان أملسَ كالحرير، وتلتفت الجازية نحوي وهي تقول: هذه صحراء جديدة، بعد كل عاصفة يتبدَّل شكل الصحراء.

يقول المأمور: المهمّ ألا تتوهي فيها، نحن لسنا في حاجة لتوهان جديد.

لا تبالي بلهجته الحادَّة وتقول في خفة: استعدّ حضرتك الآن.. سترى ما لم تره في حياتك.

تُواصل السيارة التقدّم تحيط بنا كثبان وتلال من الرمل، تمتدّ المفازة على مدى البصر، أشعر بأننا قد أصبحنا ملك هذه الصحراء، أسرى قبضتها اللانهائية، وأننا لن نستطيع العودة أو التواصل مع عالمنا الآخر؛ لأنه لا يوجد عالم آخر. تمضي ساعة أو أكثر ثم يتغيَّر لون الرمل فجأة، يفقد صفرته ويصبح أشبه ببقايا رماد، ولكنه رماد متقد تلمع ذرَّاته كلما تحركت الشمس. لا تبدو أن هناك نهاية للرحلة، ولا يكفّ لون الرمل عن التغيُّر، أي تقلبات هذه في المكان الواحد؟ يتغيَّر لون الرمال للمرة الثانية، تصبح بيضاء تماما، جليدا ساخنا يظهر فجأة، تشعر الجازية بدهشتي، تلتفت نحوي: إنها الصحراء البيضاء.

لم توضِّح شيئا أكثر ممَّا أراه، تسير العربة وسط أمواج متراكمة من البياض، حتى المأمور كان يجلس مذهولا عاجزا عن الكلام، لابدَّ أنه أحسَّ بضآلته أمام اتساع الطبيعة، أسأل الجازية: هل رأيت هذا المكان قبل الآن؟

تردّ: إنه موجود منذ الأزل، هذه ليست مجرد صحراء خالية، ولكنها عالم كامل من البياض مليء بالأشياء البيضاء، إنها نظيفة.. أنظف من أي أحد منا.

تتحدَّث بحماسة الأطفال، المأمور أيضا يبدو مندهشا برزانة، غير قادر على الكلام، ينظر حوله مستغربا من هذا العالم الذي انبثق فجأة وسط الخلاء، تظهر الصخور، فوهات بركانية صغيرة وخامدة، أكوام هائلة من البياض، ليست صماء ولكن الريح قد شكلتها، يوقف السائق السيارة دون أن يأمره أحد، لا يعترض المأمور، تتوقف السيارة الكبيرة خلفنا، يقفز العساكر منها ويجرون كالأطفال، يُشيرون للصخور بأشكالها المختلفة. نهبط جميعا، حتى المأمور الرزين لا يملك نفسه من الانبهار، صخرة على شكل دجاجة ضخمة تمدّ منقارها في الفضاء، على البعد منها أرنب منكمش خائف من قنص الصيادين، وبجوارهما رأس حصان يرتفع في صهيل صامت، خلفهما شجرة باسقة متحجرة، طائر مهيض الجناح، كتلة صخرية مرتكزة على عمود رفيع، كأنها معلقة في الهواء، عالم من سحر أبيض يملأ الروح بالانتشاء. نسير بالسيارة قليلا ثم نعاود التوقف أمام جبل كامل من البلّور يعكس أشعة الشمس ويحوِّلها إلى ألوان الطيف؛ ألوان قوس قزح التي تتشرّبها الرمال. تُمسك الجازية بذراعي وتضغط عليها، أرى على

وجهها علامات فزع مفاجئ. تبخّرت النشوة فجأة، تُشير نحو أحد الكثبان الجيرية، ألمح ظلّ حيوانات تعدو مبتعدة، أرى زوجيْن من الكلاب على الأرجح وقد أفزعهما وجودنا، يجريان بسرعة ليبحثا عن مخبأ، أقول لها: لا يستدعي الأمر كلّ هذا الفزع، إنها مجرد كلاب.

تهزّ رأسها في نفي: ليست كلابا، إنها ضباع.

أقول: ولكن.. نحن في الصحراء، وجودها أمر طبيعي.

ولكن الفزع لا يُغادرها، يقترب المأمور منّا بحيث يستطيع أن يسمع كلماتها، تواصل القول: في هذه المنطقة لا توجد حيوانات ضارية، حتى الثعابين لا وجود لها، ولكن الضباع هي أحطّ أنواع الحيوانات ولا تسعى إلا وراء الجيف، هناك جثث في مكان ما هنا.

لا ينتظر المأمور المزيد من الكلمات، يصرخ في الرجال طالبا منهم العودة للسيارات، وعليهم أن يسيروا ببطء ويلتفتوا في كلّ الاتجاهات، نزحف ببطء، نلمح ظلال الضباع وهي تختفي خلف الكثبان المتناثرة. يبدأ الكابوس، أصبحنا نسعى خلف جثث هامدة وليس خلف أحياء ضائعين، ننظر في كل مكان، تدور السيارات خلف كلّ ظلّ وكل حركة، تتوقف ثم تدور حول صخرة جيرية ثم تُعاود السير. يشهق السائق في فزع ونتوقف مصدومين، تظهر الجثة الأولى؛ جسد من السواد مستلقٍ على الرمل الأبيض، نواصل الاقتراب منه، يهبط المأمور وأهبط خلفه، تظلّ الجازية في السيارة ناظرة إلى الأمام رافضة النظر إلى الجثة، أتأمل الجسد محاولا التعرّف على وجهه، يدقّ قلبي في عنف خائفا من الوجه

الذي يمكن أن أعرفه، لا أستطيع التعرّف على ثيابه، كانت ممزقة، أسمالا ملوَّثة بالرمل والدم، كأنه قد تعرَّض لهجوم ضارٍ، من حيوان أو إنسان، حاول أن يدافع عن نفسه بقدر ما يستطيع، اقتربَ أكثر، ملامح وجهه المتقلصة، لم يهبها الموت أي راحة أو استرخاء كأن الموت قد داهمه منذ لحظات. أقترب منه وأجلس على ركبتي، وألمسه برفق وخوف، كان جسده متصلبا، وجلده جافًا تماما، وعلى وجهه وذراعيْه آثار لمخالب وأنياب، بطنه مبقور، الجزء الليِّن الذي التهمته الضباع، كانت عاصفة الأمس قد ملأتها بالرمال، جعلتها أقلَّ بشاعة، لم يكفِ أنه مات جوعا وعطشا ولكن جسده أيضا تعرَّض أيضا للامتهان، يقول المأمور: لا تضيِّعْ وقتك أيها الطبيب، سنجدهم جميعا على هذه الحالة، الصحراء لا ترحم ولا العربان يرحمون.

صوته كان مرتعشا، لابدَّ أن قسوة الموت قد أذابت جزءا من صلابته، يقول: ليس أمامنا إلا أن نُعيده إلى أهله.

يُشير للعساكر الموجودين في العربة الكبيرة، يهبطون وهم يحملون الأكفان؛ أكفانا بيضاء ناصعة كالرمل الذي نقف عليه، كانوا يعرفون من البداية أنها رحلة للموتى، يفردون أكفَّهم وهم يقرءون الفاتحة، يرفعون أصابعهم لأعلى وهم يتلون الشهادتيْن، يلفون الجثة بأسمالها وبما عليها من رمال، يُحكمون الأربطة حول رقبتها وقدميْها ثم يحملونها إلى مؤخرة السيارة. أعود إلى مكاني والجازية جالسة، صامتة ومتصلبة، تُحدِّق للأمام، لا تريد أن ترى الجثة حتى بعد أن لفّتها الأكفان، تُخيِّم على الصحراء كلها رهبة الموت، حتى الريح تبدو وكأنها توقفت عن أن تهبَّ، تواصل العربة

السير وأدرك أنني سأقابل مصيري بعد قليل من الوقت، ما صنعته بداي، كنت أرتعد، وأهتزّ مع السيارة صعودا وهبوطا. بدت الشواهد الجيرية مثل أشباح، مثل عذابات قديمة وقد استيقظت، أحسست فجأة أن الجازية تعرف كلّ شيء، وأنها لن تكلمني أو تُطيق النظر في وجهي، ستظلّ تُعطيني ظهـ.ها أبدا. لم نسر طويلا حتى عثرنا على الجثة الثانية، بجانب حفرة مليئة بالماء المتكلّس وصخرة على هيئة عصفور صغير. هبطت بسرعة وهبط المأمور وظلّت الجازية جالسة متصلبة، ربما رأت هذه المشاهد في رحلاتها السابقة ولم تُرد أن تُعيد مشاهداتها. كان وجهها غريبا عليَّ أيضا، الموت يُغيِّر الملامح ويشوِّهها ولكني واثق بأنني سأتعرف عليه، يهبط العساكر من جديد وهم يحملون كفنا جديدا، كم كفنا أحضروه، وكم جثة سوف نلاقي؟

.... جثته كانت الخامسة، أعرف ذلك حالما اقتربنا منها وقبل أن أهبط من السيارة. أقفز قبل المأمور، أتوقف أمام الجسد الممدَّد المسترخي على الرمال كأنه في غفوةٍ. أقترب قليلا، لم تكن ملامحه متقلّصة كالآخرين، كان مستسلما للموت كأنه كان ينتظره؛ ملابسه ممزَّقة كالآخرين وساقه متسلخة، هو أيضا لم ترحمه الضباع، يده كانت قابضة على الرمل كأنه يستنجد به، أرى وجهه وفمه الذي كان يتوسَّل به إليَّ حتى أعطيه النقود؛ الفم الذي قبَّلته فرح كما قبَّلتني، كالضباع، كالصحراء، كشيخ العرب الغادر. أتحمل نصيبي في موته، لا أستطيع أن أتحمَّل رؤيته طويلا، أهتف مرتعدا: أنا آسف.. حقّا، أنا آسف. أدير وجهي للناحية الأخرى وأبدأ في التقيؤ. تُراقبني الجازية بوجه جامد، ينتظر المأمور قليلا حتى أهدأ وأرفع رأسي،

يقول: هل تعرفه؟ أقول: أجل، كان يتردد على الوحدة باستمرار.
يقول المأمور: لا أعرف ما إذا كنا نرثي لهم، أم نلعن غباءهم.

يهبط العساكر حاملين الأكفان، يؤدون الطقوس في سرعة ويبدءون في لفّها، ثم يحملونها ويُلقون بها في مؤخرة السيارة بلامبالاة. أظلّ واقفا عاجزا عن الحركة، يقول المأمور: أصبحت الشمس في منتصف السماء وعلينا أن نُكمل الجولة. أدير رأسي حتى أمسح الدموع التي فاجأتني، أعود إلى مقعدي حانقا ومتعبا، لا أدري فيمَ كنت آمل؛ أن ينجو من هذا الفخ، أن ينجح في عبور الحدود. تواصل السيارة الدوران وسط الرمال البيضاء، تهبّ الريح وتدور دوامات الرمل أمامي وأسمع صوتها وهي تهمس في أذني: قاتل.. قاتل. أتلفت حولي خائفا من أن يسمع هو أيضا هذا الصوت، نكتشف مزيدا من الجثث، ننتزع بعضها من بين طيّات الرمال المتراكمة، تشربت أجسادهم العاجزة العاصفة دون مقاومة، لم نعد نغادر السيارة، العساكر كانوا يحفظون دورهم ويحملون أكفانهم، نلتقط المزيد من الجثث، ربما كانت بينها جثث قديمة، ربما تنتمي لضائعين سابقين، يقف أحد العساكر وهو يدبّ الأرض بقدميْه: تمام يا أفندم. لم تعد هناك أكفان فارغة، واليوم أيضا أوشك على الانتهاء، يقرِّر المأمور أخيرا: سنعود سريعا في خطّ مستقيم، يلتفت نحو الجازية في جدية ويقول: قودينا من أسرع الطرق، كفانا جثثا.

أتنفس في ارتياح، تستدير السيارة، والسيارة الكبيرة خلفنا، يذكرني صوت محرِّكها أن عليها جثة تخصني، ولابدَّ أنها راقدة بجوار جثة شخص أخر ويمكن أن تكون هناك أخرى فوقها، ولن تبدأ طقوس الفجيعة إلا عندما نصل إلى أرض السواد. تواصل

الجازية إرشاد السائق، لا تلتفت ولا تنظر إلينا، نغادر الصحراء البيضاء وتميل الشمس للغروب بعد أن تُلقي بظلالها الحمراء على الهضاب، ثم يزحف الظلام ببطء. كان السير خطرا، من الأفضل أن نتوقف ونقضي الليل في المكان الذي وصلنا إليه، ولكن لم يكن أحد يريد أن يقضي ليلته كاملة بجانب كل هذا القدر من الجثث. تتوقف السيارات لنعيد تزويدها بالوقود الذي كنا نحمله معنا، ثم تُواصل السير في الظلام، لم تعد الجازية قادرة على الإشارة للسائق ولكن أخذت ترشده بالقول: سِرْ إلى الأمام، حذارِ من هذه الصخرة، استدرْ حول هذا الكثيب، لم نكن نرى شيئا، ولكن عيون القطط التي تملكها الجازية ظلّت تقودنا عبر الطريق، والسيارة تُواصل التقدّم ببطء ولكن بلا توقف. أسمع صوت المأمور وهو يتحدَّث، لم يكن يغمغم، أو يحدِّث نفسه، كان يتحدث إليَّ، يتساءل: ما الذي يجعلهم يخوضون كلَّ هذا الجحيم من أجل أن يذهبوا إلى بلد آخر؟ ما الذي يدفعهم للانتحار إلى هذه الدرجة؟ ممَّ يهربون؟

لم أكن أريد أن أشتبك معه في حوار، ولكني سمعت صوت الجازية وهي تقول: يهربون من قسوتكم، الحياة قاسية بشكل عام، ولكنكم تزيدون من قسوتها.

يقول في صرامة: نحن نطبِّق القانون على أناس لا يعرفون معنى القانون؛ مزوِّرين وزناة محارم، وبائعي هوى، وقوَّادين، وسارقي مواشٍ، ومحترفي سطو، وقاطعي طرق، وقتلة مأجورين.

تردّ عليه الجازية في عناد: كل هؤلاء يُفلتون من أيديكم بسهولة، أنتم لا تُمسكون إلا بخناق الضعفاء الذين يعيشون على الفتات وتريدون أن تشاركوهم هذا الفتات.

يزمجر في غضب، أتوقع أن يمدَّ يده ويُمسك شعرها ويلوي رقبتها، لكنه لا يفعل؛ ربما لأنه يعرف أنها وحدها تعرف سرّ الطريق، يقول في حنق: أنتِ مجرد غازية جوَّالة لا تعرف شيئا عن القانون.

تقول: أنت على حقّ، ولكني أعرف شيئا واحدا يقوله جدي الأكبر؛ جد كل الغجر، إن كلّ هذه القوانين وجدت أيام الفراعنة، تغيَّر الزمان واستدار، وذهب كلّ الفراعنة، ولكن بقيت القوانين لأنكم بقيتم، أنتم صنعتم الجحيم الذي يهرب منه جميع الناس.

يتمتم المأمور بكلمات لا أفهمها، ولكنه يتحرَّك في مقعده في قلق، يريد أن يفعل شيئا لا يقدر على فعله، كنا جميعا قد مررنا بتجربة مروِّعة، ولا يوجد سبيل لاتهام ضحاياها، ربما كان يسأل نفسه إن كان مسئولا عنه أم لا. كنت أختنق بصمتي، بإحساسي بالجُرم الهائل، وكانت الريح قد غيَّرت اتجاهها وبدأنا نشمّ رائحة العفن القادم من العربة الكبيرة. تصمت الجازية لفترة طويلة، ثم بدأت تُوالي إرشاداتها، وبعد ساعات من السير بدأ الليل الموغل في السواد ينكشف ببطء، ويظهر ضباب معتم يُغطي كلّ شيء، ولكن ملمس الهواء المشبع بالرمال قد تغيَّر، يُصبح أقلّ سخونة، تتسلّل تيارات باردة من خلال هبَّاته الحارَّة، ورغم أن الضباب كان يُشبه العمى الكامل فإن الجازية ظلَّت تعرف طريقها جيدا من خلال ملمس الريح، بعد قليل يتبدَّد ليكشف عن خطوط الخضرة على حافة الأفق. يُهلّل السائق وهو يُدير عجلة القيادة ويُهلّل العساكر في العربة التي خلفنا. أحسست بالراحة وخفّت الغصَّة التي كانت في حلقي قليلا، ولكني سمعت المأمور يقول في لهجة شبه رسمية:

يجب أن نذهب إلى عمدة البلدة، هو الوحيد القادر على التعرّف على شخصيات هذه الجثث.

أقول: افعلْ كلَّ ما تُريده من إجراءات، ولكن أنزلنا عند الوحدة الصحية أولا، مهمتنا انتهت عند هذا الحدّ.

ينظر إليَّ، يُدرك أنني لا أريد أن أترك الجازية خلفي حتى لا ينكّل بها، ينزاح الضباب أكثر وتبدو الشمس وكأنها تبحث عن مخرج للشروق، وتظهر هامات النخل عالية، تكبر وتصبح أكثر وضوحا كلما اقتربنا منها. نعبر فوق جسر مهتزّ، فوق ترعة تُغطيها الطحالب، ونسمع نباح الكلاب، ثم يظهر جسم القرية الطيني ببيوته المتلاصقة، يُشير المأمور للسائق أن يتوجَّه للوحدة الصحية أولا. يشقّ صوت المحرِّكات سكون القرية ولكن لا يخرج أحد للنظر إلينا، وأخيرا بعد عبور عدة طرق ملتوية ندخل الساحة الموجودة أمام الوحدة، كان المأمور أسرع منا في القفز من السيارة، يستدير بسرعة حول مقدمتها، أفاجأ به وهو يقبض على شعر الجازية، يجذبها خارج السيارة ويُلقي بها على الأرض وهو يصرخ: أيتها العاهرة، كيف تجرئين على مجادلتي؟ كيف تُهينين الحكومة؟

يركلها للمرة الأولى، ولكني أمسك به قبل أن يركلها للمرة الثانية، أصرخ في وجهه: ابتعدْ عنها.

أجذبه بعيدا، يصرخ فيَّ: ألم تسمع ماذا قالت؟

أصرخ أنا أيضا: أجل، وأنا أوافقها على رأيها.

ينظر إليَّ مندهشا وغاضبا: ماذا؟ كنت أظنك أفضل منها قليلا.

أقول: لست أفضل، ولا أنت أفضل، وعليك أن تحافظ على كلمتك معها.

يقول: أي كلمة؟

أقول: لقد وعدتها ألا تتعرَّض لها، لا أنت ولا رجالك.

يقول: كيف تُدافع عنها هكذا؟ إنها حثالة.. مجرد غجرية.

أقول: هي التي أنقذت حياتنا في الصحراء.

يهبط بقية العساكر من السيارة، يُحيطون بنا متحفزين للانقضاض، كلّ واحد فينا كان يلهث، نلتقط أنفاسنا في صعوبة، الجازية مازالت ملقاة على الأرض، خائفة من النهوض، ورائحة الجثث قد تكاثفت وأصبحت لا تُطاق، يقول المأمور وهو يحاول التحكم في نفسه: عموما، ليس هذا وقت الحساب.

يُشير للعساكر أن يعودوا للعربة، يتوجَّه للسيارة الجيب ويجلس بجانب السائق، ولكنه قبل أن يتحرَّك يُشير إليَّ:.. وسوف تكتب تقريرا عن هذه الجثث وتُحضره لي.

يُريد أن تكون له الكلمة الأخيرة قبل أن تمضي السيارة. وقبل أن أتحرَّك لمعاونة الجازية كانت قد نهضت وهي تعدل شعرها وتنفض ثيابها، أقول لها: هل أنتِ بخير؟

تقول: طبعا بخير، تعودت أن أقع وأنهض وحدي.

وفجأة يرتفع صوتها بالضحك، ضحكة رائقة مجلجلة، لم أسمعها من قبل، تقول: هل رأيت ماذا فعل هذا المأمور؟ إنه خائف

مرعوب منَّا، يعرف أنني أقول كما يقول كلّ الناس، ومفزوع لأنك دافعت عني، ومفزوع من الكبت الذي داخله.

أتوقف مذهولا أمامها، من أين لها كلّ هذا الوعي؟ هل اكتسبته من طول التَّجوال في الطرقات؟ تستيقظ القرية وتبدأ رحلتها للغيطان، أقول لها: كيف ستعودين إلى أهلك؟

تقول ببساطة: أهلي سوف يأتون لي.

لا أفهم معنى كلماتها إلا عندما يظهرون فجأة، يبرزون من خلف الأحراش والأعشاب البرية، يتقدَّمون نحونا بخطى بطيئة كأنهم مازالوا نائمين. كعادة الغجر يسعوْن إليها ويُحيطون بها، أوشك أن أعرف وجوههم وأحفظ ملامحهم، تندسّ بينهم كأنها تحتمي بهم، تنظر نحوي وتقول: أنا ممتنّة لك يا حكيم لأنك دافعت عني، ربما كانت هذه هي المرَّة الأولى التي يُدافع فيها أحد عن بنات الغجر.

تستدير وتسير بينهم ويسيرون حولها، كتلة واحدة بائسة، ولكن مترابطة، أستدير أنا أيضا نحو باب الوحدة، أريد أن أجد مكانا أختفي فيه، أجد فيه السكينة لنفسي الممزَّقة، أصعد إلى سكني الصامت كالصحراء، أخلع ملابسي وأخلّصها مما فيها من رمال، وأجلس عاريا لبعض الوقت؛ ريثما يغادر صهد الصحراء جسدي. لا أحسّ بالجوع ولا بالشبع، أستلقي على ظهري وأتأمَّل السقف المتساقط الطلاء، أسمع صوت القرية قادما من بعيد مختلطا بهدير المحرِّكات، وشيشها لا يُغادر أذنيَّ. أغوص في ظلمة تدريجية فأرى الضباع وهي تترصدني من خلف تلال الرمال، يعدو عيسى أمامها خائفا وأعدو معه، نتشارك لحظة الرعب، أرى الصحراء وقد تحوَّل

لونها، يبتعد عيسى وتستمرّ الضباع في مطاردتي. تمتلئ عروقي
بالرمل وأنزف رملا أحمر اللون، يضع المأمور قدمه على صدري،
ويصرخ مطالبا بإعدامي. كان يعرف أنني شريك في القتل، وأن
«فرح» تهيل الرمل على رأسها بسببي، وأن الرجال الذين يجلسون
وظهورهم للحائط قد أصبحوا ندابات يرتدين السواد ويصحن
نائحات، كيف دخلتُ شبكة طقوس الحزن والندم دون جدوى؟
أتقلَّب على جنبي قلقا فأجد عيسى نائما بجواري يشاركني وسادتي
والضباع تملأ الغرفة، أستيقظ مفزوعا، فراشي خشن من أثر الرمال،
لن يغادرني لفترة طويلة، ضوء واهن للنهار، أي نهار هذا؟ كم مضى
عليَّ وأنا مستلقٍ هكذا أسيرا للكوابيس؟ فجر جديد يُشرق على
القرية وضباب يلفّ هامات النخيل، تتصاعد همهمات وأصوات
قادمة من ناحية القرية، أصوات من النادر سماعها في هذا الصباح
المبكر؛ فهم ينهضون في هدوء ويذهبون للحقول في صمت، ولكن
الهمهمات تتعالى والأصوات تزداد وضوحا، تكبيرات وابتهالات،
يظهرون على الطريق. النعش الأول، يحمله بعض الرجال على
أكتافهم، لم يكن مغطّى، والجثمان ملفوف في طبقات من الكتان
المائل للصفرة، وفي موضع الرأس غطاء أخضر، متكوِّم على نفسه،
لم ينزع الموت منه الخوف من العطش والضباع. يتبعه النعش الثاني
أيضا مكشوفا محمولا على أعناق الرجال، ثم يتبعه الثالث والرابع
وبقية النعوش، صفّ طويل من شواهد الموت الأبيض، حصيلة
الأجساد التي جمعناها من الصحراء. مشهد عابر غير واقعي، تتواتر
أمام عينيَّ في سيرها البطيء الحزين، خاصة أن الضباب قد هبط
من فوق هامات النخيل وأحاط بهم. في واحد من هذه الأكفان،
يرقد عيسى مستسلما كما كان أبدا. تتصاعد الغصَّة في حلقي،

يظهر أهالي البلدة سائرين خلف النعوش وهم يكبِّرون ويوحِّدون، ثم تظهر نسوة البلدة بثيابهم السوداء وشعورهن المهوشة، يلطمنَ خدودهنَّ، ويصرخن صراخا رهيبا يُمزِّق نياط القلب. لا أستطيع أن ألمح «فرح»، ولكني أعرف أنها بينهنَّ. يهزّني هذا النواح، كأنه موصول من أزمنة بعيدة، أتراجع خائفا من أن تراني، أن يراني أيّ من العابرين. أعاود الجلوس وحيدا، عاجزا عن النوم وعاجزا عن اليقظة، أفتح باب الثلاجة وأجد أمامي أصناف الطعام، كنت جائعا ولكني غير قادر على الأكل، غير قادر على ممارسة الحياة. أسمع صوت ضجة قادمة من أسفل، بدأت الحركة في الوحدة؛ يفتح دسوقي الأبواب ويتوافد المرضى، لابدَّ أنه يعرف أنني موجود، يُدخلهم حتى يرغمني على النزول. أشعر بعد فترة أنني غير قادر على الجلوس هكذا، أنهض وأرتدي ملابسي. في العادة لم أكن أرتدي البالطو الأبيض، ولكني اليوم كنت في حاجة لارتدائه، أريد أن أختبئ بداخله، لا أريد أن يرى فيَّ أحد غير طبيب الوحدة. أضع السمَّاعة حول رقبتي وأهبط على الدرج، أجد وجوها غريبة، كأنها من عالم آخر، أو أنني أنا القادم من عالم آخر، كانوا هم كما هم بعللهم وأعراضهم وشكاواهم المتواصلة عبر الزمان. يُحدِّق دسوقي فيَّ كأنني قادم من عالم الموتي، يتبعني إلى غرفة الكشف وهو يقول في حرارة: حمدا لله على السلامة يا دكتور، هل أحضر لك كوبا من القهوة الثقيلة؟

أقول: أنا صاحٍ تماما، ماذا حدث؟

يقول: منذ ثلاثة أيام وأنا أطرق عليك باب السكن وأنت لا تستجيب.

أنظر إليه مندهشا، هل ظللت نائما لمدة ثلاثة أيام؟ أنظر في المرآة، وجهي متعب وذقني نابت الشعر، أقول مذهولا: هذا الصباح فقط رأيت جنازة الأجساد التي سقطت في الصحراء.

يقول: كانت محتجزة في مشرحة المدينة، ولم يُفرجوا عنها إلا متأخرا ليلة أمس.

لا أفهم شيئا، ولا أريد أن أفهم، إنه كابوس لازلتُ أعيش فيه، ولن أدهش إذا رأيت الضباع تملأ غرفة الأدوية. أنظر حولي، لا توجد فرح، لابدَّ أنها في المقابر الآن، أضاعها عيسى وهو حي، واستردَّها وهو ميِّت، كل شيء يأتي بعد فوات الأوان. أنهي حواري مع دسوقي، هناك الكثير من المرضى، لم يذهبوا جميعهم إلى المقابر، جاءوا هنا وجلسوا يُحدِّقون فيَّ. أبدأ العمل، أنصت إلى الشكاوى المعتادة من كل الذين جلسوا واستكانوا وتحمَّلوا كل صنوف الإذلال، ولكن هذا لا يستمرّ طويلا. أسمع صراخا قادما من خارج الوحدة؛ صراخ امرأة ملتاعة، لستُ في حاجة لأن ألتفت وأنظر إليها، أعرف أنها فرح، حانت لحظة المواجهة. أنهض وأخرج إليها، أراها واقفة خارج الوحدة، ترتدي رداء أسودَ ممزَّقا ومتربا، رأسها مكشوف وشعرها أشعث ومقطّع، يداها ملوثتان بالطين، ما إن ترى وجهي حتى تصرخ بأعلى صوتها: قاتل.. قتلت عيسى، قتلت زوجي.

يلتفت كلّ المرضى ناحيتها وكذلك الممرضتان ودسوقي وبقية المارَّة، لا أتحرَّك من أمامها، تعود للصياح: أنت الذي أعطيته النقود، أنت الذي شجَّعته على الذهاب للموت.

تنحني على الأرض وتملأ قبضتيْها بالطين وتقذفه في اتجاهي. يهبط على البالطو الأبيض، أظلّ واقفا، لا أتحرَّك من مكاني، لا يُجدي الهرب، ولا تكفّ هي عن الصياح: أنت الذي قتلته.

تُلقي الطين من جديد، يسقط هذه المرَّة على وجهي، لا أتحرَّك من مكاني، يكسو وجهي قناع من الطين. من خلال جفوني المثقلة، أراها وهي تترنَّح سائرة في اتجاه القرية، يُسرع المرضى بالانصراف، يتقدَّم دسوقي ويلمس كتفيَّ، أجلس فوق أحد المقاعد، عاجزا عن خلع معطفي وعن إزالة الطين من على وجهي. يجلس دسوقي أمامي، لا صوت ولا حركة، ومازال صراخها الملتاع يدوِّي في أذنيَّ، وبعد مرور وقت طويل أسمع صوت دسوقي كأنه قادم من عالم آخر: هناك أمر نسيت أن أخبرك به منذ الصباح.

أرفع رأسي ببطء وأراه أمامي، يُمسك بيده ورقة، تبدو في عينيَّ بيضاء وخالية من الكلمات، يقول: هذه الإشارة وردت من مديرية الصحة منذ يوميْن.

أقول: واضح أنك قرأتها جيدا.. ماذا فيها؟

يقول: لقد تمَّت الموافقة على طلب النقل الذي تقدَّمت به.

تمَّت

القاهرة
٢٦/ ٤/ ٢٠٢٠
في عزلة وباء كورونا

طبيب أرياف

هذه الرواية تجربة جديدة في الكتابة حول العالم الخفي للريف المصري، ومحاولة اختراق القشرة البدائية التي تحيط به والتي تراكمت على مدى آلاف السنين، من خلال قصة طبيب أرياف شاب يتعرض لتجربة قاسية في بداية حياته فيبدأ رحلة جديدة إلى قرية منعزلة بالصعيد.

يعاني هناك من الوحدة قبل أن يجد نفسه متغلغلًا في تفاصيل الحياة اليومية للقرية الصغيرة الراقدة على حافة الصحراء. يقع في غرام الممرضة لكن تكون هناك مفاجأة في انتظاره.

«طبيب أرياف» تجربة طبيب يكتشف أن القوانين البدائية مازالت هي السائدة، وأن هناك سلطة مطلقة تعتمد عليها وتستمد قوتها من جذور بعيدة. هي رواية عن الحب والرغبة واليأس، عن قرية تختزل العالم، يتصارع فيها البشر والغجر والقوى الحاكمة، وتمتلئ ذاكرتها الخفية بطبقات الزمن المصري المتراكم.



محمد المنسي قنديل: روائي مصري، تخرج في كلية الطب عام ١٩٧٥، ولكنه انشغل بإعادة كتابة التراث فاعتزل الطب وتفرغ للكتابة. حصل على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٨٨. صدر له خمس روايات، منها: «قمر على سمرقند» التي فازت بجائزة «ساويرس» للآداب عام ٢٠٠٦، و«يوم غائم في البر الغربي» التي وصلت إلى القائمة القصيرة في الجائزة العالمية للرواية العربية عام ٢٠١٠، ورواية «كتيبة سوداء» التي وصلت إلى القائمة الطويلة في الجائزة العالمية للرواية العربية عام ٢٠١٦. كما صدرت له عدة مجموعات قصصية، منها: «ثلاث حكايات عن الغضب»، و«لحظة تاريخ: قصص من التراث».

دار الشروق
www.shorouk.com